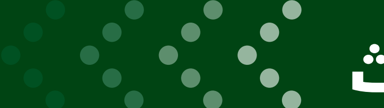


القافلة
مجلة ثقافية تصدر كل شهرين • سبتمبر - أكتوبر 2012
العدد 5
المجلد 61

قافلة الأبحاث



تنظِّم مجلة **القافلة** نشاطاً بحثياً غرضه إشراك الباحثين الراغبين، لا سيما طلاب الجامعات وطالباتها، بإجراء أبحاث ميدانية متعمقة في موضوعات تقترحها المجلة أو يقترحها المتقدِّمون أنفسهم. وتهدف هذه الخطوة إلى كتابة موضوعات تتجاوز المقال العادي، وتحقق الشمول والإحاطة بزوايا الموضوع المطروح كافة، لتقديمها في النهاية على شكل مواد صحافية جادة تتمتع بعناصر الجذب والتشويق الصحافي.

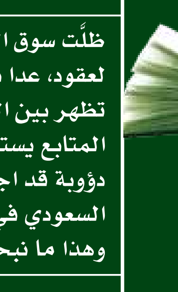
للمشاركة في هذا النشاط البحثي يرجى مراسلة فريق تحرير القافلة على العنوان الإلكتروني التالي:
qresearch@qafilah.com

وذلك من أجل

- الاطلاع على قائمة الأبحاث المقترحة من المجلة.
- معرفة شروط اعتماد البحث وصلاحيته للنشر.
- الاتفاق على الموضوع، وتبادل الرأي حول محتوياته وآفاقه.
- تحديد عدد الكلمات وملحقات البحث.
- تعيين المهلة الزمنية للبحث والاتفاق على موعد التسليم.

بعد اعتماد البحث للنشر من هيئة تحرير المجلة، ستصرف مكافأة الباحث، حسب سلَّم المكافآت المعتمد لدى المجلة لكُتَّابها.

صورة الغلاف



ظلّت سوق الكتاب السعودي نائمة لعقود، عدا بعض الالتماعات التي تظهر بين الحين والآخر. لكن المتابع يستطيع أن يشهد أن حركة دؤوبة قد اجتاحت ميدان النشر السعودي في السنوات العشر الأخيرة. وهذا ما نبحثه في قضية هذا العدد.

القافلة



ارامكو السعودية
Saudi Aramco

الناشر
شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية)، الظهران

رئيس الشركة، كبير إدارييها التنفيذيين
خالد بن عبدالعزيز الفالح

المدير التنفيذي لشؤون أرامكو السعودية
خالد بن إبراهيم أبوبشيت

مدير عام الشؤون العامة
عبدالله بن عيسى العيسى

رئيس التحرير
محمد الدميني

نائب رئيس التحرير
محمد أبو المكارم

تصميم
المحترف
al mohtaraf
www.mohtaraf.com

طباعة
شركة مطابع التريكي
e-mail: traiki@sahara.com.sa

ردمد ISSN 1319-0547

محطات العدد

سبتمبر - أكتوبر 2012
شوال - ذو القعدة 1433

توزع مجاناً للمشتركين

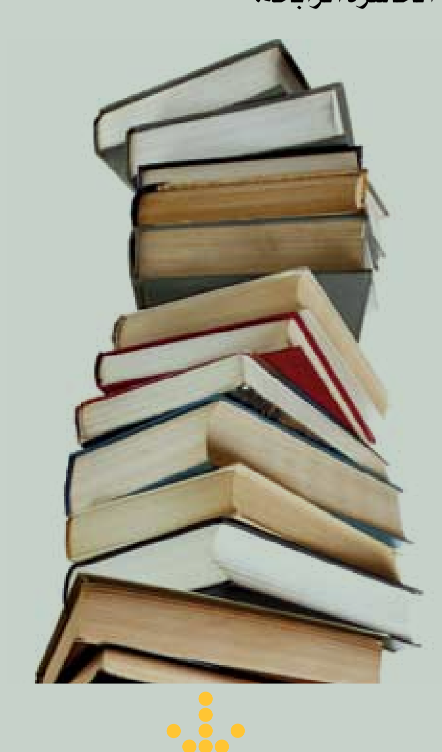
- **العنوان:** أرامكو السعودية
ص . ب 1389، الظهران 31311 المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: alqafilah@aramco.com.sa
الموقع الإلكتروني: www.qafilah.com

- **الهواتف:** فريق التحرير 5342 874 / 7890 874 3 966+
الاشتراكات 6948 874 3 966+
فاكس 3336 873 3 966+

رسالة المحرر

1 قضايا

قضية هذا العدد في «القافلة» يطرحها الكاتب سعد المحارب، وهي تبحث حول إجابة عن سؤال مفاده: هل طفرة الكتاب في السعودية أكبر من مجرد مجازفة بلاغية؟. ليضع في هذا التحقيق عدة ملاحظات ورؤى نقدية رصينة.
ويستضيف في نهاية التحقيق كلاً من الدكتور حمزة المزيني، حيث يكتب عن مشكلة حقوق الناشرين الأجانب، فيما تكشف الروائية بدرية البشر عن تجاربها الخاسرة الرابحة.



وفي مناخ القضايا نفسه، تتطرق زاوية «قول في مقال» إلى مسألة أخرى كانت طرحتها «القافلة» في عددها السابق، وتتناول رياضة الأسرة والطفل، فالكاتب عبدالحفيظ الشمري يحوّل النقاش باتجاه تعميق مفهوم الرياضة في المدارس والمجتمع، ويناقش الدور الذي يمكن أن تلعبه الرياضة في مختلف أوجه الحياة.



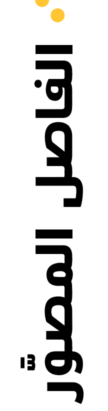
2 طاقة واقتصاد

تتضمن محطة الطاقة رحلة في عالم بناء ناقلات النفط العملاقة، من خلال ترجمة للمقالة التي كتبها جون سوه لمجلة «دايمنشن إنترناشيونال» التي تصدرها أرامكو السعودية، حيث يسلط الضوء على واحدة من أحدث ناقلات شركة فيلا البحرية العالمية، وهي شركة شحن مملوكة لأرامكو السعودية أنشأت في دبي عام 1984م.
وفي زاوية الاقتصاد مناقشة لفكرة العمل من المنازل أو ما يطلق عليه العمل عن بُعد. هل هي تمثل توفيراً اقتصادياً لتكلفة الموظف والتخلص من أعباء وتكاليف تشغيل المكاتب؟، ثم ما هي إنتاجية الموظف الذي يعمل من بُعد.



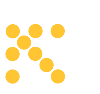
3 علوم وبيئة

وتخصص محطة العلوم والبيئة صفحاتها في هذا العدد لعالم النباتات وعلاقة الإنسان به، لا سيما وهي علاقة متأرجحة بين العلم والأساطير، فحصيلة تجارب الإنسان و رؤاه عن عالم النبات تؤكد هذا التشابك. من هنا يصحبنا الباحث أمين نجيب في رحلة شيقة تسترجع حضارات الشعوب ومفاهيمها العلمية والخرافية لعالم النبات.
ثم نقرأ إضاءة مهمة عن تناقص أعداد النحل في العالم، فمنذ سنوات سبع بدأ مربو النحل في أوروبا وأمريكا ملاحظة تناقص مستعمرات النحل بشكل لافت، وذلك يعني حدوث كوارث بيئية وغذائية عديدة قد تجتاح العالم إذا لم يتم تدارك هذه المشكلة، وهكذا خلصت آراء العلم والمؤتمرات الدولية الكثيرة إلى عدة أسباب نطالعها في فصل لاحق من باب البيئة والعلوم.





يستضيف الفاصل المصوَّر في هذا العدد الفنان التشكيلي أيمن يسري من خلال صور التقطها له المصوران: بركان قاوقجي وماجد المالكي أثناء عمله في تشكيل ألواح الصفيح التي قدَّمها بعنوان «العَلَم» في معرض آرت دبي 2012م.





4 حياتنا اليوم

بالوصول إلى مناخ الحياة اليومية نتوقف عند موضوعين: الأول عن الصيدلية المنزلية، فماذا عن محتوى هذه الصيدلية؟، وما الذي يجب توافره فيها؟، وما شروط تنظيمها وأي مخاطر قد تحملها لتجعل منها سلاحاً ذا حدين؟. الدكتور حذيفة الخراط يحاول في هذا الموضوع التداخل مع هذه المحاور والأسئلة.

والموضوع الثاني يتطرق إلى تربية الأطفال على التعامل الأمثل مع المال، فهل ينفقونه أم يدَّخرونه أم يستثمرونه؟. فأهمية تحميل الأبناء المسؤوليات المالية وتعلم أسس التفكير المالي بما ينطوي عليه من ادخار وتخطيط لإنفاق وفهم أكبر للخارطة المالية العالمية.



5 الثقافة والأدب

في استراحة الثقافة والأدب نقرأ عن اتفاق المسرحيين العرب على وجود أزمة نص مسرحي، فيرى البعض أن النصوص تعبِّر عن ذاتية كاتبها، والبعض يرى أنها بعيدة عن قضايا الجماهير، فيما يرى آخرون أن الأزمة تكمن في عدم التنسيق بين الكتَّاب والمخرجين.

والموضوع الثاني الذي نطالعه في هذه الاستراحة قراءة في جانب من حياة الأديب والصحافي الراحل عبدالكريم الجهيمان، ودوره في حمل رسالة التنوير كما نتعرف إلى جوانب من حياته.

وفي جانب آخر، نُلقي الضوء على مهرجان سيت السنوي في فرنسا، الذي يستقطب الشعراء والفنانين من دول العالم.



6 ملف العدد

أما ملف العدد فيأخذنا في جولة معلوماتية تأملية وتحليلية عن الشمسية أو «المظلة». إذ تشكل المظلة نطاقات من الأفكار والرؤى والاستخدامات، لا سيما وأنها أداة للحماية من الشمس خاصة في فترات الظهيرة اللاهبة وغدت فيما بعد وسيلة لدرء المطر. ثم أصبحت أداة أساسية في التصوير الفوتوغرافي، إذ تساعد المصور في التقاط صور على درجة عالية من الوضوح والدقة. وغير ذلك دخلت المظلة عبر الأدب والفن التشكيلي وصارت مرتبطة بالرفعة والمكانة الاجتماعية ودخلت في الاستعراضات السينمائية والغنائية.

الرحلة معاً

مسلسل «عمر» شراكة الدراما والتاريخ

يبدو أن «مسلسل عمر» الذي أنتجته مجموعة «إم. بي. سي» التلفزيونية وعرضته أغلب الفضائيات العربية والإسلامية في شهر رمضان الفائت، سيكون نقطة فاصلة في تاريخ الدراما العربية التاريخية، فظهور الخلفاء الراشدين وعدد من الصحابة والتابعين، سمعاً وبصراً، وبموافقة عدد من العلماء المرموقين هي خطوة لا بد أن تجر وراءها حبل الخلافات، لكنها في كل الأحوال، ستفتح لديننا الحنيف، بكل رموزه وفلسفته وحكمته نافذة على معترك الحياة المعاصرة، كما أنه سيقترب أكثر من عقول أجيالنا الجديدة ومشاعرها ووعيها.

نعرف اليوم أن الأزهر قد اتخذ قراره عام 1928م بمنع تجسيد نبينا المصطفى -صلى الله عليه وسلم- وصحابته الأجلاء في الأعمال التمثيلية أو التلفزيونية، وقد مضت جلّ الدول العربية والإسلامية على ذلك النهج، وإذا كانت قوة المؤسسات الحكومية والواقع الاجتماعي قد كرَّسا ذلك المنع لزمن غير قصير فقد فقدنا فرصة تقديم السيِر الناصعة للصحابة في أشد الوسائل الإعلاميةِ والترفيهية التي ظهرت خلال القرن المنصرم، تأثيراً وهيمنةً على عقول المشاهدين. وهنا فإننا نستطيع القول بلا خشية، إن الهدف من كتابنا المحكم ومن الأحاديث الشريفة، ومن آثار الصحابة والتابعين، ومن سيل عارم من كتب الفقه واللغة والسير والتاريخ والجغرافيا والعلوم، ومن كل نصوص ثقافتنا، هو ألاَّ تختبئ بين الأغلفة، أو أن تصبّ في رؤوسنا لنحفظها ثم نختبر فيها، كما كان يحدث في أساليبنا التعليمية الأولى، ولكن أن تتحوَّل إلى ثقافة يومية، إلى منبع للتفكير والتحليل، وإلى سند معرفي يساعد الجيل الجديد على الحفاظ على هويته، وجوهر دينه، وتحصينه ضد نوازع العزل والتطرف والجهل. كانت الوسيلة التعليمية الجائرة هي حفظ النصوص «صمّاً» ثم استعادتها على أوراق الامتحانات حيث سيتفوق دائماً أصحاب الذاكرة الصلبة، أما أصحاب الذاكرة المرنة فقد ينهار مستقبلهم التعليمي كله بسبب تلك الطريقة البالية في إعداد النشء.

اليوم، هذا الجيل لا يحفظ، وأكثر تلك المواد رهبة تلك التي تقتات على الحفظ والتسميع، وأعتقد أن الدراما التاريخية قد تقدِّم بعض الحلول المقنعة لهم، حيث تقترب تلك الشخصيات الباهرة منهم، ففي الدراما ومشهديتها التي تتجسَّد عبر المسلسلات التلفزيونية أو الأعمال السينمائية تخرج تلك الشخصيات من الكتب وتصبح نماذج حية، ذات طاقة خلاَّقة مؤثرة، رؤيتها للحياة ولواقعها المعاش مجسّداً عبر لغة محكمة، وعبر تصوير مكاني وزماني لمواقع الأحداث، وتتداخل المؤثرات الصوتية والموسيقية في العمل الدرامي لتمنح المشاهد فرصة الاندماج مع الرواية البصرية المتلاحقة على



الشاشة.

هكذا إذاً، وبفعل هذه الأنماط الجديدة التي تعرض الأفكار والأحداث والتواريخ في قالب فكري وفني يحمل روح التسلية، فإن النصوص تغادر جمودها وتستعيد تأثيرها.

يثير «مسلسل عمر» أيضاً الفكرة المعروفة حول كتابة التاريخ التي لا يسطرها إلا الأقوياء.

فالتاريخ الإسلامي كغيره من التواريخ الكبرى، هو تاريخ كوني، اختلطت تحت ظلاله كثير من الأجناس والأعراق، كما أن الجغرافيا الإسلامية واسعة، وكل القوى الصاعدة لن تتردد في إعادة كتابة تاريخ الإسلام وفقاً لمفاهيمها، ورؤيتها الدينية، وطموحاتها في التوسع والتسيّد، وهو ما يلقي بمهمة عسيرة على القنوات الإعلامية والثقافية العربية تقضي بالبناء على مسلسل عمر بل وتطويره. والمطلوب هنا ليس منافسة إعلامية على كسب المنابر بقدر ما هو وضع أرضية درامية متكاملة لتاريخنا، ديناً ومجتمعاً وثقافةً وأعلاماً ورموزاً وسيراً وقصصاً يشرف عليها متخصصون في كتابة التاريخ وصناعة الدراما معاً.

وأعتقد أننا إذا لم نتقدَّم لكتابة هذا التاريخ تليفزيوناً وسينمائياً ومسرحياً، فإن علينا ألاَّ نعض الأصابع حين نجد أمماً أخرى قد اهتبلت الفرصة، وأنتجت مجموعة من الأعمال الفنية المؤثرة على المشاهد المسلم في أية بقعة يعيش فيها. ليس كذلك، بل إننا نشهد استوديوهات عالمية غربية وشرقية تغامر بتقديم الرموز الإسلامية وفقاً لمنظومة الصراع التاريخي بين الإسلام والغرب، وبما أن تلك الاستديوهات تنتمي إلى صناعة ضاربة وساحقة التأثير، فإن الدول العربية والإسلامية لا يبقى لها سوى الاحتجاج أو إطلاق عبارات الشجب ثم يهدأ غبار الورق والتصريحات، بعد أن تكون رسالة الفلم أو العمل الفني قد حققت غايتها بنجاح...

إننا نستشهد كثيراً هذه الأيام بفلمي المخرج الراحل مصطفى العقاد: «الرسالة» و«عمر المختار»، كنموذجين مبكرين وناجحين في ميدان الدراما الإسلامية، لكن من شهد تلك الأيام يتذكر حجم الهجمة الشرسة عليه فقد كالوا له التهم بتشويه صورة الإسلام، والنتيجة أن تلك الأفلام التي دافع بها عن عقيدته وأمته لم تلق الترحيب المطلوب بين ظهراني أهليه، بل وتوقف عن مغامرته، وهكذا خسرنا أولى الفرص المبكرة لإيصال الرسالة الأصيلة لديننا، فيما استقبل الغرب الفلم باحتفاء نادر حتى إن مصادر تشير إلى أن فلم الرسالة اجتذب أكثر من ثلاثين ألفاً إلى الإسلام.

التحدي المباشر لنا هو أننا نعيش مع العالم عصر الصورة وانفجار قنوات ووسائط الاتصال والإعلام الاجتماعي، لكننا في تفاعلنا معه، نتردد عن تقديم صور أبطالنا أو رموزنا أو سيرهم وإنجازاتهم ونحن لا نكاد نحصي الأسماء التي اعتبرت مسلسل عمر خطأً تاريخياً، إلا أن الإقدام على عرض المسلسل قد خلق له أنصاراً ومتابعين كثر وأصبح العمل الدرامي أكثر متابعة على خارطة رمضان التلفزيونية.

ردود الأفعال الجماهيرية حول المسلسل هي الأكثر أهمية ولقد تابعتها قدر الوقت المتاح، لكننا لا نحظى للأسف بمعاهد متخصصة في قراءة الرأي العام واتجاهاته، وتبدلاته، ونسب رضاه أو غضبه، واستثمار اقتراحاته، وفهم ميوله، ورصد التحولات التي طرأت على تلقيه ...الخ.

«مسلسل عمر» يقدِّم نموذجاً متفوقاً للكتابة الدرامية العربية، بل ويفتح باباً واسعاً لتقديم الشخصيات الإسلامية بمواصفات معاصرة، وقادرة على الاستحواذ على مشاهدها. قدَّم الشاعر والباحث وليد سيف والمخرج حاتم علي عملاً أساسياً بعد بحث وتقص امتدا إلى سنوات، ونجحا في تقديم شخصية فارقة ومركزية في مرحلة الخلافة الأولى، لكننا نعرف أن المحاذير والحواجز تحيط بهذا العمل من كل جانب، يضاف إلى ذلك أنه عمل فني ربحي، أحد أعمدته التسويق واستمالة المعلنين، وهو ما يضيف أعباء غير مرئية للمشاهد، على الكاتب والمخرج والمنتج وقنوات البث الفضائي.

لكن يلزمنا الاعتراف بأن هذا المسلسل، رغم كل الجدل الذي أثير حوله، قد عبر من عنق الزجاجة دون أن يكسرها ...!.

رئيس التحرير



رسالة أو مقال

نافذة جديدة في بريد القافلة لكتابات قصيرة تناقش موضوعات طرحتها المجلة أو تعرض أفكارها الجديدة.

قرَّاء القافلة مدعوون إلى الإسهام في هذا النقاش على أن تكون كلمات المشاركة بين 300 و600 كلمة، مع احتفاظ فريق التحرير بحق الاختصار إذا دعت الحاجة إلى ذلك.



ملاحظات على تقدمنا الثقافي

مع وجود الوعي والانفتاح على مختلف الثقافات لا بد أن تتقدَّم الثقافة حتى دون خطة استراتيجية، لكن هناك في نظري عدة معطيات قد تجعل الثقافة تتقدَّم في الاتجاه الصحيح.

أولاً: لا بد من تشجيع القراءة من السنوات الأولى للطفل. وقبل المدرسة يجب أن يبدأ الأب والأم بالقراءة ورواية الحكايات لأطفالهما وتعليمهم الرسم. وفي المدرسة لا بد من تنمية وتشجيع القراءة بالفهم والرسم والأداء التعبيري. كما لا بد من زيادة المؤسسات الحكومية أو الأهلية التي ترعى الفنون والآداب، وفي هذا الصدد هنالك محاولات جادة في المملكة ونذكر منها قرية المفتاحة ومؤسسة المنصورية.

ثانياً: لا بد من وضع خريطة طريق للمثقفين في جميع مناطق المملكة، وأن تقام مراكز حضارية في المدن الرئيسة، تعرض أفلاماً ثقافية ووثائقية مهمة ومسرحيات هادفة، مع تخصيص مساحات لعرض لوحات للرسامين الموهوبين من الشباب، وإنشاء ملتقيات ثقافية مع أبرز الكتَّاب والأدباء لمناقشة الكتب والإصدارات والاستماع لقراءاتهم. ويمكن تحويل بعض المؤلفات السعودية الحديثة إلى أفلام سينمائية ليصل الفكر السعودي إلى أكبر شريحة ممكنة من المجتمع.

وثالثاً: إنشاء وتشجيع المعاهد الأكاديمية على إقامة دورات متنوعة تهم الجميع في مجالات معينة كالكتابة الحرة وتقييم اللوحات وشتى أنواع الفنون. وإنشاء متحف رسمي واحد على أقل تقدير في كل منطقة يحوي آثارها. نعم قد يتطلب جمع المادة المناسبة للعرض في المتحف وقتاً ومجهوداً ولكن يمكن الاستعاضة عن ذلك بمعارض موسمية مؤقتة، ويمكن تشجيع الانفتاح على الثقافات الأخرى بجلب أعمال فنانين من الدول الأخرى، تمثل مختلف أنواع فنون الرسم والنحت والأفلام الوثائقية الجادة والهادفة.

ومن الجميل أيضاً إنشاء صالونات أدبية يمكنها أن تحتضن الكُتَّاب والفنانين الشباب المخضرمين والموهوبين وتقديم منح دراسية لهم، لمواصلة تعليمهم في الأكاديميات والمؤسسات الثقافية المتميزة. ولا يمكن عزل المرأة من حركة النهضة في المجتمع وإلا شلّ نصف المجتمع والأجيال القادمة معه. لذا يجب تثقيف المرأة وتدريبها على المشاركة بأعمالها وآرائها في الفعاليات الثقافية التي تقام محلياً ودولياً.

ناجيا إدريسي

جدة

تعقيباً على موضوع الرحلة معاً: «هل تتقدم الثقافة دون خطة استراتيجية؟»، عدد يناير - فبراير 2012م

حول

الإنترنت.. كواكب ومجرات

قرأت التحقيق الذي نُشر بعنوان (الإنترنت.. عوالم متعددة) في العدد 5 من المجلد 60، واستمتعت بقراءة تجارب الآخرين في الشبكة العنكبوتية وقررتُ مشاركتكم تجربتي ورأيي حيال الموضوع.

لم يعد الإنترنت في هذا العصر مجرد وسيلة ترفيه وتسلية بل أصبح مصدراً مهماً لطلب العلم. فعلى سبيل المثال، قدَّمت شركة أبل خدمة جديدة تسمى (I Tunes) وهي اختصار لـ (I Tunes University) حيث توفر هذه الخدمة تحميل المحاضرات الدراسية والمواد التعليمية المختلفة بالتعاون مع عدد كبير من الجامعات الأمريكية مثل Harvard وYale وغيرها، وقد استفدت شخصياً من مشاهدة محاضرات من جامعات أمريكية تخص مادة الاقتصاد الكلي أكثر من استفادتي من حضور محاضراتي في جامعتي هنا في السعودية!

وأيضا استفدت من مؤتمرات مختلفة مثل مؤتمرات تيدكس وغيرها وأنا جالسة في منزلي من خلال متابعة تغطية الحاضرين للمؤتمر والتي تنشر على مواقع التواصل الاجتماعي. كما كنت استمتع بمناقشة الكتب مع مجموعة من القراء أو حتى مع مؤلف الكتاب نفسه!

ومن جهة أخرى، تُعد شبكات التواصل الاجتماعي، كـ «تويتر» و«فيسبوك» مصادر مهمة لتبادل الأخبار العاجلة وإبداء الرأي دون خوف من جهة رقابية ما. ففي «تويتر» و«الفيسبوك» مثلاً تستطيع أن تخاطب مسؤولاً ما أو شخصية عامة وتبدي له اقتراحك أو شكواك دون خوف أو حتى انتظار طويل قد يمتد لأيام وربما شهور لتستطيع أخذ موعد لمقابلته، وتستطيع أيضاً نشر فكرة ما وتدعمها بإطلاق حملة في الفيسبوك أو وسم (hash tag) على تويتر، ومن يدري ربما تبلغ فكرتك الآفاق وتجد ملايين من البشر ومن مختلف الجنسيات والأعمار يدعمونها أو يعارضونها. وفي تويتر تحديداً ترى مشاهير العالم وربما رؤساء دول يشاركونك تفاصيل يومهم كفطورهم مثلاً أو صور شخصية لهم مع أفراد عائلتهم أو تراهم يتحدثون بصيغة غير رسمية حيال موضوعات قد يظن البعض ألاَّ وقت لدى هؤلاء الأشخاص للاهتمام بها.

وباختصار، الإنترنت كون بأكمله، وأنت فقط مَن يحدد كواكبه ومجراته.

روناء الحربي

تعقيباً على مقال رحاب أبو زيد (الإنترنت.. عوالم متعددة) المنشور في عدد سبتمبر - اكتوبر 2011م



قصة الطاقة

المكان: المملكة العربية السعودية
الوقت: 1939م
العملية: تصدير أول شحنة زيت يتم تحميلها على ناقلة

في البدء، عرف الإنسان البسيط أن القدرات غير المستثمرة إنما هي قدرات مهدورة، فاستوجب على نفسه الكفاح للوصول إلى المقومات التي تصنع البيئة المُثلى للارتقاء بالحياة البشرية إلى خلق مسهّلات للعيش بأسهل الطرق الممكنة. ثم تطور العقل البشري ليصبح قادراً على الإتيان بمسببات تعينه على خلق النظُم وابتكار الاستراتيجيات اللازمة للتعامل مع هذه الطريقة الحياتية التي أوجدها لنفسه بالفوز في جميع معاركه مع المصاعب، ومع سمو الفكر الإنساني تسامت العلوم في علاقة طردية، فأصبح الإنسان لا يطيق العيش في بيئة الإنسان البدائي.

إن كل النجاحات التي حققتها البشرية وهذا التطور المبالغ في وصفه يُعدّ في نظر الفلاسفة أعظم ما حققه الإنسان منذ التكوين، بل الإنسان جازَ البحث في الابتكار وخلق الجديد إلى البحث في كينونة الإنسان نفسه، ومنها ظهرت العلوم الإنسانية بشتى فروعها، فمن علم الاجتماع على سبيل المثال لا الحصر أدرك أن أساس سهولة العيش هو القدرة على التعامل مع الآخر. وإمعاناً في البحث وفي بساطة العيش نرى كيف يتعامل الإنسان مع الآخرين وإن كانوا من أبعد أبعاد هذه المعمورة، وهذا ما كان من أمر الإنسان موضوعياً.

على وجه الخصوص، يأتي دور «أرامكو السعودية» لتضرب لنا أروع الأمثلة عن كل ما سلف، فعلى الرغم من المصاعب التي واجهتها إبان تأسيسها إلا أنها تخطت حدود المنطق الإنتاجي، ويداً بيد حتى صعّدت إنتاجيتها من المحلي إلى الدولي، ثم من الإنتاجية وحدها حتى ابتكرت السبُل لمزاوجة الإنتاج بالسلامة، مطبقة كل معايير المحافظة على البيئة والإنسان، ثم ما أنفكت تضرب لنا الأمثلة وتضرب بها الأمثال. فبامتلاكها ربع احتياطيات النفط الخام في الأرض في بداية الألفية فلا بد أن يكون ذلك من أهم الإنجازات البشرية على الإطلاق، فهذا العصر هو عصر علاقة الإنسان بمصادر الطاقة بشكل تام، وهذا العصر هو عصر النجاح والتعاون والأمر سيان بين التعاون الداخلي بين موظفيها أو حتى بين «أرامكو السعودية» بمجملها مع العالم الخارجي، وهو عصر التطوير و«أرامكو السعودية» خير مثال، وعصر مناهل المعرفة والاستزادة بالخبرات، وهذا العصر هو عصر «أرامكو السعودية».



إن الطموح الذي لا يعرف الحدود والعمل الذي لا يعرف التوقف هما العجلتان اللتان تدور بهما مركبة التطوير والمقود الذي يسيِّرها على خط النجاح هو تبادل المعرفة ومشاركتها وثبات هذا المقود على الدرب مقرونٌ بثبات استمرارية تعليم العاملين وتطويرهم، ولهذا أصبح الموظف لا يملّ ولا يكلّ من حب المعرفة وليست هنالك حدود جغرافية في خريطة النجاح خاصته مطلقاً.

بات الإنسان مأخوذاً بالعيش بوساطة مصادر الطاقة وأصبح الاستغناء عنها ضربٌ من المستحيل. ومع انتشار الشركات التي تعمل على هذه المصادر أصبحت مدعاةً للإضرار بالبشرية أكثر مما تعود عليها بالنفع، فهل يخاف المواطن هنا حين يعيش جنباً إلى جنب مع «أرامكو السعودية»؟

وقفة: خلال منتصف العقد الأول من الألفية أسهمت «أرامكو السعودية» في وقف انسكاب الزيوت الخام في مياه الخليج العربي.

تقف إجابة هذا السؤال على معرفة المواطن بهذه الأسطورة التي أسستها الحكومة السعودية. فمنا مَن يعرف أنها نافست جَميع شركات العالم اليوم على عرش السلامة، بما فيها جميع دول شرق آسيا وأمريكا ودول أوروبا وغيرها من الدول التي تقدمت كثيراً في العلم.

محمد العتيبي
الدمام

الذكريات على مفترق جيلين



الحديث عن الذكريات وصناديقها أثار شهيتي إلى أحد دواليب الذكريات بعلية المنزل، حيث تركن الملايين من الصور الملتقطة بوساطة كاميرا فلمية. ولأنني أردتُ حقاً أن أشارك أصحاب تلك الصور فرحتي بنبش ذكريات جميلة؛ وددتُ لو أنني حوّلتُ كل صورة منها إلى صيغة رقمية تقتحم هاتفي الذكي وتكرر نفسها عدة مرات حتى تستقر كلُ نسخة لدى شخص عزيز فيتصفحها كيفما شاء ومتى رغب.. ولا أخفي أنني فعلتُ ذلك ببضع صور ولم أستطع منع نفسي من تذكيرهم بها، لكن عمليةً كهذه – أعني الوصال بينَ التكنولوجيا والتقليد – سيأخذ من الوقت والجهد الكثير إذا ما ألقينا نظرة على الكومة المليونية «المُحَمَّضة» والمكدّسة في هذه العليّة.

وبالنتيجة، أغلقتُ الدولاب وعدتُ إلى حياتي الحاضرة وأنا أشعر بأنّ الغبار الذي علق بكفي كان لهُ وقعهُ الخاص، ومع النكهة اللطيفة التي أضافتها التعليقات الإلكترونية لمن شاركني استعادة ذكريات الصور، فقد كان محتماً أن نعترف بأننا على مفترق جيلين؛ لكلّ منهما طريقته في الاحتفاظ بالذكريات، فبعد أن كان الصندوق تحفةُ فنية أثرية ينتهي بها المطاف لدى الحرّاجين، أصبحت ببساطة ترتيبها لا تتجاوز عزلاً لها ضمن مجلد على سطح المكتب الكمبيوتري.

إذن فنحن لم نفرّط في صناديق الذكريات، كل ما فعلناه هو أننا أوجدنا نمطاً جديداً في مقدوره التعايش مع متطلبات حياتنا ذات الإيقاع المتسارع، انتقالاً من الصندوق الخشبي الذي يصدح بالمقطوعات الموسيقية فور فتحه، ووصولاً عند صناديق الشوكولاته الفاخرة، وانتهينا أخيراً عند مجلدات إلكترونية لا تحتفظ حتى برائحة الرسائل التي تختزنها في جعبتها، ولا نملك الوقت لكي نزيل الغبار عنها. ولا تبعدنا مشاركة الأحبة لها سوى بخيار (share) على أحد مواقع الشبكات الاجتماعية بعد أن كانت ألبومات الصور تدور مرات عدة بين الأصدقاء وتثير النقاشات والمناوشات حول المالك الحقيقي لتلك الصور، ويجري الانتقاء الدقيق المضني لمجموعة تحتاج لإعادة تحميض لأن البعض اشتهى أن تكون بعض نسخها بحوزته أيضاً.

حتى مراسيم التخلص من الذكريات اختلفت، فقد كانت الصورة التي ننوي التخلص منها تدخل في طقوس تشبه تلك التي يشيّع الهندوس فيها أمواتهم، على بُعد ولاعة أو عود ثقاب تكون نهاية صورة لا نريد لها أن تبقى في ذاكرتنا، أما اليوم فمن الصعب أن ننتزع صورة ضربتْ جذورها عميقاً في غابة الشبكة العنكبوتية، ومع ذلك.. لو عزمنا على أمر كهذا، فليس أسهل علينا من حذفه دون مراسيم عزاء وبغير أي أثر لرائحة حريق!

سؤال أخير؛ كيف عساها تبدو عملية الاحتفاظ بالذكريات واسترجاعها أو حتى التخلص منها في المستقبل؟ وهل يمكن أن تكون لها أبعاد أكثر رتابةً وجموداً مما هي عليه الآن؟.

جنان عبد العظيم الغريافي
القطيف

تعقيباً على مقال عبير الفوزان: (صندوق الذكريات، آثار ومقتنيات) المنشور في عدد سبتمبر – أكتوبر 2011م



حول

التقنية والنموّ النفسي

(أولادكم ليسوا لكم، أولادكم أولاد الحياة) مقولة قالها جبران خليل جبران منذ عقود وما زال صداها يتردد على مسامعنا اليوم عن وجود فجوة ما واختلاف جوهري بين حياة الأطفال وذويهم.. فبماذا يختلف أطفال وشباب هذا الجيل نفسياً عن الأجيال السابقة؟

نستطيع القول إن وجود التقنية الحديثة في مقدمتها شبكة الإنترنت في حياتنا أسهم بشكل إيجابي في التنشئة النفسية للطفل فقد أسهمت هذه التقنية وعن طريق الشبكات الاجتماعية (كالمدونات، الفيسبوك، وتويتر.. وغيرها) في خلق عالم افتراضي خاص بالطفل أو المراهق ويسمح لهم بالتواصل مع أشخاص آخرين بأسماء وهمية كانت أو حقيقية يشاركونه نفس الاهتمامات والهوايات والنشاطات مما عزز لدى الطفل أو المراهق شعوراً بالانتماء للجماعة والقبول من الآخرين والثقة بالذات وهو ما كان يفتقده أثناء المراهقة مروراً بالنضوج، ولعبت التقنية دوراً مميزاً في التخفيف من أو التنفيس عن الاضطرابات والضغوط النفسية التي يمر بها الطفل خلال المراهقة، فقد دأب عدد من المراهقين والشباب على تدوين يومياتهم وما يتعرضون له من مضايقات في المدرسة وخلافه. فالكتابة باسم مستعار منحتهم الحرية المطلقه في التعبير عمّا يختلج في نفوسهم وعن طرح تساؤلاتهم فيما أتتهم من تعليقات من الزائرين أو المستخدمين الآخرين وإحساسهم بأنهم ليسو وحيدين.

مهارات متعددة

لا يقتصر دور التقنية والتواصل من خلال الشبكات الاجتماعية على الجانب النفسي بل يمتد ليشمل المهارات الأخرى، فقد وُجد أن التدوين يساعد على تنمية جوانب أخرى في الطفل كتعويده على القراءة وإكسابه القدرة على التعبير والكتابة بشكل أفضل وتلافي الأخطاء الإملائية مع إثراء المفردات اللغوية وتقبل روح النقد والشعور بالمسؤولية تجاه موقعه الشخصي وتطويره وتحديثه. كما أسهمت التقنية أيضاً في إيجاد مساحات للإبداع بينهم في مجالات كالتصوير الفوتوغرافي والرسم والتصميم الإلكتروني وغيره، ونأتي هنا على ذكر الشاب جوناثان ماك لونج من هونج كونغ، الذي حصد شهرة واسعة لتصميمه صورة تأبينية لستيف جوبز، مؤسس شركة «آبل»، ووضعها في موقع التواصل الاجتماعي «تامبلر» مما دعا جريدة النيويورك تايمز الشهيرة إلى عمل لقاء صحافي معه.

الرقابة الأبوية

على الرغم من الإيجابيات المتعددة للسماح للأطفال والمراهقين باستخدام الإنترنت إلا أن علينا أن نعي تماماً حقيقة أن الإنترنت بيئة غير آمنة كلياً على الطفل والمراهق فهناك حذر دائم من سوء استغلالهم من قبل البعض، لذا فلابد من تفعيل الرقابة الأبوية قبل أن نسمح للطفل أو المراهق بولوج فضاء الإنترنت.

فاتن عبد الرحمن أبا

تعقيباً على مقال إبراهيم سعيد أبو صيام (التقنية والنموّ النفسي) المنشور في عدد يناير - فبراير 2012م

لا تنشد الإنصاف

شعر: فاطمة طاهر المزيدي

عبَّرت حُزناً دون أن تتكلَّما ... والحزنُ أبلغ صورة أن تُفهما

في صمتكَ المحزون دمعٌ حائرٌ ... ينسابُ من تلقائه مُستفهما

يا أنت في عمر التشرُّد كم مضى ... من عُمرك المقهور ترتاد الظما؟

أفنيتهُ من قبلُ أيَّام الصبا ... حتى كأن الشيبُ أضحى موسما

تسترحمُ الأيَّام هل من لفتة ... من ناظريها علها أن ترحما

حدَّث بصمتكَ إنها أوطاننا ... صارت حديثاً - ليت شعري - مؤلما

حدَّث بصمتكَ إنها أعمارنا ... من مأتمٌ تمضي لتلقى مأتما

ليلُ التشرُّد هل له من آخر ... والفقر في ليل الأسى كم خيما!

حدِّث بصمتكَ ألف مليون غدوا ... نهباً وقد كانوا سلاطين الحمى

يا عاشق الأوطان ما أوطاننا؟ ... فتشتُ هل ألقى لوجدي مُعجما

فتشتُ عن قومي فلم أبلغ لهم ... داراً ولم أبصر لداري معلَما

لا دار إلا وحده كوخ الأسى ... يرثيك يا شعبًا جريحًا مُسلما

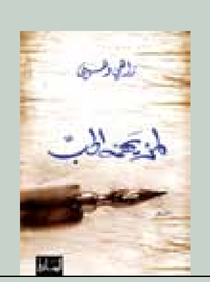
لا تنشد الإنصاف ممن قلبه ... يأبى ومن أحقاده لن تُفطما

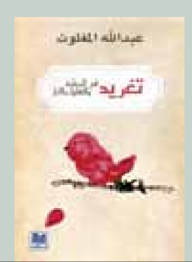
لا تنشد الإنصاف ممن لا يرى ... في عُمرك الباقي سوى أن يُعدما

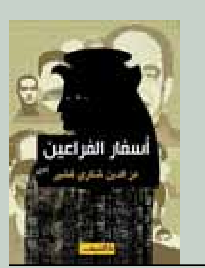
لا تنشد الإنصاف ممن شرعه ... أحرى وأجدى للورى أن يُرجما

قافلة النشر

إصدارات جديدة





خزائيل
خزعل الماجدي
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

لمن يهمه الحب (شعر)
زاهي وهبي
دار الساقي

لوعة الغاوية
عبده خال
دار الساقي

تغريد في السعادة والتفاؤل والأمل
عبدالله المغلوث
مدارك

صباح الثلاثاء
خالد الباتلي
مدارك

أسفار الفراعين (رواية)
عز الدين شكري فشير
دار الشروق









الأهازيج الشعبية المرتبطة بحياة الأطفال في البحرين
أحمد مبارك سالم
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

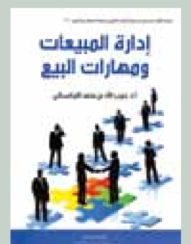
شخصيات من التاريخ
د. علي محافظة
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

العراق معابر الصحراء (رواية)
محي الدين قندور
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

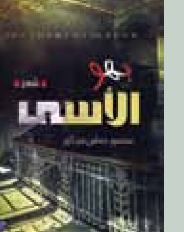
قمح في كف أنثى (شعر)
إياس يوسف ناصر
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

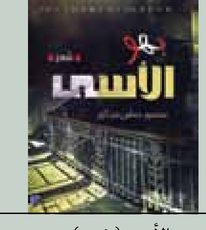
تطور الرواية العربية في فلسطين 48
د. جهينة عمر الخطيب
المؤسسة العربية للدراسات والنشر

مدينة عكا القديمة (دراسة)
د. محمد فتحي خليل
مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة





التوازن في الخطاب الإسلامي المعاصر لمواجهة المتغيرات العالمية
د. فؤاد البعداني
مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة

إدارة المبيعات ومهارات البيع
أ. د. حبيب الله التركستاني
جامعة الملك عبدالعزيز

الديون والبنوك
أ.د. عبدالله بن سيف الأزدي
جامعة الملك عبدالعزيز

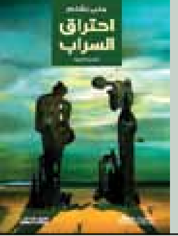
بهو الأسى (شعر)
منصور دماس مذكور
دار الكفاح

الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى (دراسة)
أ.د. حسن يحيى، أ.د. محمد البخاري، د. أسماء الأهدل
جامعة الملك عبدالعزيز

زراعة الخلايا
أ.د. صالح الكريم، د. فاطمة القدسي، د. فاتن خورشيد
جامعة الملك عبدالعزيز







المعادن والصخور الصناعية واستخداماتها
أ.د. طلال قاضي، د. أحمد حسن، أ.د. عادل سرور
جامعة الملك عبدالعزيز

القيادة الإدارية علم وفن
د. عيسى بن علي الملا

الأرض تجمع أشلاءها
أحمد الصالح
النادي الأدبي بالرياض

نقد الشعر عند الشعراء السعوديين
د. بدر المقبل
النادي الأدبي بالرياض

جدلية الفهم والتفسير
لزهر عقيبي
منشورات الاختلاف

احتراق السراب
منى بشلم
منشورات الاختلاف

طفرة الكتاب في السعودية

هل هي أكثر من مجازفة بلاغية؟!

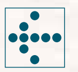




shutterstock



نستطيع القول إن سوق الكتاب السعودي ظلت نائمة لعقود، سوى بعض الالتماعات التي تظهر بين الحين والآخر ثم تختفي. لكن المتابع يستطيع أن يشهد أن حركة دؤوبة قد اجتاحت ميدان النشر السعودي في السنوات العشر الأخيرة. دواعي ذلك ومسبباته كثيرة ويطول الحديث فيها، بل وتتعدَّد التفسيرات بين مؤيد ومعارض، لكننا لا نستطيع إهمال شواهد ملموسة أهمها الازدحام الشديد الذي يشهده معرض الكتاب الدولي الذي ينعقد في الرياض كل عام، وصعود عدد من دور النشر السعودية إلى منافسة دور نشر عربية عريقة هيمنت على سوق الكتاب العربي لزمن طويل. الباحث سعد بن محارب المحارب الذي تابع عن كثب متغيرات ساحة النشر السعودي يضع في هذا التحقيق خلاصة ملاحظاته، كما يستضيف كلاً من الدكتور حمزة المزيني، والكاتبة بدرية البشر للحديث عن تجاربهما الخاصة في مجال نشر كتبهما.



هذه ليست قلادة تامة، أحاطت بعنق السؤال أعلاه، وإن طلبت ذلك. إنها محاولة لتطويق مساحة من التفكير في تنامي حضور الكتاب في السعودية: المكان والموضوع.

لم أكن حيث بدأت هذه المحاولة أعلم إلى أين أمضي، ولكن كنت أعلم ما ينبغي أن أتلافاه؛ لذا تجنبت إعادة ما اعتبرته معلوماً، مثلما تفاديت أن تكون هذه الكتابة محاولة مثالية للإحاطة بكل ما يمت للموضوع بصلة. إنها اجتهاد لتكوين مجموعة من المداخل وتوليد مزيد من الأسئلة، آملاً أن تكون بداية لما هو أعمق.

معرض الكتاب

منذ انطلاق معرض الرياض الدولي للكتاب بصيغته الحديثة تحت إشراف وزارة التعليم العالي ثم وزارة الثقافة والإعلام، وعبر ستة مواسم -إلى الآن- تحوَّل المعرض إلى المناسبة الموسمية الأبرز على الأجندة الثقافية المحلية.

المحترف السعودي

ومع الإقبال الجماهيري الواسع والفريد لمناسبة ثقافية هنا، تحوَّل المعرض إلى الوجهة الأبرز بوصفه سوقاً تجارية مغرية لناشري الكتاب العربي من مختلف أرجاء العالم، وسوقاً فكرية جاذبة للقارئ والكاتب المحليين، وكذلك مناسبة للصحافة الثقافية لتواصل يجتاز مساحة النخبة؛ التي تكتبها وتقرأها.

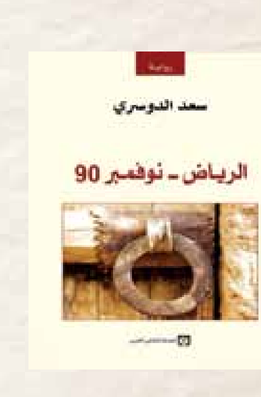
المعرض الذي ينطلق في الأسبوع الأول من «مارس» في كل عام جاء بسقف رقابي مرتفع بالقياس إلى السقف العام لمكتبات المملكة، وفتح أبوابه للجمهور من الجنسين دون تمييز، وتفاعل مع مناخ تنمو فيه وسائل الاتصال والإعلام، وتتوسع فيه نطاقات التعليم بدرجتيه -العام والعالي- كما تتضاعف أعداد المبتعثين والمبتعثات إلى مختلف أنحاء العالم. وعلى هامشه عقدت في كل عام ندوات ومحاضرات أمكن نعت بعضها بالجرأة، وتكررت ردود أفعال ممانعة اتسمت بالحدة أحياناً، فزادت هذه وتلك من إثارة المناسبة وجاذبيتها لتكون دائماً أكثر من معرض للكتاب.

الكتاب عن السعودية

من أبرز ما أنتج المعرض التنامي الطردي لإنتاج الكتاب وقراءته -أو على الأقل اقتنائه-، وشيئاً فشيئاً تبلور في قلب هذا الإنتاج خط يخص الكتاب المنشغل بالسعودية موضوعاً. يقدّر بعض الباحثين -وأنا منهم- أن موجة هذا الكتاب انطلقت بالرواية السعودية التي تتجاوز الخيار الفني إلى نظيره الاجتماعي من خلال رصد وتحليل المجتمع المحلي عبر خيار رواية السير الذاتية لشخصيات يقول المؤلفون عادة إنها خيالية. بهذا يمكن الانطلاق من رواية «الرياض نوفمبر 90» لسعد الدوسري التي انتشرت

نسخة مطبوعة ضمن دوائر يمتنع تقدير حجمها منذ عام 1992م، ولم تنشر في كتاب قبل عام 2011م، أو من رواية «شقة الحرية» لغازي القصيبي في 1994م. ومع بلوغ هذه الصيغة من تجربة الرواية مدى بدا أنه الأقصى، انطلقت موجة ثانية من الكتاب الذي يتناول السعودية رصداً وتحليلاً اتسمت بتخلي مؤلفيها عن القناع الأدبي؛ غير أن الكاتب السعودي عبدالعزيز الخضر -مؤلف كتاب «السعودية: سيرة دولة ومجتمع»- قال لي إن هذه الظاهرة معروفة منذ الثمانينيات الميلادية من القرن العشرين، إلا أن متغيرات مرحلة التسعينيات وما بعدها أعانت على تحرر الكتاب في السعودية من بعض القيود الاجتماعية والدينية والسياسية. ويرى باحث سعودي -يفضّل عدم ذكر اسمه- أن الكتب التي تتناول المجتمع المحلي، دون قناع أدبي، سابقة على موجة الرواية، مشيراً هنا خصوصاً إلى الكتب التي ناقشت مسائل التنمية منذ سبعينيات القرن العشرين. وفي الإطار نفسه يستدرك عبد الله فهد -مؤسس دار «أثر» للنشر- أن الإقبال على الكتب الفكرية والنقدية ظاهر بفعل قلة حضورها لسنوات «لكن جمهور الرواية لا يزال شغوفاً بها».







مساهمة الأندية الأدبية

في هذا الإطار يمكن النظر إلى توسع الأندية الأدبية في نشر وتسويق كتبها مستفيدة ولو بالحد الأدنى من نافذة المعرض، وقد امتلكت هذه الأندية ميزة نوعية كون كتبها مدعومة من وزارة الثقافة والإعلام. وقد أدى لجوء بعض الأندية إلى مشروعات نشر مشترك مع دور نشر أجنبية -لبنانية حسب اطلاعي- إلى ارتفاع مستوى المنتج وإمكانات توزيعه وانخفاض نسبي في ميزة الدعم التي كان من المفترض أن تؤثر في تخفيض سعر الكتاب. وربما يفسر هذا تباين خيارات الأندية في هذا الشأن. وموضوع الأندية الأدبية والنشر أكبر من أن يحتوى ضمن هذا العمل إلا أن الإشارة إليه هنا إنما جاءت في سياق التأكيد على تنامي نشر الكتاب في السعودية.

shutterstock

دور النشر السعودية .. بعضها مهاجرة

وعلى كل حال يقرر المؤلف السعودي محمد السيف -الرئيس المشارك في دار «جداول»- أن معرض الرياض الدولي للكتاب لعب دوراً رئيساً في ظهور تطورات نوعية لظاهرة الكتاب المهتم بالسعودية، مرجعاً هذا إلى حجم المبيعات الضخم مقارنة ببقية المعارض العربية؛ يقول السيف: «مبيعاتنا في يوم واحد من معرض الرياض تساوي إجمالي مبيعاتنا في معرض الشارقة، مثلاً». وهذه إشارة مثلما تفسر عناية الناشر، تعيدها ضمناً إلى إقبال القارئ.

هذا التوسع في نشر الكتاب المعني بالسعودية جاء عبر دور نشر لبنانية بصفة أساسية، ثم دخلت المشهد ظاهرة جديدة يمكن وصفها بدور النشر السعودية المهاجرة، وهي مجموعة من دور النشر الموجودة في لبنان لمستثمرين سعوديين. يستدرك المؤلف السعودي نواف القديمي -مدير عام دار الشبكة العربية للنشر- بأن توسع العناية بهذا الكتاب سابق على الدور المهاجرة، فهي النتيجة وليست السبب. كان السعوديون -بحسب القديمي- يميلون إلى نشر كتبهم عبر الدور

معضلة حقوق الناشرين الأجانب

د. حمزة بن قبلان المزيني

نُشر لي إلى الآن سبعة عشر كتاباً، واثنان في طريقهما للنشر.

ويمكن تصنيف كتبي إلى كتب في اللسانيات (وهو تخصصي العلمي) وكتب في قضايا فكرية وثقافية وتعليمية تدخل كلها في إطار الاهتمام بالشأن العام في المملكة. ونشر بعض هذه الكتب في المملكة ونُشر بعضُها خارج المملكة: في المغرب ومصر ولبنان.

وقد واجهت بعض المشكلات المزعجة شيئاً ما في نشر الكتب العلمية في اللسانيات. ذلك أنه لما كانت معظم كتبي في هذا التخصص ترجمةً من اللغة الإنجليزية فقد كان يعترضني دائماً عدم سماح الناشرين الأصليين للكتاب بلغته الإنجليزية بإعطائي حقوق النشر اتباعاً لسياسة متَّبعة تقضي بعدم إعطاء تلك الحقوق للأفراد وحصر الاتفاق بشأنها على الناشرين العرب المعتمدين.

وكان بعض الناشرين العرب لا يريدون توقيع اتفاقيات حقوق النشر مع الناشر الأجنبي؛ ذلك أنه يترتب عليه دفع مبالغ معيَّنة مقابل الاحتفاظ بحقوق النشر باللغة العربية. وهذا ما جعل بعض الناشرين العرب يتمنَّعون عن نشر ترجماتي، وهو ما ترتب عليه تأخر نشر بعضها لسنوات. كما كان بعض الناشرين العرب يمتنعون عن نشر هذه الكتب العلمية لأنها لا تحقق مردوداً مادياً مجزياً، كما يقولون، بسبب العدد المحدود من القرَّاء العرب المهتمين بهذا الموضوع. ويريد بعضهم حذف أجزاء الكتاب المترجم بسبب كثرة صفحاته، إذ يرون أن الكتاب كبير الحجم يترتب عليه جهد مضاعف ويمكن أن يكون سبباً في عدم رواجه!

أما الكتب الفكرية والثقافية والتعليمية فكان نشرها أسهل. ذلك أنها تتناول قضايا موضع اهتمام من القرَّاء على مختلف المستويات. وقد نشرتُ ستة كتب جمعتُ فيها بعض المقالات التي نشرتْها لي بعض الصحف السعودية والعربية عن قضايا التعليم، والتشدد الديني، والتجانس المجتمعي، وبعض القضايا الثقافية واللغوية.

ولابد من القول هنا إن تجربتي مع الناشرين كانت ممتازة جداً! فقد وافق أكثرهم على نشر كتبي مباشرة، ومن غير اهتمام بتفاصيل العقود. ويمكن أن أحكي تجربتين دالتين على ذلك:

فقد كنت في القاهرة في صيف سنة 2003م، وكنت قد ترجمت عدداً من المقالات والمحاضرات السياسية التي كتبها أو ألقاها الناقد السياسي البارز واللساني الأبرز نعوم تشومسكي، وعدداً من المقالات والمحاضرات والبيانات التي صدرت عن شخصيات مماثلة عن قضايا الإرهاب والحرب عليه وعن التدخل الأمريكي في المنطقة. فذهبت إلى صاحب مكتبة مدبولي، الحاج مدبولي -رحمه الله-، وعرضت عليه الكتاب، فطلب مني نسخة إلكترونية منه على (سي دي) فأعطيته ذلك وطلب مني العودة إليه بعد أسبوع. فلما قابلته بعد أسبوع قال لي إن الكتاب سيكون بين أيدي القرَّاء بعد أسبوعين! وهذا ما حدث! وأود الإشارة إلى أنه ناولني عقداً لتوقيعه فوقعته لا يتضمن أية حقوق مادية. لكنه زودني بعدد من النسخ من الكتاب بعد نشره.

والمثال الثاني أني ذهبت في صيف 2004م لمقابلة الدكتور جابر عصفور، المدير السابق للمركز القومي للترجمة في مصر، لعرض ترجمتي لكتاب نعوم تشومسكي «آفاق جديدة لدراسة الذهن واللغة»، وهو الكتاب الذي كنت أخشى ألا أجد له ناشراً عربياً لأنه متخصص جداً في اللسانيات والأسس الفلسفية والفكرية التي تقوم عليها. وقد وافق الدكتور عصفور مباشرة على نشره وطلب من إحدى الموظفات في مكتبه مراسلة الناشر الأجنبي فوراً للحصول على حقوق النشر. وهذا ما حدث، إذ نشرت الترجمة في 2005م. والأمر نفسه، وبالتفاصيل نفسها، حدث حين عرضت على الدكتور عصفور ترجمتي لكتاب الأستاذ الجامعي السنغافوري، محبوباني: «هل يستطيع الآسيويون أن يفكروا؟». وقد دفع لي مركز الترجمة مقابلاً مجزياً وعدداً من النسخ من الكتابين.

وحدثت المعاملة نفسها مع صاحب دار الانتشار العربي، الأستاذ نبيل مروَّة الذي نشر ستة من كتبي التعليمية والثقافية والفكرية. فقد كانت موافقته على نشرها فورية. وكذلك الأمر مع أصحاب دار جداول للنشر التي نشرت ترجمتي لكتاب الفيلسوف الهندي الأصل أمارتيا سين «الهوية والعنف»، 2012م.

وملخص القول أن تجربتي مع الناشرين كانت جيدة على الرغم من بعض المنغصات الخفيفة التي أشرت إلى جانب منها. وكان الهاجس الأول لي، ولا يزال، أن تُنشر كتبي، وتأتي المطالبة بمقابل مادي عنها في آخر ما أهتم به. وسبب ذلك أنه حتى لو تقاضيت عائداً مادياً فسيكون قليلاً نظراً لأن ما يباع من أي كتاب في العالم العربي لا يتجاوز في العادة ثلاثة آلاف نسخة. وهو ما يؤدي إلى ارتفاع قيمة الكتاب على معظم القرَّاء في العالم العربي.

اللبنانيــة التي مالت بدورها إلــى الاستفادة المالية، لكن الــدور السعوديــة المهاجرة استفادت من كــون القائمين عليهــا سعوديــون مهتمــون بالشــأن الثقافــي، عارفــون بدرجة أفضل بالمؤلفيــن والجمهور المحليين، فتحسنت الخيــارات واتسعــت -لتشمل أكثــر من الروايــة-. وكان هذا خيــاراً صائبــاً فــي رأي القديمي: «أن كتبنــا الأكثر مبيعــاً فــي معرض هــذا العام كانــت ستــة؛ خمسة منها لمؤلفين سعوديين، والسادســ يتناول موضوعاً سعودياً». وفــي سياق التأييد يعزو عبــدالله فهد هذا التميز للناشر السعــودي في سوقه المحلية إلــى أن القائمين على الدور السعوديــة الجديدة هم أبناء للوسط الثقافي بالمساهمة أو المتابعــة؛ الأمر الــذي أكسبهم صلة لــم تتوافر للدور العربيــة بالقارئ المحلي جعلتهم أكثر قدرة على انتخاب منشوراتهم.

فــي المقابل يبدو لبعضــ المهتميــن أن الظاهرة هي في الــدور السعوديــة التي اعتمــدت على معرفتهــا المتميزة بالجمهــور المحلــي وليســت فــي الهجــرة، يلمــح هؤلاء إلــى دور نشــر سعودية مهاجــرة إلى مصر منــذ سنوات طــوال؛ بعضهــا أغلق أبوابه وبعضها الآخــر تركز نشاطه في مجالات محدودة الجمهور مثــل الكتب الجامعية. في هــذا السياق يقول عبــدالله فهد إن دار «أثــر» التي تتخذ مــن الدمام مقراً لهــا، تراهن على ثلاثــة عناصر؛ أولها الالتــزام تجاه المؤلــف والمــوزع وحتى القــارئ، «الدور التــي تخفق فــي تحقيق الالتــزام تخســر مكاسبها مهما عظمت». والعنصر الثاني هــو المتابعة ثم الاستفادة من تطورات حركــة النشر عربياً وعالميــاً. وثالثاً الاستقلال عــن التوجهات الأيدلوجية وإعــلاء القيمتين الموضوعية والفنيــة. ويضيف إن نجــاح الناشر السعــودي لن يكتمل إلا بحضوره في السوقيــن المحلية والعربية. لكنه يقصد -كمــا فهمــت- أن الانطــلاق مــن الخــارج ليــس شرطاً لتحقيق هذا الهدف.

لماذا بعض الدور السعودية مهاجرة؟

يجيبنــي القديمــي بأن العمليــة تنقسم إلى ثــلاث مراحل، الأولــى ما قبل الطباعة وتشمل التحريــر والترجمة وتدقيق الهوامش ونحوها «هذه متوافــرة في مصر ولبنان، وبتكلفة أقــل مما هي فــي السعوديــة». المرحلــة الثانيــة الطباعة، وهــذه متوافرة فــي السعودية ومصر بمستــوى أقل مما هي في لبنــان. الثالثة هــي الشحــن، وهنا «الموقــع الجغرافي والخدمــات تجعل لبنان في المركــز الأول». يضيف السيف أن الإجــراءات الإداريــة فــي لبنان أقل تعقيــداً مما هي في

تجاربي الخاسرة الرابحة

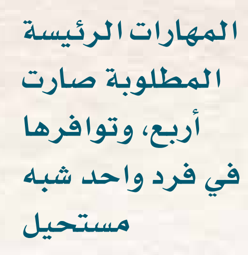
بدرية البشر

كنت للتو قد خرجت من تجربة نشر فاشلة مع أحد الناشرين السعوديين مع كتابي الأول «نهاية اللعبة» لم تسفر عن وصول كتابي للمكتبات بشكل مطلق. فانتهيت بالاتفاق معه على أن أشتري باقي النسخ وأوزعها بنفسي، وقد كانت تجربة التوزيع التي مررت بها أليمة وفاشلة بامتياز، لكنها زودتني بمعرفة كبيرة عن عالم النشر والتوزيع واكتشفت فيها أن كونك كاتب، ولو خاسر، أفضل من كونك ناشر رابح!.
بعدها صرت أطمح للنشر عبر دور نشر عريقة يفتش عن اسمها القارئ، حالما يحل في أي معرض كتاب، ويغامر بشراء الكتاب الذي تضع اسمها عليه. وعندما أصبحت مجموعة القصص القصيرة الثانية جاهزة قابلت بالصدفة المرحوم الدكتور سهيل إدريس، صاحب «دار الآداب للنشر» العريقة، إذ كنت قد تعرَّفت إلى ابنته رنا في معرض الكتاب بالقاهرة. كان حلمي يبزغ أمام عيني، وحين عرف أن لدي مجموعة جاهزة باسم «مساء الأربعاء» تحمَّس لنشرها، وبرَّر حماسه بأنه يريد لداره أن تدعم نشر أصوات سعودية شابة، وأن الحماس يزداد أكثر حين يكون هذا الصوت لأنثى؛ فالسعودية ظلت حتى وقت طويل بالنسبة للقارىء العربي جهة مجهولة المعالم غامضة، عصية عن السبر، وأن الحُجب تزداد حلكة مع الأنثى لذا فلا بد أن يكون نشر كتاب لكاتبة من السعودية حالة مثيرة للحماس والفضول بسبب ندرة الأصوات النسائية التي تنشر خارج المملكة؛ وقد كان محقاً. ففي تلك الأيام لم تكن الكاتبة السعودية قد بدأت بالنشر، وإن وجد فهي تجارب نادرة ومتعثرة وبعضها اكتفى بالنشر في الداخل. تبنت «دار الآداب» مشكورة نشر كتبي الأربعة؛ مجموعات القصص القصيرة ثم رواية «هند والعسكر». ولم ينقطع حماس الدار عن تبني أصوات سعودية شابة جديدة أبداً حتى بعد وفاة الدكتور سهيل إدريس.



بعد رواية «بنات الرياض» التي أعدها حدثاً يعادل أحداث 11 سبتمبر في تاريخ الرواية السعودية، على مستوى كشف المحجوب ليس من خلال مضمون الرواية بل من خلال واقع النشر العربي وتجاوب القارئ السعودي؛ فالذي تسبب بنجاح «بنات الرياض» هم القراء السعوديون وليس العرب. لقد كشفت ظاهرة بنات الرياض أسراراً عديدة نلمسها ونعيشها، لكن تجربة نشر الرواية جعلتها حقائق معلنة وأكيدة. أولها النمو السكاني الهائل في فئة الشباب، وثانيها دور التقنية الجديدة من مواقع

مصـــر أو السعوديــة. ويتفقــان أن الرقابة مــا قبل الطباعة فــي السعودية عائق إضافي، إذ يتطلب الأمر الحصول على موافقة علــى مسودة الكتاب قبل الشروع في طباعته. إلا أن عبـد الله فهد قال لي إنه تلقــى نصائح بأن يبدأ من بيروت لكنه فضّل أن تكون الدار في الدمام لأنه يرى أن الفــروق تقلَّصــت بين السعوديــة وغيرها من البلــدان العربيــة في عموم عمليــة إنتاج الكتــاب، فضلاً عــن أن الوجود فــي الداخل يتيح الفرصة للتعاون مــع مصممين وفنانين سعوديين.



زكي غواص

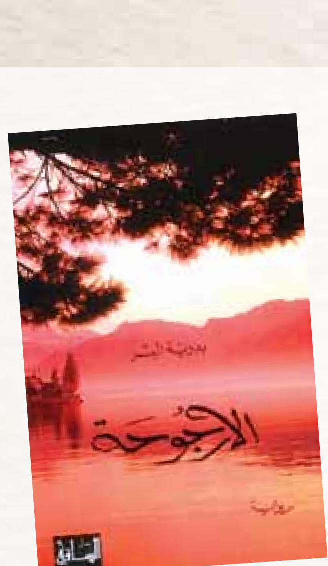
فتش عن الهدف

وفي إطار استعراض المبيعات بحثت في القيمة التجارية علــى لائحة دور النشر السعوديــة الجديدة. يقول القديمي إن البعــد الثقافــي فــي أكثــر الحــالات، والشخصــي في أقلهــا، متقــدِّم على البعد التجــاري لدى هذه الــدور، وإن المــلاك السعوديين يسعــون إلى هدف مثالــي هو معادلة الإيــرادات للمصروفات، وهو هــدف سيحتاج تحقيقه إلى انتظــار طويل، «أو إلى الأبد». في المقابل يعتقد السيف أن «جــداول» التي بدأت في نهايــة 2010م ستبلغ هذه النقطة خلال أبريل مــن عام 2013م، بحيث تغطي إيرادات الدار مصروفاتهــا، ثم يضيــف «لم ننشئ الــدار لنجني أرباحاً ماليــة، لكن استمرارها مرتبط بنجاحهــا المالي». وبعيداً عن التدقيق في هذين النموذجين المطروحين، أو البحث فــي نماذج أخرى، يمكن القول إن الهدف المالي لا يقع في رأســ القائمة غالباً، ويبدو أن السؤال عن الهدف سيحتاج تراكماً ونضوجــاً للتجارب القائمة حتى تتبيَّــن إجابته، أو إجاباته.

الشبكة الإلكترونية التي رفعت غطاء الحجب وساهمت في إزالة الستار. كما كشفت ثالثاً عن حجم العطش الهائل الذي تراكم في نفس القارئ والفضول الذي جعله يريد أن يعرف شكل من يعيش معه في نفس المدينة، لكن حواجز العزل والفصل ومحاربة الاختلاط وغياب الإنسان عن الشارع، جعلتهم كمن يعيش مع آخرين في غرفة مظلمة يسمع همهماتهم لكنه لا يفهمهم؛ فجاءت الروايات لتكشف له كيف يفكر هذا الآخر وما الأسرار التي يقترفها بعيداً عن السلطة الاجتماعية وربما انتقاماً من وصايتها. تحوَّلت الأعمال السعودية إلى نمائم احتجاج واعتراض وربما سخرية، فأصبحت كل قصة أو رواية بمثابة اعترافات شخصية أوسيرة ذاتية يحق لمن شاء من القرَّاء أن يحاسب الكاتب على ارتكابها أو على التصريح بها. في هذا المناخ المشحون بالنميمة والملاحقة والفضول، عرف الناشر العربي أن كل ما يأتي من السعودية مضمون البيع وربما الربح، لهذا وقعت أسماؤنا وخاصة النسائية كوقع جواهر تلمع في قلب الناشر العربي.

لا يزال دور الناشر العربي من وجهة نظري قاصراً مقارنة بدور النشر الأجنبية، فدور لجنة القراءة التي يكلفها الناشر بقراءة الكتاب تنتهي عند التوصية بنشر الكتاب أو عدم نشره، ثم تصحيحه نحوياً ثم طباعته، لكن دور النشر العالمية لاتكتفي بتصحيح النحو في النص بل تقوم بعملية تحرير حقيقية تعالج النص وتشده وتربطه، وتعرف أين مواقع القوة فيه فتطلب من الكاتب تطويرها وتعرف أين مواقع الضعف فتعالج ضعفها إما بحذفها أو تعديلها. تعرف أين يمكن أن تتمدد شخصية أكثر وأين يمكن أن تتقلص. قالت لي مرة السيدة رنا إدريس ملاحظة ذكية هي إن شخصية «عموشة» في نص «هند والعسكر» كان يمكن أن تكون أكبر، والآن أرى أنها كانت محقة بشكل كبير، كان يمكن أن تكون البطلة الرئيسة التي تتمدد في الرواية بشكل أكثر لكنها ذكرت لي هذا الرأي كانطباع شخصي، ولم تقترحه لجنة القراءة أو تنتبه إليه. لا يزال دور الناشر العربي محدوداً مقارنة بالناشر الأجنبي وكما رأيت وسمعت فإن السوق السعودية للكاتب والناشر هي سوق رابحة منذ عقد من الزمن أو أكثر ولا يوجد مبرر لعدم تطوير هذه الصناعة بالقدر الذي نأمله خاصة أن الناشرين العرب لهم تجربة لصيقة بالتجربة الغربية، فمنهم من درس هناك ومنهم من يجيد لغات أجنبية، ويتصلون بناشرين غربيين، أي إن استفادتهم من التجربة الغربية ممكنة وغير مستحيلة.

كما جاءت جائزة «بوكر» اليوم كحافز تتبارى دور النشر قبل الكاتب في حيازتها لأن ناشر الرواية الفائزة يحظى بسمعة الناشر الفائز أيضاً فيلقى رواجاً وقبولاً واسعاً في مجتمع الكتاب والقراء. المحفزات على عكس ما يروج تزداد حتى بمحاذاة الخسائر التي يسببها الإعلام الجديد. على الأقل لا يزال الحماس لشراء كتاب أو رواية موجود؛ فعندما صدرت روايتي الثانية «الأرجوحة» قبيل معرض الكتاب بيومين وبعد عودة الناشر في معرض الكتاب اتصل بي يطلب مني التوقيع على طبعة ثانية فجميع النسخ بيعت في خمسة أيام. لا يزال جمهور الشباب شغوفاً بالقراءة، يقوده الفضول للتعرف إلى ماهو مسكوت عنه منذ عقود. ربما هي حالة لابد أن نمر بها حتى نتخلص منها بحسب رأي «هيغل» حين قال: إننا لا يمكن أن نتخلص من الماضي إلا بالمصارحة معه؛ وها نحن نتصارح.



الكتاب الإلكتروني: خطر أم فرصة؟

لا يكاد يطرح اليوم حديث عن التحولات التقنية المتوالية إلا ويصاحبه جدل حول المصير الذي ينتظر القائم «القديم» في وجود الجديد -الذي قد يكون بديلاً-. ستسمع -كالعادة- عن الصحافة الباقية رغم الإذاعة، والإذاعة المستمرة رغم التلفزيون؛ لكن قد تستدرك أن كل وسيلة ظهرت تركت على سابقاتها آثاراً لا يمكن نفيها، فليست الإذاعة التي كانت قبل التلفزيون هي نفسها التي بعد ظهوره، كما أن التلفزيون لم يعد كما كان قبل ظهور الإنترنت، وبثقة أدنى يمكن القول إن موقع الكتاب ودوره تأثرا بتحولات ممتدة عبر تاريخه.

الحديث الآن، وهنا، عن استعمال التقنيات الحديثة في نشر الكتاب، سواء عبر نسخة إلكترونية من أصل ورقي، أو حتى عبر كتاب إلكتروني دون مقابل ورقي. هنا يمكن الحديث عن تجاوز متنامٍ لقدرة الرقابة، وبلوغ متوقع لمناطق أبعد من قدرة وسائل النقل التي يتم عبرها شحن الكتب عادة، فضلاً عن تخفيض استثنائي في التكاليف عبر تاريخ صناعة الكتاب؛ كما أنه حديث لابد أن يبلغ تطور إمكانية النسخ والاعتداء على الحقين المادي والأدبي للمؤلف والناشر.

بعض دور النشر العربية والمحلية بدأت عملياً خطوات تدشين مسار إلكتروني لإصداراتها، ويعتقد عبدالعزيز الخضر أن هذا خيار أفضل «لأن النسخ الإلكترونية حاضرة الآن وبدون إذن المؤلف ولا الناشر»، معتبراً أن هذا لن يؤثر على مبيعات النسخ الورقية للكتب «الجيدة». فيما يتوقع محمد السيف أن الاستثمار الأساسي للناشرين سيبقى في الكتاب الورقي على المدى المنظور، «هذا هو الواقع الآن، وهو واقع قابل للتغيير ولو بعد حين، والناشر الجيد يجب أن يكون جاهزاً». يؤيد عبدالله فهد هذا الرأي «الكتاب الإلكتروني ليس بديلاً عن الورقي؛ رغم توافر النسخ الإلكترونية، إلا أن الإقبال على نظيرتها الورقية لا يزال عالياً».

دهليز الأرقام

إحدى المعضلات الرئيسة في تقييم ظاهرة طفرة الكتاب في السعودية هي الأرقام؛ فحيثما يممت وجهك سترى من يجزم بأرقام مبيعات كتاب ما، وستسمع من يشكك في هذه الأرقام. وقلب هذه المعضلة أن الأرقام هي من ضمن الملكيات الحصرية العائدة للناشر، وحيث إن الأخير صاحب مصلحة مباشرة فإن افتراض صحة الأرقام بصفة دائمة متعذر، تماماً مثل افتراض أن من لا يملك الأرقام يمكنه التأكيد أو النفي. وحتى في الحالات التي تسعى فيها الصحافة بلوغ أرقام دقيقة -أو تكاد- عبر تجاوز الناشر فان اجتهادها يضيع بفعل الاعتماد على الدوائر القريبة إلى الصحافي أو العينات المتاحة من الجمهور، وكلا الخيارين لا يعكسان بالضرورة خيارات بقية الجمهور.

shutterstock

شرع بعض من الناشرين في الإفصاح عن شيء من الأرقام بعيد معرض الرياض الدولي للكتاب، إلا أن المنظمين لا يعلنون -ويبدو أنهم لا يملكون- أرقاماً دقيقة ولا تفصيلية لمبيعات الكتب. وفي العموم يبدو النفي أسهل من الإثبات في هذه الحالة، إذ إن إدارة المعرض لا تسمح بأن يتوفر في جناح الناشر أكثر من 100 نسخة من كل عنوان، وحيث إن التزويد يتم مرة واحدة في اليوم بما لا يتجاوز 100 نسخة للعنوان، وأن المعرض يمتد لعشرة أيام، فإن القول لو أن كتاباً ما بيع منه ما يزيد على 1000 نسخة خلال المعرض لا يَعدو أن يكون مبالغة؛ بل يمكن القول إن هذا الرقم هو الحد الأقصى الذي يتعذر بلوغه في الأغلبية العظمى من الحالات. ويساند هذا الاعتقاد أن توزيع المستودع بين الناشرين لا يبقي لكل منهم إلا مساحة محدودة -في أفضل التقديرات هي 24 متراً-، ومع التعدد الكبير في العناوين لكل ناشر فإن تخزين آلاف النسخ من عنوان واحد يبدو أمراً متعذراً. ومع كل هذا فإن القول إن الاستثناء كان غائباً بصفة مطلقة متعذر بدوره. وعليه فإن هذه الاستنتاجات لا تقوم أدلة قطعية وإنما قرائن ينصح معها المتلقي أن يكون أكثر حذراً في تصديق كل الأرقام المعلنة، والأهم أن غياب الأرقام الدقيقة يبقي السؤال بلا جواب آني أو منتظر، خصوصاً مع انعدام جهة مستقلة تملك أدوات التحقق من الانتشار.

وفي الخلاصة فإن التركيز هنا على هذه المسألة يهدف إلى تعزيز الشك المبدئي في دقة وصف ما يجري بمصطلحي «الظاهرة» و«الطفرة». وبمنظور أوسع فإن هذا الغياب حالة عامة تاريخياً بما يجعل الباحث على شك في ماضي ظاهرة انتشار الكتاب في السعودية لا في حاضرها فحسب. كل تلك العناوين الشهيرة في ذاكرة المكتبة المحلية هي مؤثرة في وعي النخبة وبناء على تقديراتها؛ لكن ما هي درجة انتشارها خارج نطاق النخبة؟!. الإجابة التي لا تزال ممتنعة عن هذا السؤال هي الطريق الأسلم علمياً لتكوين تصور يتصف بالجدية في تقييم «الظاهرة».

التسويق .. أخيراً يشمل الكتاب

ظلت مسألة التسويق التجاري للكتاب في السعودية محصورة في نطاق الصفحات الثقافية ضمن الصحافة الورقية بصفة أساسية؛ جاء هذا عبر مبادرات الصحافيين أو المؤلفين، بالإضافة إلى تناقل الخبرات من خلال التواصل الشخصي بين القرّاء. مع ولوج مرحلة الإنترنت في نهاية القرن الميلادي العشرين تحول هذا التناقل إلى صيغة إلكترونية أوسع انتشاراً. بات من الميسور على المؤلفين، وكذلك الجمهور المهتم، نشر إعلانات عبر الشبكة تتسم بالمجانية وسعة الانتشار ودقة التوجه إلى المهتمين، سيصل هذا المسار إلى مرحلة أكثر تميزاً عبر طريقين؛ أولاهما مع المواقع على الإنترنت التي تقدِّم خدمات البيع المباشر، سواء كانت هذه المواقع تابعة لمكتبات أو لناشرين، مثل «النيل والفرات» و«الساقي». والثانية عبر شبكات التواصل الاجتماعي، يجدر التمثيل هنا بحسابات «طوى» و«الشبكة العربية» و«مدارك» و«جداول» و«أثر» على (تويتر).

> هذا التوسع في نشر الكتاب المعني بالسعودية جاء عبر دور نشر لبنانية بصفة أساسية ثم دخلت المشهد ظاهرة جديدة يمكن وصفها بدور النشر السعودية المهاجرة

دور النشر السعودية المهاجرة لعبت في الآونة الأخيرة دوراً أبرز مما سواها في تسويق كتبها عبر حزمة من الإجراءات التي لم تكن من قبلها. قدّم لي محمد السيف نموذجاً في هذا الشأن، ترسل «جداول» إلى ألفي شخص -مثقفين وإعلاميين ومهتمين- عبر البريد الإلكتروني عناوين ونُبذ وأغلفة الكتب الجديدة. كما تقوم بإرسال 20 نسخة من كل إصدار جديد إلى الصحف في السعودية ولبنان. بالإضافة إلى عرضها على صفحتها على «فيس بوك» وموقعها على الإنترنت الذي تتاح فيه خاصية الشراء.

منافذ البيع المباشر .. في السعودية

يقر محمد السيف بأهمية وجود منفذ بيع محلي في ظل قلة المكتبات الكبيرة التي توصل الكتب إلى الجمهور طوال العام وليس فقط خلال معرض الرياض؛ المحدود زمناً ومكاناً. لكنه يرى أن قيام جميع الدور السعودية المهاجرة بإيجاد منافذ بيع سيؤدي إلى إضعاف فرص النجاح في هذا النشاط. ومن هنا فإن «جداول» تميل إلى توزيع كتبها ضمن المكتبات القائمة أو الجديدة التي يحاول الناشرون المهاجرون إنشاءها قريباً في السعودية.

ويربط السيف بين هذا التخلي وتخلي أغلب الناشرين عن تملك المطبعة. تملك المطبعة يكلف الناشر حمولة مالية وإدارية تثقل حركته، فضلاً عن أي مخاطر تتعرَّض لها المطابع نتيجة أي تطورات في لبنان. «الآن نحن نطبع في بيروت وعند حدوث أي مشكلات يمكن أن نحوِّل مسار الطباعة إلى أماكن أخرى». بالمثل فإن إيجاد منفذ بيع في السعودية أو غيرها يعني حمولات مالية وإدارية إذا أمكن تجاوزها من خلال البيع المباشر للمكتبات فهذا أفضل وأسلم.



المحترف السعودي

في المقابل تملك «الشبكة العربية» خطة مختلفة؛ يقول نوّاف القديمي: إن الدار تملك بالفعل مكتبتها الخاصة في القاهرة، وستكون مكتبتها الثانية في الرياض؛ «نبحث حالياً عن الموقع المناسب». وفي مسألة ضعف فرص النجاح مع كثرة مكتبات الناشرين المتوقع إنشاؤها يقول القديمي إنه لا يظن أن الجميع سيأخذون نفس الخطوة.

قول في مقال

رياضة الأسرة والطفل.. مضمار معطّل

نشرت «القافلة» في عددها لشهر مايو - يونيو 2012م، مقالاً بعنوان «الألعاب الرياضية بين أسطورتي النبل والسلعة»، استعرض تاريخ الألعاب الرياضية واعتبر أنها تداخلت دائماً ضمن الاحتفالات الاجتماعية والدينية لدى كل الشعوب، لكنها بلغت اليوم محطة تكاد أن تحوِّلها إلى هدف استهلاكي. الكاتب والروائي عبد الحفيظ الشمري، يحوِّل النقاش هنا باتجاه تعميق مفهوم الرياضة في مدارسنا ومجتمعاتنا، ويتحدث عن الدور الذي يمكن أن تلعبه الرياضة كفعل وممارسة في تحسين صحة أفراد أسرنا.

الرياضة المتعلقة بالأسرة والطفل لدينا غالباً ما يقال عنها: إنها مشاريع إنسانية معطَّلة، وطاقات مصابة بالشلل أو الكساح، ومرد هذا التوصيف للحالة أنه ومنذ عقود تنقسم هذه الرياضة على نفسها جرَّاء رأي اجتماعي ملتبس، أو رؤية تمنعية مضطربة السلوك، أو فكرة مختلة التكوين تصرف الجميع عن ممارسة الجملة الأولى لمفهوم الرياضة للجميع، ألا وهي حرية الحركة والعمل البدني والنشاط الرياضي المعد بعناية وبوسائل مناسبة لجميع فئات المجتمع، رجالاً ونساء، كباراً وصغاراً.

ففكرة رياضة الأسرة والطفل تعلو قليلاً في بعض الأحيان على هيئة مطالب ملحة تنادي بتفعيل دور الرياضة لهذه الفئة ولا تلبث في أحايين كثيرة إلا وتختفي في ظل زفير المحظور وصهيل الممنوع وما اختلط من رؤى وتكهنات مضمرة ومعلنة حول معنى الرياضة.. أهو من قبيل لعب كرة القدم؟! أم اللهو؟، أو تراه من أسباب هدر الوقت، أو من حالات تبرج أو ظن بسفور، أو اعتقاد بخدش للحياء؟!

فيما يقف على الطرف الآخر من هذه المعادلة وهم القلة من يرى أن الرياضة فرصة ضرورية للبقاء أصحاء بين الناس، ليطالبوا على الدوام بأن يهب الناس بكافة فئاتهم وأعمارهم إلى تفعيل دور الرياضة في الحياة العامة من أجل أن يحمي الجميع أجسامهم من علل وأمراض محتملة، تبدأ بالسمنة وتنتهي باستجلاب أمراض مستوطنة لا شفاء منها بأي حال من الأحوال.

إذاً مفهوم الرياضة لدينا ملتبس ومعناه غير واضح، لعدة أسباب نحسب أنها موضوعية وتصب في خانة البحث عن إجابات مقنعة لهذه الأسئلة التي لا تكل أو تمل من التردد على أفواه الناس حول ما يرى أنها عديمة الجدوى، لا سيما أنها أصبحت الآن حالة من المتابعة والفرجة والتسمر أمام الشاشات التلفزيونية لمشاهدات حفلات الافتتاح والبدايات البراقة والنهائيات الملتهبة وما إلا ذلك من متابعة بصرية فقط.

وهناك سبب آخر لا بد من ذكره يتمثل في أن هناك من يشير إلى أن معضلة الرياضة هذه الأيام تكمن في تقديمها للمجتمع بوصفها شأناً استهلاكياً، أو ترويجياً فجاً لمستورد من خارج الحدود.. فلم تنبع هذه الرياضة -برأي هؤلاء- من عمق المجتمع كحركة وعي، أو توجه سليم يعي أهمية التدريب ويستشرف مضامين الرياضة بوصفها عملاً تفاعلياً للجميع يبدأ من رياضة تحريك الجسم وبذل طاقة وجهد تسهم في خلق روح جديدة للإنسان وينتهي بوضع ثوابت وقيم سليمة للرياضة تسهم في غرس معانيها المثالية في ذهن الجيل الجديد من الأطفال الذين ينظر إليهم بوصفهم اللبنات الأولى في بناء الصحة العامة للأسرة والمجتمع.

فمن المواقف الطريفة حول الرياضة البدنية وعلاقتها الملتبسة في رسالة التعليم لا سيما في الريف لدينا، أن الأطفال أو الطلاب في الصفوف الدنيا يُعرِّفُون الكُرة بأنها «البدنية» كأن يقول البعض منهم للمعلم: «يا أستاذ.. البدنية انفجرت، أو سُطحت في الجوار»، وحينما تفتش عن سر هذا الاستخدام لملفوظ البدنية الذي يطلق على كرة القدم تكتشف ودون عناء أن المادة في الجدول المدرسي اليومي تُعرَّف أو تُكتب بعبارة: «تربية بدنية» وهم لا يرون في هذه المادة غير الكُرة، فجاء الارتباط الذهني بمفهوم ما يمارسه، بأن التربية البدنية هي الكُرة، ليأخذ اسم هذه اللعبة وأداتها «كرة» ملفوظة في المنهج محرفاً ولا ينم عن واقعه.

فنحن إذاً بحاجة إن كان الأمر ولا بد -كما يقال- إلى منهجين للتربية الرياضية، واحد ثابت ومألوف هو حصة كرة القدم، وأخرى هي حصة التربية البدنية، وذلك للخروج برؤية تربوية رياضية سليمة تنقذ هذا الجيل الجديد من مشكلات السمنة المفرطة والجهل بقواعد الرياضة المدرسية التي تبدو هذه الأيام وكأنها مكرَّسة على الدوام لهذا النوع من الأداء الرياضي الذي يغلب عليه طابع هجمة ما لتسطيح مفاهيم وقيم العطاء الرياضي المثالي.

أما إن أردنا أن نقيل الرياضة المدرسية من عثارها في هذه التجربة فيجب أن نفكر بعمق في أسباب الرياضة ومضامينها وأهدافها الرئيسة في التربية والسلوك الذي يمكن لنا أن نحققه للجميع دون تفريق أو تفضيل.

فلا ينبغي أن تقتصر الرياضة المدرسية وعلى مدى عقود تناهز الخمسة على المرحلة التعليمية لفئة البنين وحسب، بل من الأجدى أن تشمل هذه الرياضة مدارس البنات، بل وتتعداها نحو الأسرة والمجتمع من أجل تشجيع الرياضة باكراً عند الأطفال.

ومن الأهمية بمكان أن تسن أنظمة جديدة ترعى الرياضة وتوازن بين فئات المجتمع في مطالبها الجادة، وأن يكون محور هذه الأنظمة رعاية رياضة الطفل والأسرة من أجل أن تصبح حالة ضرورة في حياتنا يمكن للجميع من خلالها أن يؤدوا دورهم المأمول في خدمة مجتمعهم وبلادهم، وقبل هذا صيانة صحتهم وأجسامهم من الترهل والعجز وتكوّن الدهون.

فلا نبالغ إن قلنا إنه للأسف قد تم استيراد الرياضة كسلعة، حينما حشرت في خانة أو فكرة الزيّ القديم الذي كان يفرض في المدارس، حيث جاء في بدايات التعليم النظامي قبل عقود بهيئة ربما لم تشفع للرياضة أن تستمر فقد كان زياً لا يلبس إلا من أجل التخلص من هذه الحصة الثقيلة في المدرسة، وحينما تحوَّلت إلى مجرد تسلية في كرة القدم انطلقت إلى حد ما لتتحرر الفكرة من إسارها وتكون مشاعة، لكنها للأسف انحرفت إلى ما يشبه الوجبة الكروية -كما أسلفنا- دون وجود للرياضة بمفهومها الواسع.

من هنا يمكن لنا أن نقول إن الرياضة المدرسية تجربة غير موفَّقة، لأنها لم تضع رياضة الطفل أو الشاب بفئتيه الذكور والإناث في مكانها الصحيح، وربما ما ضاعف الأمر وجعله أكثر اجتزاءً واغتراباً هو تجاهل فئة الإناث عن تفعيل دور الرياضة لهن مما أسهم في بناء هذه الفكرة المزدوجة.

فقد ألفَ الجميع -خطلاً- أن ينصح الصغار بأن يتدرَّبوا ويمارسوا الرياضة، ويخلعوا ملابس البساطة، ويرتدوا ملابس التدريب وأحذيته فيما لا يحرك ساكناً في أمر تدريس الطالبات، مما يجعل الأمر في خانة واضحة من الازدواجية والتمترس خلف رؤى حادة لا تقبل الجدل حتى في مفهوم الرياضة للجميع. فكيف يتسنى لنا أن نشجع أبناءنا الطلاب الذكور على الرياضة والانضباط التدريبي وإحضار مستلزمات وأدوات الرياضة ولا نقرّه لبناتنا وهما كائنان صغيران بحاجة إلى رياضة وتدريب.

نحن إذن في معضلة اكتمال مفهوم الرياضة للجميع، إذ لا يمكن لنا أن نقول عنها إنها بنية مفاهيمية واحدة، تسعى إلى إشراك الجميع دون تمييز أو إقصاء، إلا أن ما تنشره، أو تبثه هذه المقاربات هو من قبيل الإشارة القوية إلى أن هناك من يزعم أن هذه الرياضة ذكورية، نظراً لتكوينها التاريخي حينما يستدل البعض على أن الكثير من رياضات الإغريق أو الرومان على سبيل المثال طابعها رجولي مما يؤصل فكرة تنحية المثال الجمعي لفعاليات المجتمع على حد سواء، حتى وإن كانت تظهر اللعبة الجماعية في الكثير من أنشطتها.

أمر آخر ربما يحقق للرياضة الأسرية والاجتماعية بعض ما تريد وهو قيام مشروع وطني متكامل وواسع الصلاحيات ومتوافر في جوانب الصرف المالي، وأن تقوم على إدارته فرق مميزة في مجال إدارة العمل الرياضي الجماعي إضافة إلى استقطاب من سبق الاحتراف والحضور الرياضي الفاعل والأداء التميز في مجال التربية الرياضة من مدربين ورياضيين ولاعبي كرة سابقين لكي يستفاد منهم، وهم بالمناسبة كثر وينتظرون دورهم في خدمة المشروع الرياضي المتكامل خدمة للأسرة والمجتمع.

كما أن العمل على إنشاء مقرات رياضية جديدة على أحدث طراز لا شك أنه سيخلق نقلة نوعية للمجال الرياضي الذي تتطلبه المرحلة مع العمل على إعادة تأهيل المرافق التعليمية وتجهيز المدارس والمعاهد والصالات الرياضية، لتسهم في بناء منظومة رياضية بات المجتمع في أمس الحاجة إليها بعد أن ثبت أن قلة الرياضة وممارسة الحركة والجري هي السبب في تكاثر الأمراض ناهيك أن قلة المرافق وافتقارها للأدوات الرياضية هي السبب المباشر في تفاقم القطيعة بين المجتمع وأداء الرياضة. فالمدارس ستكون نواة مهمة للحركة الرياضية وخروجاً من نمطية فكرة التعليم وساعات العمل وإقفال المرافق، مما يعزز الشعور بالقطيعة فلو تم تفعيل دور المدرسة في الجانب الرياضي والمعرفي على نحو المسرح والحفلات والترفيه ستكون لها بلا شك أبعاد إيجابية تبني العلاقة الصحيحة بين الأسرة والعمل التعليمي.

في النهاية لا بد لنا -إن أردنا جميعاً تطوير العمل الرياضي الجماعي- وكخطوة أولى هو أن نسعى بصراحة ووضوح إلى إيقاف كل المحاولات الحالية في مجال ما يعرف بالرياضة الجماعية الحالية، أو النشاط الرياضي الأسري إن وجد .. فهو عمل يبدو من تكوينه ووجوده الهش أنه لا يستحق الذكر نظراً لأنه قام على أسس هشة ونظرة مجتزئة.

ولكي نكسب ود الرياضة وفعالياتها الضرورية والترفيهية فإنه يجدر بنا أن نعالج هذا الخلل الاجتماعي الذي ذكرناه سلفاً.. ذلك الذي تم بناؤه على أسس مغلوطة، ويمارس برؤية مضطربة، فالتحول الحياتي المتسارع من حولنا يتطلب منا إيجاد علاج مناسب يقرِّب المسافة بيننا وبين مفاهيم الرياضة التي يعيشها الجميع على وجه الأرض.

رحلة في عالم بناء

ناقلات النفط العملاقة



المكان: جزيرة جيوجي في كوريا الجنوبية.
الموقع: ساحة بناء ناقلات الزيت العملاقة.
هنا في ساحة بناء ناقلات النفط العملاقة في جزيرة جيوج في كوريا الجنوبية، أرى للمرة الأولى في حياتي ناقلة بهذا الحجم الضخم. وتساءلت: كيف يمكن لهذا الهيكل المهول أن يعوم برشاقة وهدوء على سطح البحر محملاً بنحو 2.25 مليون برميل من النفط الخام السعودي الثمين، ليقطع به ما يقارب نصف المعمورة؟ لكن لا شك في أن بناء هذا الهيكل العملاق كسر كثيراً من قوانين الطبيعة، وتعدى حدود الخيال والمنطق أيضاً. فبناء ناقلات الزيت الخام الكبيرة جداً لم يكن متاحاً منذ سنوات ماضية، إلا أنه حلم ظل يراود العلماء والخبراء في مجالي النقل البحري والنفط على حد سواء.

هذا المقال الذي أعده، جون سوه، لمجلة (دايمنشن إنترناشيونال، عدد ربيع 2011م) التي تصدرها أرامكو السعودية، وترجمته فيان الخفاجي يسلط الضوء على واحدة من أحدث ناقلات النفط لشركة «فيلا البحرية العالمية المحدودة»، وهي شركة نقل بحري مملوكة لشركة «أرامكو السعودية» أنشئت عام 1984م ومقرها في مدينة دبي.


سطح إحدى الناقلات العملاقة (الثنائية الهيكل) التي تمتلكها شركة أرامكو السعودية

يضم أسطول «فيلا» 20 ناقلة، علماً بأن برنامجها الإنشائي الضخم قضى ببناء 14 ناقلة زيت خام ضخمة جداً (VLCCs)، أربع منها شيدت بين عامي 2001 و2003م، وست منها شيدت بين عامي 2007 و2009م، وفي نهاية 2010م تم إتمام البرنامج بإضافة أربع ناقلات أخرى.

واستطاعت هذه المجموعة الجديدة من الناقلات الضخمة جداً ذات الهيكل المزدوج، أن تحل محل الناقلات الخمس عشرة القديمة ذات الهيكل الواحد التي كانت تمتلكها «فيلا»، في خطوة تعكس مدى الالتزام الوثيق لـ «أرامكو السعودية» بالمعايير والقوانين الدولية للمحافظة على البيئة، والتي تنص على ضرورة إحالة الناقلات ذات الهيكل الواحد إلى التقاعد بحلول عام 2015م، بهدف تلافي مخاطر التلوث الناجمة عن تسرب الزيت الخام في المياه.

التخطيط لبناء (VLCC)

كل مشروع من مشاريع بناء ناقلات الزيت الضخمة جداً (VLCC) يجب أن يحظى أولاً بموافقة «فيلا» والشركة الأم أي «أرامكو السعودية». وقبل الشروع بأية مشروع رأسمالي من هذا النوع، تنال «فيلا» موافقة مساهميها على تخصيص الأموال اللازمة له. لذلك، فإن مرحلة التخطيط قد تستغرق بعض الوقت قبل الشروع في عملية البناء. وفي هذا الشأن يقول رئيس شركة فيلا، كبير إدارييها التنفيذيين، المهندس محمد القصير: «لكي نخطط لبناء ناقلة عملاقة واحدة، علينا أن نفكر أولاً في المستقبل ليتماشى البناء مع الشروط الدولية المتفق عليها. فبناء ناقلة (VLCC) باهظ جداً، ولكن على المدى البعيد سترى أن الأمر يستحق ذلك. نحن نخطط لأن تعمل ناقلاتنا لخمسة وعشرين عاماً، وليس أقل من ذلك. ولهذا السبب، نُصرُّ على إنشائها وفق أعلى المعايير الدولية التي تراعي شروط السلامة والمحافظة على البيئة بالدرجة الأساس». وبعد انتهاء مرحلة التخطيط، وتحديد كل المواصفات، يطرح عطاء تنفيذ المشروع. وهنا، تتسلم «فيلا» التي لها معايير صارمة جداً تحقق التوازن بين التكلفة والجودة، العروض من أفضل مصانع الناقلات في العالم، وتحديداً من شركات في آسيا وأوروبا. وغالباً ما تجد هذه الشركات صعوبة كبيرة في مجاراة تلك الشروط والمتطلبات الاستثنائية. لذلك، فإن الانتقاء بين الأفضل من بينها، هو الفيصل وليس بين مَن يقدم العرض الأقل تكلفة.

إن عملية التنافس لا تمنح الأفضلية إلى شركة مصّنعة بعينها، بل هي تقوم على أساس التنافس العادل والشريف. وقد أرست فيلا مشروع بناء ناقلاتها الحديثة على شركات بناء الناقلات في كوريا الجنوبية خصوصاً شركتي «هيونداي» و«دايوو» اللتين شيدتا ناقلات الزيت الخام (VLCC) الأربع عشرة التي تملكها «أرامكو السعودية» اليوم.

صور الموضوع: أرامكو السعودية

فشركة «هيونداي للصناعات الثقيلة» التي تتخذ من ميناء مدينة أولسان على الساحل الجنوبي الشرقي لكوريا الجنوبية، بنت أول أربع ناقلات، فيما شيّدت الناقلات العشر الأخرى شركة «دايوو لبناء السفن والهندسة البحرية» (DSME) في جزيرة جيوجي، في جنوب شرقي كوريا الجنوبية كذلك.

حالما تصل الناقلة إلى عمق 120 متراً، تخضع لكل الظروف الاعتيادية والاستثنائية المحتملة التي قد تواجهها أثناء رحلاتها

واستطاعت الأخيرة بفضل خبراتها «الفذة» وتنافسيتها العالية في السوق الكورية، تنفيذ العقود المتعلقة ببناء 15 من سُفن «فيلا» بينها الناقلات العشر من نوع (VLCC).

ويقر نائب رئيس الشركة وون كانج كي بأن إرضاء «فيلا» لم يكن سهلاً على الإطلاق، بل كان أشبه بمعركة، ربما لاختلاف هذا النوع من الناقلات وفرادة مواصفاتها بدءاً من الدهان وانتهاءً بأساليب اللحام. ويقول: «كانت فيلا تطلب منا تقديم أقصى درجات الكمال، ونحن بذلنا كل ما في وسعنا لتحقيق هذا الشرط».

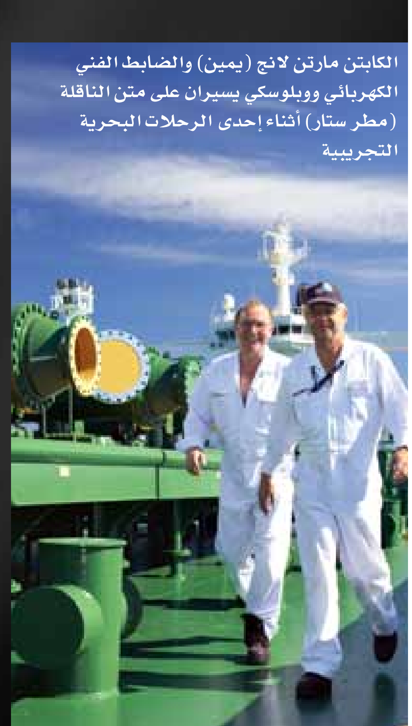
مراحل البناء

حالما يقع الاختيار على الشركة، تبدأ عملية بناء ناقلة (VLCC)، وهنا يبرز دور قسم بناء ناقلات الزيت (TCD) التابع لـ «فيلا» ويسانده فريق تفتيش ميداني في كوريا الجنوبية. فنجاح أي مشروع بناء من هذا النوع، يتوقف على المهنية والخبرة العاليتين لأعضاء فريق التفتيش الذي يضم خبرات متنوعة من السعودية وكندا واليابان والسويد وبريطانيا والهند وكوريا.

وتبلغ مساحة موقع بناء الناقلة التابع لشركة (DSME) نحو أربعة كيلومترات مربعة، ويضم معملاً لتصنيع السفن ومختلف المنتجات التي تستخدم في البحر، ويعمل فيه أكثر من 30 ألف عامل ماهر. وبإمكان هذا المعمل الضخم أن يشيد 60 سفينة و10 منصات بحرية في العام الواحد. ويقول مدير الموقع في فريق التفتيش التابع لـ «فيلا» في كوريا الجنوبية، خالد الحمَّاد: «بغض النظر عن حجم وتعقيد الناقلة، فإن مرحلة البناء تبدأ بجلب صفائح مسطحة وضخمة من الفولاذ بواسطة السفن من معمل الفولاذ، ثم تنظف وتعالج، ثم يقوم العمال بقياسها وطرقها وقطعها وتشكيلها ولحمها بعضها ببعض على هيئة مقاطع ضخمة. وبعد ذلك، يتم تجميع تلك المقاطع بعضها مع بعض لتصبح ناقلة في نهاية الأمر». ويضيف: «قد يبدو الوصف بسيطاً، ولكن لك أن تتخيل أن يتم تقسيم ناقلة (VLCC) إلى 88 جزءاً لكي يسهل نقلها إلى داخل موقع البناء حيث تُلحم بعضها ببعض فيتم ربط أسلاك ضخمة وأنابيب وغيرها من المفاصل، ثم دهنها. قد تستغرق هذه العملية 215 يوماً، وقد تتطلب 510 آلاف ساعة عمل».

الرحلة الأولى إلى البحر

عند استكمال بناء الناقلة، تخضع للاختبار البحري قبل تسليمها إلى «فيلا». وعلى رغم قيام شركة (DSME) بجميع أعمال بناء الناقلة (VLCC)، إلا أن فريق التفتيش الميداني لشركة «فيلا» في كوريا يُعد جزءاً لا يتجزأ من عملية البناء برمتها، لأنه يشرف على قطع كل قطعة من الفولاذ ويراقب كل أعمال البناء ليتأكد من امتثال (DSME) لمواصفات



الكابتن مارتن لانج (يمين) والضابط الفني الكهربائي ووبلوسكي يسيران على متن الناقلة (مطر ستار) أثناء إحدى الرحلات البحرية التجريبية



رافعات عائمة تثبت مقطعاً من مقاطع ناقلة تابعة لشركة فيلا، ليتم بعد ذلك نقل ذلك المقطع ولحمه مع هيكل الناقلة الرئيسي



أحدث ناقلات فيلا، مطر ستار، ثابتة في مكانها المخصص في رصيف البناء رقم 1 داخل معمل بناء السفن والهندسة البحرية التابع لشركة دايو الكورية الجنوبية

«فيـلا». ويقول الحمَّاد: «عملية التفتيش تطال كل تفاصيل بناء الناقلة بدءاً بإعداد سطحها ودهان صفائح الهيكل إلى أصغر القطـع الكهربائية». كما يقوم فريق التفتيش بإجراء زيارات منتظمة لمكاتب المقاولين الفرعيين الذين تتعاقد شركة (DSME) معهـم لأداء أجزاء معينة من البناء، وكل مقاول فرعي يجب أن يحظى بموافقة «فيلا» أولاً.

ويعد الاختبـار البحـري للناقلة العقبـة الأهـم التي يجب تجاوزهـا لكي يوافق المالـك الجديد (أرامكـو السعودية) علـى عملية الشـراء. وهذا يعني أن شركـة (DSME) تظل مالكة رسمية للناقلة طوال مرحلة البناء إلى أن يتم التوقيع على نجاح الناقلة في اجتياز الاختبار البحري. ويتم إطلاق الناقلـة في أول رحلة تجريبية لها، وتسمـى «الرحلة البِكْر» إلى البحر، ويحضر هذا الحدث المهم كل الأقسام المعنية مـن «فيلا» و(DSME). وعادةً ما تـدوم رحلة الاختبار تلك من 5 إلى 8 أيام تخضع خلالها جميع أجزاء الناقلة للمراقبة ويكـون فريق البنـاء على استعـداد لحل جميـع المشكلات التـي قد تنشـأ. والهدف من رحلة الاختبـار هذه هو تشغيل جميـع الأجزاء الرئيسة للناقلة كما لو أنها في رحلة تجارية حقيقيـة. حالما تصـل الناقلة إلى عمـق 120 متراً، تخضع لـكل الظـروف الاعتياديـة والاستثنائية المحتملـة التي قد تواجهها أثناء رحلاتها.

ومن بيـن هـذه الاختبـارات: تغيير الاتجـاه، والقـدرة على المناورة، ومدى قدرة المولدات على العودة إلى حالة التشغيل بعد حصول انقطاع مفاجئ، واختبار المرساة لقياس الزمن الـذي تستغرقه مرساتا الناقلة (تزنـان 17.25 طناً تقريباً) في الوصول إلى العمـل المحدد ومن ثم سحبهما إلى الأعلى مـرة ثانية. كمـا تقيس الاختبـارات الأخرى قـدرة المراجل والمولـدات العديـدة التي في الناقلة علـى العمل في مختلف الظروف، وقياس السرعة القصوى التي يمكن للناقلة قطعها. وخـلال كل ذلـك، يخضـع كل سلـك وكل جهاز فـي الناقلة للفحص، وفي حال ثبت عدم مطابقتـه للمواصفات المتفق عليهـا، فقد يكون ذلـك سبباً كافيـاً لإجراء رحلـة تجريبية ثانيـة. ولضمان مبدأ موضوعية تلـك الاختبارات، وعقب كل اختبـار، يوقع المفتشون المشرفون على صحة كل نتيجة بعد سلسلـة طويلة من المناقشات. وأثنـاء عملية الاختبار، تكون الشركـة التي تتولى بنـاء الناقلة -وهنـا شركة (DSME)- وهـي المالكة والقائـدة الرسمية للناقـلة، بينما تكون «فيلا» مراقبـة فقط لأنها لـم توافق بعد على قبـول عملية الشراء. ويقـول خالد الحمَّاد: «يجب أن يقنعنا الاختبار البحري بأن الناقلة المشيَّدة تستحق الشراء».

ويقول توم ليـدل، كبير مفتشي الآليات: «عندما تقرر شراء سيـارة، فإنـك تفحص إطاراتهـا وأسلاكهـا الكهربائيـة



مشهد لمقطع حلقي الشكل بانتظار تركيبه مع باقي جسم الناقلة في رصيف الميناء

وتتأكد من أن محركها يعمل على نحو جيد. ولكن عندما تكون هناك ناقلة، يصبح الأمر أصعب ألف مرة، لأنها أكثر تعقيداً وباهظة التكاليف على نحو لا يمكنك تصوره!».

قوة العامل البشري

يزداد تعقيد الناقلات وترتفع شروط السلامة فيها سنوياً ويرتفع اعتماد تشغيلها على الكمبيوترات المعقدة، ولكن مهما تعقدت مواصفات الناقلة، يظل العامل البشري هو الأساس في تسييرها. ويقول الضابط الثاني عبدالعزيز الشراهيلي الذي التحق بـ «فيلا» قبل 13 عاماً: «الحياة على ظهر الناقلة فريدة للغاية، ووليس من السهل التعامل معها. الأمر يتطلب شخصاً ذا مواصفات خاصة».

اعتاد الكادر البحري لـ «فيلا» الوصول إلى مصنع السفن قبل شهر واحد من بدء الاختبار البحري للناقلة وقبل نحو شهرين من أول رحلة تجارية للناقلة. إنها لفرصة للكابتن وطاقمه ليتعرفوا إلى ناقلتهم الجديدة وفي الوقت نفسه، يساعدون فريق التفتيش الميداني في وضع تقييماته النهائية.

«مطر ستار»

لم يكن الدور الذي لعبه طاقم ناقلة «مطر ستار» في مصنع السفن سهلاً أبداً (مطر ستار هي ثالث ناقلة من أصل أربع ناقلات من نوع VLCC والتي بدأت أول رحلة تجارية لها في 26 أكتوبر عام 2010م بعد حفل تسميتها في حوض بناء الناقلة في جنوب كوريا). وهنا يقول الكابتن مارتن لانج، قائد الناقلة (من نوع VLCC) التي تملكها «أرامكو السعودية»: «إنها مسؤولية كبيرة أن تكون ضمن الكادر البحري الأول لناقلة جديدة. عليك أن تتأكد من أنها تعمل بكل طاقتها من أجل ضمان سلامة كل فرد على متنها. إنك مسؤول عن المحافظة على أرواح كل هؤلاء!».

التنوع الثقافي

والشيء اللافت في جميع ناقلات وسفن «فيلا» هو التنوع الثقافي للكوادر البحرية التي تقود تلك الناقلات والسفن والذي أفاد الشركة بشكل كبير وعزز قدراتها، فكل فرد في الكادر البحري له خبرة عميقة في مجال اختصاصه كان قد اكتسبها من عمله في بلده أو في مكان آخر في العالم. فمنهم مَن هم مِن بريطانيا وكرواتيا ومن بولندا ومن الفلبين والسعودية وغيرها من الدول. ويتفق الجميع على أن التنوع الثقافي للطاقم البحري كان عنصراً إيجابياً. يقول المهندس الثالث ماجد مسفر العجمي

وهو من السعودية: «إن العمل مع أناس من مختلف أرجاء العالم يُعد تجربة رائعة»، «كل واحد منهم بارع في اختصاصه. والأهم من ذلك هو أن هذا الاختلاف يساعدنا في التعرف بشكل أكبر إلى ثقافات مختلفة». إضافة إلى ذلك، تسعى فيلا دائماً إلى تطوير كوادرها البشرية السعودية من خلال إقامة الدورات التدريبية المكثفة والشاملة بانتظام في بريطانيا ومصر مثلاً لكي تقدم لكادرها التدريب الفني الذي يحتاجونه للتقدم في درجاتهم الوظيفية.

> «الحياة على ظهر الناقلة فريدة للغاية، ولا يمكن لأي أحد التعامل معها. الأمر يتطلب شخصاً ذا مواصفات خاصة».

وعلى الرغم من أن ناقلات «فيلا» مجهزة بكل وسائل الراحة والترفيه، إلا أن بعضهم يرى أن مهنة البحار ليست بالمهنة السهلة، وتحتاج إلى شخص يتكيف معها ويقدرها بحسب قول كبير مهندسي «فيلا»، شيلداكا. كما أضاف الضابط الثالث عبدالله الجنيدي: «على البحار أن يكون اجتماعياً، ففي كل رحلة نلتقي بطاقم جديد. يجب أن يتحلى البحار بفكر متفتح وأن يكون دبلوماسياً في تعامله مع شتى الجنسيات والانسجام مع الجميع».

ولكن على الرغم من جميع الصعاب والتحديات التي قد تواجهها الطواقم البحرية، إلا أنهم يشعرون بالفخر تجاه الدور الذي يلعبونه في نقل الزيت الخام السعودي إلى العالم.

الناقلة همام ستار الجديدة والعملاقة التابعة لشركة فيلا، والتي لا تزال تحت الإنشاء في الرصيف رقم 1



ماذا تعرف عن ناقلات الزيت الخام الكبيرة جداً VLCCs؟



صورة توضِّح فكرة إنشاء الناقلات ذات الهيكل المزدوج، حيث تشاهد الطبقتين، الطبقة الأساسية وطبقة الحماية

تتكون هذه الناقلات من هيكل مزدوج، أي إنها مشيدة من طبقتين اثنتين، الطبقة الخارجية والطبقة الداخلية. يُعد ازدواج الهيكل مطلباً أساسياً في بناء هذا النوع من الناقلات، خصوصاً تلك التي تنقل النفط، لما له من فوائد عدة وأهمها المحافظة على البيئة والسلعة الثمينة التي تنقلها تلك الناقلات. في الناقلات المزدوجة الهيكل، يتم بناء الطبقتين معاً مع ترك مساحة خالية بينهما، لذلك، فإن تعرضت الناقلة إلى حادث ما، كارتطامها بالصخور أو بقاع البحر أو غيرها، فقد يتضرر الهيكل الخارجي ولكنها لا تزال محمية من الداخل أي إن الهيكل الداخلي يكون مسانداً للهيكل الخارجي ويمنع الزيت من التسرب إلى خارج الناقلة. وبسبب وجود التجويف ما بين الطبقتين الداخلية والخارجية –على جانبي الناقلة وفي قعرها– يتم تخزين الماء أو حتى الوقود. ولكن لو كانت الناقلة مبنية بهيكل واحد فقط، وتعرضت لحادث ما أو تآكل في هيكلها، فسيعني ذلك كارثة بيئية كبرى. ولهذا السبب أحيلت جميع الناقلات ذوات الهيكل الواحد إلى التقاعد حفاظاً على البيئة.
وتوصي المعاهدة الدولية للحماية من التلوث الناجم عن السفن (MARPOL) باستخدام الناقلات ذات الهيكل المزدوج. وصدرت هذه التوصية بعد اكتشاف جدوى فكرة الهيكل المزدوج في بناء البواخر السياحية وفقاً لمعاهدة SOLAS للمحافظة على السلامة في عرض البحر.
برزت الحاجة الماسة إلى بناء الناقلات النفطية ذات الهيكل المزدوج عقب حادث ناقلة «إيكسون فالديز» الذي وقع في عام 1989م. والذي نتج عنه دمار لم يكن بالإمكان حصره ضد البيئة البريئة عندما تسرب الزيت الخام في مياه شمال أمريكا، وتحديداً في مضيق الأمير «وليام».
وتحتاج الناقلات ذات الهيكل المزدوج إلى صيانة دائمة، وغالباً ما تكون عمليات الصيانة هذه صعبة ومكلفة للغاية ولكنها ضرورية للحفاظ على أرواح طاقم الناقلة وسلامتها.

ويقول الضابط الثاني عبدالعزيز الشراحيلي: «إن العمل في البحر لا يتوقف مطلقاً. نحن نعمل 24 ساعة، طوال الأسبوع. وإن تقاعست عن الالتزام بذلك، فهذا يعني أنك لا تهتم بعمل شركتك. لقد استثمرت شركتنا أموالاً ضخمة فينا وفي الناقلة، لهذا عليك أن تكون جديراً بذلك الاستثمار وأن تؤدي واجبك بحب واقتدار».

الجرأة والخطر

ربما يُعد قرار بناء واحدة من هذا النوع من الناقلات من أجرأ وأخطر القرارات التي تتخذها «فيلا / أرامكو السعودية»، إذ تبلغ تكلفة تصميم وبناء ناقلة واحدة أكثر من 100 مليون دولار. كما يتجاوز طول الواحدة منها أكثر من 300 متر، أي ما يعادل طول ثلاثة ملاعب كرة قدم مجتمعة، ويصل وزنها إلى 45 ألف طن وهي فارغة. تستطيع هذه الناقلات (VLCC) نقل الزيت الخام السعودي الثمين إلى مختلف بقاع الأرض دون توقف، لذلك لك أن تتخيل أن اتخاذ قرار بشأن بناء أسطول كامل من هذه الناقلات لا يمكن أن يكون سهلاً على الإطلاق. إنه قرار استراتيجي لمستقبل الشركة واستقرارها المالي والاقتصادي وسط سوق مفعم بالتنافسية العالية والخبرات الفذة.

دفّة ومروحة ضخمة تسيّر الناقلة مطر ستار، وقد دُهنت بصبغ سيليكوني يحمي الأجزاء الضخمة من نمو الكائنات البحرية عليها

إن طبيعة العمل تتطلب من المشرفين أن يكونوا كثيري التدقيق ومتطلبين إلى أقصى حد وقد يؤدي ذلك إلى حصول بعض المشكلات مع كادر شركة (DSME) الذي غالباً ما يكون لديه جدول زمني صارم لتنفيذ مهامه. وتولي «فيلا» لعامل تحقيق الجودة العالية أولوية قصوى، ولأجل ذلك استطاعت الشركتان بمرور السنين، احترام رغبات بعضهما بعضاً وتجاوز جميع اختلاف وجهات النظر من خلال التعاون الوثيق وتجنب الصدامات لأن هدفهما هو: تحقيق الجودة العالية.

وأخيراً، أثمر الإخلاص بالعمل والمهنية العالية من كلا الطرفين، فيلا وشركات بناء السفن، عن إنتاج عدد من ناقلات (VLCC) تفخر «أرامكو السعودية» اليوم بامتلاكها. ويقول المهندس محمد القصير، الرئيس التنفيذي لـ«فيلا»، إن شركته «حريصة على نقل البترول الذي تنتجه المملكة العربية السعودية إلى كافة أرجاء العالم بواسطة ناقلات تتجاوز مواصفاتها كل معايير الجودة والسلامة الدولية منها والوطنية. إن ناقلاتنا تراعي كل الشروط البيئية». وعندما تلتحق ناقلة (VLCC) بأسطول ناقلات فيلا، فإنها ستؤدي دوراً بارزاً في مساعدة «أرامكو السعودية» على الوفاء بالتزاماتها كشركة، وبمد العالم بالطاقة.

يشار إلى أن أرامكو السعودية والشركة الوطنية السعودية للنقل البحري (البحري) قد وقّعتا في 27 يونيو 2012م مذكرة تفاهم غير ملزمة لدمج أسطولي وأعمال البحري وشركة فيلا البحرية العالمية المحدودة (فيلا)، المملوكة لأرامكو السعودية، وذلك في إطار صفقة ستؤدي إلى إيجاد شركة نقل بحري وطنية رائدة. وستصبح البحري رابع شركة في العالم من حيث ملكية ناقلات النفط العملاقة وسيضم أسطولها 77 سفينة مما يعزّز فرص الشركة لمواصلة دورها في التنمية الاقتصادية وتطوير رأس المال البشري في المملكة وخدمة عملائها بكفاءة وموثوقية.

فنيون يجرون اختباراً أولياً داخل غرفة السيطرة على المكائن في الناقلة مطر ستار خلال إحدى الرحلات التجريبية في عرض البحر



حقائق عن شركة فيلا

- يضم طاقم ناقلة (VLCC) التابع لشركة فيلا 24 بحاراً: الكابتن وثلاثة ضباط وكبير المهندسين وثلاثة مهندسين وضابط متخصص في الأمور الفنية الكهربائية، و15 فرداً يعملون على مدار الساعة.
- قد يصل طول ناقلة (VLCC) إلى 333 متراً وعرضها إلى 60 متراً، ووزنها إلى 45,000 طن دون الحمولة. ويمكنها أن تحمل 2.25 مليون برميل، وأن تصل سرعتها القصوى إلى 16.45 عقدة مع الحمولة.
- يتكون أسطول فيلا اليوم من 20 ناقلة. استطاعت الشركة وبنجاح تشغيل 48 ناقلة خلال سنواتها الـ 27.
- تشتق فيلا أسماء ناقلاتها وسفنها من الأسماء العربية واللاتينية للنجوم.
- في عام 2010م، أنهى أسطول ناقلات فيلا 447 رحلة بحرية نقل خلالها أكثر من مليون برميل من النفط الخام في اليوم الواحد إلى زبائن في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا بشكل رئيس.



موظفون في منازلهم مَنْ المستفيد؟

الموظف أم صاحب العمل؟

العمل من المنزل أو ما يسميه البعض العمل عن بُعد، هل هو جمع بين راتب يتقاضاه الموظف عن عمل مريح يجمع بين حياة العمل والحياة الخاصة؟ أم إنه ذكاء من بعض أرباب العمل في التخلص من أعباء وتكاليف إيجاد مكاتب وبيئة عمل مناسبة لهذا الموظف؟ ما هو حجم إنتاجية الموظف وما مقدار التزامه بالأداء المفترض عليه حينما يعمل من منزله مقارنة بالعمل داخل المكتب؟ وهل هناك سلبيات على العمل يحاول أرباب العمل التخلص منها، أو هل هناك انتهاكات لحقوق الموظف تعمل النقابات العمالية للحيلولة دونها؟ أسامة أمين يناقش في هذه المقالة العمل عن بُعد ويجيب عن هذه الأسئلة.

يتخيل البعض أن العمل من البيت، أو ما يعرف باسم (العمل عن بُعد)، يجعل الموظف قادراً على الاستمتاع بيومه، ينهض من النوم وقتما شاء، ويفطر على راحته، ثم يعمل متى شاء، ويقسِّم يومه بين العمل والحياة الخاصة، بحيث يستطيع العدل بينهما، ويجمع بين الحسنيين، نفس الراتب، مقابل عمل مريح، فلا إزعاج من زميله الذي يتحدث في الهاتف بصوت عال، ولا مدير يتدخل في كل جزئية من العمل، وفوق كل ذلك يرى أولاده، ويقضي وقتاً أطول معهم، فيشعرون بوجوده، ويشاركهم حياتهم.

نتائج غير متوقعة

هذا النوع من العمل لم يبدأ حديثاً، بل قامت شركات كبرى مثل (آي بي إم)، بتطبيق هذا النموذج في ألمانيا منذ أكثر من سنوات عشر، وارتفعت نسبة الموظفين العاملين بهذه الطريقة إلى الثلثين، وتبين أن الشركة لم تستطع أن توفر بذلك الكثير من التكاليف الناجمة عن خفض عدد المكاتب المخصصة للموظفين فحسب، بل ارتفعت إنتاجية الموظف، وتحسنت نوعية العمل بصورة ملحوظة.

ظهر جلياً أن الموظف الذي يعمل من بيته، غالباً ما يشعر بأن عليه أن يحقق نتائج ممتازة، لإثبات أن حصوله على ثقة صاحب العمل في مكانها، وأنه يستفيد من الحرية الممنوحة له لصالح العمل، وأن عنده دوماً ما يمكن تسميته بالشعور بالذنب، فلا يسمح لنفسه بالحصول على الاستراحة، التي تضمنها له القوانين، ولا يتوقف من العمل حتى في عطلة نهاية الأسبوع، ويواصل العمل لساعات متأخرة في الليل، وحتى في وقت المرض، لا يرضى أن يتمتع بحقه في الإجازة المرضية، بل يتحامل على نفسه، ليجلس على مكتبه، ويواصل العمل.

كل هذه الظواهر جعلت النقابات العمالية، تتساءل عن كيفية الحيلولة دون انتهاك حقوق الموظف، الذي يتحول إلى مدير صارم في التعامل مع نفسه، ويجعل نفسه مسؤولاً عن تحقيق نتائج أفضل للشركة، حتى ولو كان ذلك على حساب حياته الخاصة، لذلك طالبت النقابات أصحاب العمل، بأن يجري إعادة تأهيل للمديرين، الذين تغيرت مهامهم في ضوء هذا التحول في آلية العمل، بحيث أصبح مطلوباً من المدير الآن أن ينصت إلى صوت الموظف في المكالمة، لكي يطمئن على حالته النفسية والبدنية، وينتبه إلى مواعيد كتابة الرسائل الإلكترونية، وينبه الموظف إلى عدم جواز العمل في منتصف الليل، وإلى أن العمل في الفترة بين الثامنة مساءً والسادسة صباحاً ممنوع، حفاظاً على صحته وعلى حياته الخاصة.

الطريف أن كل التوقعات كانت تشير إلى أن هذا النوع من العمل من البيت سيقتصر على الموظفات العاملات، بحيث يستطعن الاستمرار في رعاية أطفالهن، إلى جانب ممارسة العمل المكتبي من المنزل، ولكن الإحصاءات الحديثة تشير إلى أن نسبة الرجال المستفيدين من هذا النوع من العمل، يفوق بكثير نسبة النساء المستفيدات منه.

تبادل الأدوار

في أماكن العمل التقليدية، هناك مدير يسير بين المكاتب، ليتفقد سير العمل وأوضاعه، ويتابع أداء موظفيه، يمدح من يبقى منهم في مكتبه حتى ساعة متأخرة، ويستاء ممن يغادر العمل فور انتهاء وقت الدوام، ويدعو لاجتماعات دورية، يصدر فيها التعليمات، ويعطي الأوامر، ويعيد إلى الأذهان أن بيده سلطة تقييم



الموظف، فهو من يملك التوصية برفع الراتب، والحصول على علاوة، أو مكافأة خارج الدوام، أو إرسال الموظف في مهمة رسمية، أو يحصل على مبالغ إضافية، كما بيده أن يحرم الموظف من كل ذلك، وأن يقوم بتحويله إلى مكان آخر من العمل، لا يروق له، بل وربما يفصل الموظف، الذي لا يرضى عن أدائه.

لو تخيلنا هذا المدير في مؤسسة، غالبية موظفيها يعملون عن بُعد، فإنه سيشعر لا محالة، أنه «راعٍ بدون رعية»، أوامره وتوجيهاته لا ينتظرها أحد، لأن الجميع يعمل من تلقاء نفسه، المسؤولية التي يشتكي من ثقلها، لا وجود لها، لأن الموظفين تقاسموها بينهم، والعمل يسير بدون تدخله، ربما بصورة أفضل من ذي قبل، لابد أنه شعور مرير، إلا إذا أعاد التفكير في الدور الذي عليه القيام به، في ظل النظام الجديد للعمل.

أما الموظف الذي كان يعشق الحديث مع زملائه في العمل، عن آخر مباراة كرة قدم، وينتهز فترة الاستراحة لتناول الشاي أو القهوة معهم، ويتقاسمون علب السجائر، لأن التدخين لا يحلو إلا في جماعة، مع تكرار الأحاديث المعتادة مثل الشكوى من رئيس العمل، ومن الظلم الذي يقع عليهم من وقت لآخر، وانتقاد الزملاء الذين حصلوا على زيادة راتب قبلهم. هذا الموظف سيشعر أيضاً بالتغيير، لأنه سيجد نفسه فجأة وحيداً في مكتبه، الموجود في البيت، لا زملاء يتحدث معهم، ولا مبرر لتأخره في إنجاز العمل.

كل هذه التحولات اقتضت وضع آليات جديدة للعمل، بعض المؤسسات تفرض على الموظف مثلاً الحضور يوماً في الأسبوع إلى المكتب، بحيث يستطيع التواصل مع زملائه ورؤسائه في العمل، يتبادل معهم الرأي وجهاً لوجه، ولا يفتقد البعد الإنساني والاجتماعي.

وإذا كانت علاقة العمل قد تحولت من التزام الموظف بقضاء عدد معين من الساعات في المكتب، إلى علاقة مرتبطة بإنجاز مهام محددة في خلال فترة زمنية يجري الاتفاق عليها في كل مرة، فإن نقابات الموظفين لاحظت أن المهام المطلوبة من الموظف العامل عن بُعد، تفوق بكثير المطلوب من الموظف العامل في المكتب، ولذلك نشأت لجان مختصة داخل هذه النقابات، للفصل في حالة النزاع على حجم المهام المطلوبة.

المهم في العلاقة الجديدة أن تكون المهام المطلوبة من الموظف واضحة، والتوقعات دقيقة الصياغة، حتى لا يحدث سوء تفاهم، لأنه لا مجال للمتابعة المستمرة من جانب رئيس العمل، ويضاف إليها أن تكون قابلة للتنفيذ خلال عدد ساعات العمل، والتي تبلغ في كثير من الدول الأوروبية حوالي 40 ساعة أسبوعياً، بمعدل 8 ساعات يومياً، مع مراعاة وجود يومي عطلة أسبوعية.

وعلى الجانب الآخر فإن الموظف مطالب بأن يتعلم كيفية إدارة الوقت بطريقة صحيحة، بحيث لا يخلط بين العمل والبيت، ولا يجعل من الحرية التي يتمتع بها قيداً يمنعه من الاستراحة، وعدم الإصرار على الانتهاء من المهام المطلوبة منه في أقصر فترة ممكنة، بل يعطي أسرته الوقت الذي تستحقه، ومن البديهي أيضاً أنه لا يجوز له أن يهمل عمله ويتكاسل عن أدائه، باعتبار أنه لا رقيب عليه من إدارة المؤسسة التي يعمل فيها.

الزوجة بديلاً للزملاء

ربما يسعد الزوجة أن ترى زوجها يشاركها في

عملها، فيحكي لها عن المهام التي يقوم بها، ويشرح لها العقبات التي تواجهه في تنفيذها، والكثير من التفاصيل التي كان يناقشها من قبل مع زملائه في العمل، لكن الزوجة قد تعاني من هذه المهمة الجديدة، لأنه أصبح المطلوب منها أن تستمع إلى قضايا ربما لا تهمها على الإطلاق، ولا تستطيع أن تشارك فيها بالرأي، ولعلها تشتاق إلى الزمن الذي كانت حكايات زوجها عن العمل، لا تزيد عن القضايا العامة، مثل زيادة الراتب، أو تغيير الوظيفة، أو تعيين مدير جديد.

ربما يسعد الزوجة أن ترى زوجها يشاركها في عملها، فيحكي لها عن المهام التي يقوم بها، ويشرح لها العقبات التي تواجهه في تنفيذها

يروي أحد الموظفين المتخصصين في البرمجة، يعمل عن بُعد، أنه قام بإنجاز برنامج جديد، وأرسله لزملائه، لإبداء الرأي فيه، فوصلته كثير من الانتقادات، مما أصابه بخيبة أمل، وانتابته نوبة غضب شديدة، فأرادت زوجته أن تخفف عنه، فاقترحت عليه أن يخرج معها ليمشيان على النهر، ويحكي لها بهدوء عما حدث، لعله يهدأ، فاستجاب لها، وخرج معها، وأخذ يقص عليها ما حدث، لكن صوته أخذ يرتفع، وصراخه يعلو، حتى كان كل من في الطريق، ينظر إليهما باستنكار، اعتقاداً أنهما يتشاجران في الطريق العام، ثم أقسم الزوج أن يرسل لجميع زملائه رسالة على البريد الإلكتروني، يتهمهم جميعاً بالغباء، لأنهم لم يفهموا ما يتضمنه البرنامج من أفكار إبداعية، فحاولت زوجته أن تثنيه عن ذلك، فرفع إصبع الإبهام في وجهها، محذراً إياها أن تدافع عنهم، وزادت نظرات الناس إشفاقاً على الزوجة، ولما فاض بها، طلبت منه أن يعودا إلى البيت لأنها لا تستطيع أن تتحمل أكثر من ذلك، خاصة وأنها (لا ناقة لها في الأمر ولا جمل)، فإذا بالزوج يترك مشكلته مع زملائه في العمل، ليسألها بغضب، ما إذا كانت تقصد أنه جمل، وأنها ناقة، فتركته وسارت أمامه مسرعة إلى البيت، والدموع في عينيها، وهي تتمنى أن يعود للعمل في المكتب من جديد، بدلاً من العمل من البيت.

عاد الرجل إلى المنزل بعدها، وذهب إلى مكتبه المنزلي، وقد هدأت أعصابه، وذهب كل ما به من غضب، وكتب لزملائه، رسالة يشكرهم على ما أبدوه من ملاحظات، وشدد على أنه سيراعي هذه النقاط في تعديلاته على البرنامج، فجاءته في اليوم التالي رسالة من رئيسه، يشيد بذوقه، وبقدرته على عدم الغضب من نقد زملائه لعمله، رغم كل الجهد الذي بذله في البرنامج، فأخذ الموظف الرسالة لزوجته، وقال لها إن الفضل يعود لها في امتصاص غضبه، وأنه مدين لها بالكثير.

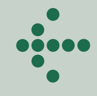
من هذا يتضح أن التغير في آلية العمل، لا تتطلب تغييراً في أداء المديرين والموظفين فحسب، بل يتسع ليشمل الزوجات والأبناء، الذين سيكون عليهم أن يدركوا أن وجود الأب في البيت لا يعني أن الحديث معه ممكن، أو أنه قادر على ترك ما في يده، وتناول طعام الغداء معهم، بل هو موجود كموظف في محل عمله، وليس كأب يقضي الوقت مع أسرته.

أما إذا كنا لا نستطيع التكيف مع كل هذه المتغيرات، فالأفضل أن يبقى الوضع على ما هو عليه، أب يأتي في نهاية اليوم من العمل، متعب ومنهك القوى، وأم تعود من العمل وقت الظهيرة، لديها ما يكفيها من المهام مع الأبناء والبيت، وأبناء يعودون من مدارسهم، لتأدية واجباتهم المدرسية، ثم تجتمع الأسرة في الليل على العشاء، والشوق يجمعهم للحديث سوياً، بعد ساعات طوال من الفراق.



كتاب القرار..

فكّر استراتيجياً بمساعدة خمسين نموذجاً إدارياً



يسعى الكاتبان البريطانيان مايكل كروغيرس ورومان تشجابلر في مؤلفهما «القرار» (The Disicion)، إلى مساعدة القرّاء وبخاصة المسؤولين الإداريين منهم، على اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب. ومساعدة الكاتبين ليست على طريقة تقديم النصائح بأن افعل هذا ولا تفعل ذاك، بل بطريقة مبتكرة تقوم على جمع كثير من النماذج (modules) الإدارية المشهور منها والمغمور على حد سواء، وتقديمها مصحوبة برسوم توضيحية بين دفتيّ الكتاب الذي لا يتجاوز عدد صفحاته الـ 150 من القطع الصغير. علي الضويلع يغوص في ثنايا الكتاب الصادر حديثاً عن دار بروفايل في لندن، مستعرضاً أبرز نماذجه التي تتفاوت بين المعقد والبسيط والبدائي والحداثي، ومسلطاً الضوء على هذه الأدوات العملية التي تساعد إنسان هذا العصر على اتخاذ القرارات.

يستهل الكتاب رحلته عبر هذه النماذج التي جمعها المؤلفان، مايكل كروغيرس ورومان تسشجابلر، بتوجيهات بسيطة حول طريقة قراءة الكتاب، ويذكران أنه يستهدف أولئك الذين يتعاملون مع آخرين بصفة يومية، لأن مثل هؤلاء ستواجههم مواقف تحتم عليهم إيجاد أجوبة لأسئلة مثل: كيف أتخذ القرار الصحيح؟ وكيف أحفّز نفسي أو الآخرين؟ وكيف أغيّر الأشياء؟ وكيف أحسن أدائي أكثر؟ بل أبعد من ذلك، إذ يطرح الكتاب أسئلة أكثر علاقة بالذات، مثل: ماذا يقول عني من هم حولي؟ وهل أعيش اللحظة؟ وماذا أريد؟

يقسَّم الكتاب إلى أربعة فصول. كل فصل يحتوي على مجموعة من النماذج التي تعالج جانباً مهماً في الذات وفي العلاقات، وهي على النحو التالي:

- الفصل الأول يجيب عن تساؤل: كيف تحسّن أداءك؟
- الفصل الثاني: كيف تفهم ذاتك؟
- الفصل الثالث: كيف تحدد علاقاتك بالآخرين؟
- والفصل الرابع: كيف تحسن من أدائهم؟

نماذج لتغذية العقل بالأفكار

هل سمعت بمبدأ باريتو؟ ومصفوفة آيزنهاور؟ ونموذج الشجرة العائلية؟ ونافذة جوهاري؟ نموذج البوصلة السياسية؟ كذلك هل تعرف نموذج الجبنة السويسرية ذات الثقوب؟ والتفكير خارج الصندوق؟ ونموذج الذيل الطويل؟ وهرم ماسلو؟ ونظرية البجعة السوداء؟ في الكتاب -الصغير الحجم نسبياً- أورد الكاتبان أفضل نماذج اتخاذ القرارات المعروفة جيداً وغير المعروفة التي ستساعد القارئ والباحث في الإجابة عن أسئلة تدور في فلك الأسئلة المذكورة أعلاه، وذلك بالكلمات والرسوم أيضاً. لا يعدك الكتاب -على رغم ذلك- بأجوبة مباشرة، بل يوفر نوعاً من «تغذية الفكر».

كيف تقرأ الكتاب؟

إن الكتاب مصمم بطريقة تتيح التعامل معه بأسلوب عملي، حيث ينصح بنسخ النماذج الواردة فيه وتوزيعها على مشاركين في جلسة عمل أو نقاش. هو كتاب يقترح عليك مؤلفاه أن تستخدمه أكثر من أن تقرأه. وفي ملاحظة لطيفة، يلمح الكتاب إلى وجود طريقتين لقراءته: الطريقة الأمريكية أو الطريقة الأوروبية. فالأمريكيون يميلون إلى أساليب التجارب «الخطأ وتصحيح الخطأ ثم إعادة التجربة» وصولاً إلى صياغة النظرية، في هذه الحالة، من الجيد أن تبدأ بقراءة الفصل الخاص بـ «كيف تحسن أداءك؟». على الجانب الآخر، فإن الأوروبيين يميلون إلى منهج آخر في معالجة المسائل، وهو أنهم يحشدون كل الطاقة في صياغة النظرية، بعدها يستهلون الفعل العملي، إذا لم يكتب لهم النجاح يقومون بالتحليل، ثم يعيدون صياغة النظرية ويعيدون التجربة من جديد. إذا كنت تميل إلى هذا الأسلوب فمن الأفضل البدء بالفصل الذي يقول: «كيف تفهم ذاتك؟»

مأزق النمذجة

يقول الكتاب إننا عندما نواجه معضلة،

من الرف الآخر.. اقرأ

فإننا نحاول البحث عن طرق لتمثيلها وسبر أغوارها والتعرف إلى أبعادها، نحاكيها على الورق مثلاً على هيئة مدخلات ومخرجات. النمذجة تساعدنا في تقليل تعقيدات الواقع أو الحالة، وهذا يساعدنا كذلك في التركيز على الأمور الأكثر أهمية. بالمقابل، فإن أعظم أوجه الانتقاد الموجهة للنمذجة هو أنها لا تعكس الواقع تماماً، وفي رأي الكتاب أن هذا صحيح، لكن من غير الصحيح أن يدفعنا ذلك إلى عدم التفكير والبحث عن الأفكار بمساعدة وسائل تسهل تصور الواقع.

طبيعة النماذج في الكتاب

بعد هذه السلسلة من التوجيهات، يُعرّف الكتاب النماذج الواردة في الكتاب على أنها نماذج: بسيطة، «وصولية» تركّز على الغاية وعلى اكتشاف الطريق الأكثر عملية، هي نماذج تنفيذية تلخّص بعض الأعمال المعقدة على أرض الواقع وتحاول حصر متغيراتها العديدة، نماذج بصرية مدعمة بالرسوم التوضيحية، وهي منتظمة، لا تعطيك الأجوبة بل تطرح الأسئلة التي تدفعك للتفاعل معها.

ومن اللافت، وجود هامش في كل نموذج أورد فيه الكاتبان مقولات إدارية وذاتية تصب في قناة الإلهام والحكمة، حيث تجد أقوالاً منسوبة لمعروفين ومجهولين، كتلك التي تقول لك «أن تأتي متأخراً أفضل من ألا تأتي أبداً»، وقد تكون المقولة على شكل سؤال موجَّه للقارئ مثل: «متى كانت آخر مرة قمت فيها بشيء لأول مرة في حياتك؟»، واقتباسات لشخصيات شهيرة مثل «الدون كورليوني» من فيلمه السينمائي العرّاب، حيث يقول: «إن الرجل الذي لا يمضي وقتاً مع العائلة ليس رجلاً!».

نماذج لافتة

قد يكون مناسباً في صلب استعراض هذا الكتاب، المرور باختصار على بعض النماذج اللافتة حتى تكتمل الصورة لدى القارئ المهتم، ففي نموذج «فخ القدرات الشخصية»، يطرح عليك سؤالاً مفاده: ما مدى استعدادك لتقبل توقعاتك الذاتية عن أدائك وتكتشف أنها أقل من توقع الآخرين؟ النقاش حول هذا السؤال يرصد مراحل يمر بها الإنسان الموهوب، ويلقي الضوء على التجنّي الذي قد يواجهه عندما يمدحه من حوله، وكذلك قد يقع فريسة وضحية لهذا المدح، لأن ما يقوله الآخرون ربما يحد من إمكاناته وقدراته وفرصه بلا وعي منه، حيث إن ما يقوله الآخرون يغدو كالإطار الذي يتبلور في ذهنه ويصعب عليه تجاوزه وقد لا يستطيع كسره!

ويعالج النقاش حول السؤال قضية أخرى، وهي علاقة الموهوب بالبشر من حوله، ممن يختلفون عنه، والبشر مختلفون بالتأكيد، بالذات اختلافه عن أولئك الذين يحاولون –جاهدين– تغطية نقاط ضعفهم بالكد الشديد والعمل الذي لا يتوقف، يعملون بتعب ولا يعملون بذكاء. على خلافه هو، الذي يحقق نتائجه بطريقة أقل تعباً وأكثر ذكاءً، يمكننا تصنيفه بأنه عقلي التدبير وغيره بدني التدبير.

وفي هذا النموذج رسم توضيحي رائع –والكتاب مليء بها كما ذكر آنفاً– يشرح مراحل التطور التي يمر بها الفرد الموهوب عادة، ويلقي الضوء على أماكن الإنجاز، وأماكن الإخفاق المتوقعة، وكذلك مراحل الانطلاق. في النهاية النموذج يتوّج أفكاره بفكرة ذهبية وهي: التزم بتقديم 80 بالمئة وقدم 120، دعهم يتوقعون الأقل وفاجئهم بأكثر من المتوقع.

وفي نموذج منسوب إلى الرئيس الأمريكي دوايت آيزنهاور ويسمى بـ «مصفوفة آيزنهاور»، نجد طريقة واضحة للتعامل مع المهام المتعددة، فهناك بداية تصنيف لها، وذلك على النحو التالي: مهمة عاجلة، غير عاجلة، مهمة ذات أهمية عالية ومهمة ذات أهمية منخفضة. هنا يقترح النموذج: أن تقوم بالمهمة العاجلة ذات الأهمية العالية فوراً وبنفسك، وتفوض القيام بالمهمة العاجلة وذات الأهمية المنخفضة إلى شخص آخر، بينما تحدد وقتاً لأداء المهمة غير العاجلة ذات الأهمية العالية، وأن تتجاهل تماماً تلك المهمة غير العاجلة وغير المهمة وتقوم بها في وقت لاحق!

وهناك نموذج مدهش آخر، هو نموذج «الشراع»، أو نموذج الأداء الشخصي، وأبرز تطبيق لمثل هذا النموذج هو في محاولة الإجابة عن سؤال يقول: هل أنت راضٍ عن وظيفتك؟، لأن العديد من الناس قد يتساءل، كيف أقيس مدى رضائي عنها؟ بل ومتى أقرر أنه حان الوقت للانتقال منها وتركها؟

قد يكون شرح طريقة تطبيق النموذج على هذا العجالة أمراً يصعب فهمه، لكن الشرح جدير بالذكر. فهذا النموذج ببساطة يوجهك إلى متابعة نفسك على مدى ثلاثة أسابيع، في أمسية –وبعد يوم العمل– تقوم بالإجابة عن ثلاثة أسئلة، وتسجيل درجة واحدة تمثل مدى مطابقتها لحالتك في تلك اللحظة. الأسئلة هي: إلى أي مدى أنا مطلوب لأداء مهم في الوظيفة؟ إلى أي مدى تناسبني المهام الموكلة إلي، وذلك قياساً على قدراتي؟ إلى أي مدى يرتبط ما أقوم به من مهام، مع الشيء الذي أريد في الحقيقة؟

بعدها ترسم ثلاثة أبعاد متعامدة بعضها على بعض، ويكون كل بعد محوراً تسجل عليه كل نقطة تسجلها عن كل يوم ينطبق عليها الوضع الذي تريده، ستجد أنه سيتشكل «شراعاً» يشير إلى أنك في حركة مستمرة، على أساس اتساع الشراع أو صغر حجمه، فالأجوبة الموافقة تعني وجود قوة دافعة تجعلك تستمر فيما تقوم بعمله، وحيث إن الصعود والهبوط هو من طبيعة العمل، مثل ركوب الأمواج وأنت على قارب وبه شراع تدفعه الريح إلى الأمام، ستجد أنك تستطيع اتخاذ القرار، معلناً أنك تبحر ولست واقفاً ولا تحتاج إلى تغيير قاربك أو شراعك!

كذلك وفقاً لنموذج مدهش اسمه: «ماذا يقول عنك الآخرون؟»، يمكن للكتاب أن يساعدك في معرفة نوع علاقاتك؟ ماذا يقول الناس عنك أيضاً؟ حيث يطلب منك ببساطة أن تراجع قائمة عناوينك في هاتفك، واحسب عدد الأشخاص في قائمتك أكبر منك أو أصغر منك سناً؟ كم منهم أغنى منك أو أنت أغنى منهم؟ كم منهم أجانب وكم منهم من جنسية ما؟ كم واحد منهم تعتقد أنك مهتم به، وكم واحد منهم تعتقد أنه هو مهتم بك؟ ومن هنا سيتولد عنك توقع عن انطباعات من حولك، وكأنك تنفصل عن نفسك وتراقبها من الخارج.

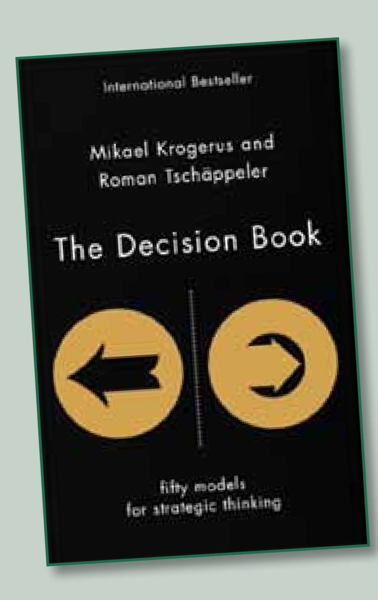
أختم هذا العرض بنموذج آخر مثير للاهتمام من الخمسين نموذجاً التي احتواها الكتاب، اسمه «التساؤل المتفهم» أو Appreciative Inquiry، والذي يطرح فيه أحد خبراء الإدارة أسلوباً مختلفاً في طرح سؤال شهير يستخدم للتشخيص، فبدلاً من طرح سؤال «ما هي المشكلة؟» لم لا نصيغه بالشكل التالي: «ما الشيء الذي يجري بشكل جيد الآن؟». هذا التساؤل يساعدنا في البحث عن العناصر الفعالة في العملية التي تتم الآن، والتركيز على استمرارها وتنميتها بدلاً من التركيز على المشكلة، لأن هذا التركيز على المشكلة يخلق تصوراً سلبياً عن القضية المطلوب تشخيصها، وعلى سياق متصل بالنموذج يقترح تصنيف الناس حيال تلقيهم الاقتراحات بخصوص مقترح تحسيني ما إلى الأنماط التالية:

- شخص يقول: «هذا اقتراح جيد، لكن...»، وهذا هو الشخص الذي يكتشف الأخطاء.
- شخص آخر تكون ردة فعله تجاه الاقتراحات على النحو التالي: «لا، هذا الاقتراح غير صحيح بسبب كذا وكذا»، وهذا هو الشخص الذي يشبه شخصية المدرس -الباحث عن الأخطاء- في المدرسة.
- ثالثهما هو الشخص الدكتاتوري الذي يواجه أي اقتراح بكلمة واحدة فقط: «لا»!
- أما الأخير فهو الشخص الذي يقول مقابل كل اقتراح، «نعم، من الممكن القيام بهذا الأمر ولكن هل يمكن إضافة كذا أو تعديل كذا»، هذا الشخص هو المتسائل المتفهم Appreciative Inquirer.

النمذجة الآن وفي المستقبل

قبل نهاية الكتاب يُطرح تساؤل ملحّ، هذا التساؤل يعالج فكرة النماذج المقبلة في المستقبل، ما هو دور مثل هذه النماذج التقليدية -إن صح التعبير- التي وردت في الكتاب عند اتخاذ القرار في ظل تسارع وتقدم علمي مذهل؟ وفي ظل «ثقافة ثالثة» تعيد تشكيل تعريف كلمة عالم وكلمة مثقف وكلمة تقنية وأدب وعلوم. وباستطراد يسهب الكاتبان في حكاية قصة ظهور النمذجة مع ظهور أدوات تساعد فيها، ومن أبرزها برامج معالجة الخلايا، جداول البيانات (spread sheets) على سبيل المثال، هذه النماذج ساعدت الإداريين في وقت ما على تحويل الواقع إلى بُعد أكثر اختصاراً ويحمل عدداً محدداً من المتغيرات، ويساعد في التركيز أكثر على القضية وحلها، لكن هذا الأمر -للأسف- يعني إغفال بقية المتغيرات كما ذكرنا من قبل، فلا يمكن لأي نمذجة أن تكون مطابقة للواقع، وهنا يجب أخذ الحذر والانتباه.

هذه النماذج هي أدوات تساعدنا وتفيدنا في الفهم لكنها بعيدة عن تعقيدات الواقع. عالم نظريات الإدارة هذه الأيام يشبه إلى حد كبير حال مهنة الطب قبل استخدام الأشعة السينية، والتي ساعدت الأطباء في تشخيص حقيقي لباطن الإنسان. ومن المثير أن نعلم أنه يجري حالياً استخدام الهندسة الجينية أو ما يسمى بالشبكات الذكية العصبية التي تتعلم ذاتياً بالتجربة والتفاعل مع البشر، في دراسة وتحقيق النظريات الإدارية، وهناك أمثلة مبهرة على مثل هذه التجارب، حيث توجد حواسيب آلية متقدمة القدرات في التحليل تقوم بتحليل نفسيات وأفكار المتسوقين على الإنترنت من خلال خياراتهم، هذا الأمر يجري استخدامه من قبل شركة «فيزا» العالمية، حيث يقوم الكمبيوتر بتوفير الخيارات والأجوبة حتى قبل طرحها أو طلبها من قبل المستخدم بناءً على سلوكه السابق! ومن بعد الحديث هذا قد يقول قائل، ربما كانت النماذج الخمسين المذكورة في الكتاب بدائية وغير مناسبة لتعقيدات عالمنا اليوم، هنا يأتي الجواب الجميل بأن الطبيب وحتى يومنا الحاضر، يكفيه أن يتحدث مع المريض ويسأله عما يشعر به ويكفي ذلك في تشخيص صحيح وسليم، وبالتالي فإن النماذج الإدارية الأساسية إن صح التعبير والمذكورة في الكتاب هي قاعدة مهمة ونقطة انطلاق مفيدة جداً، عملية لنعرف ذواتنا، وتحسين أدائنا، وأن نعرف الآخرين ونحسن من أدائهم.



بناء نموذجك الشخصي

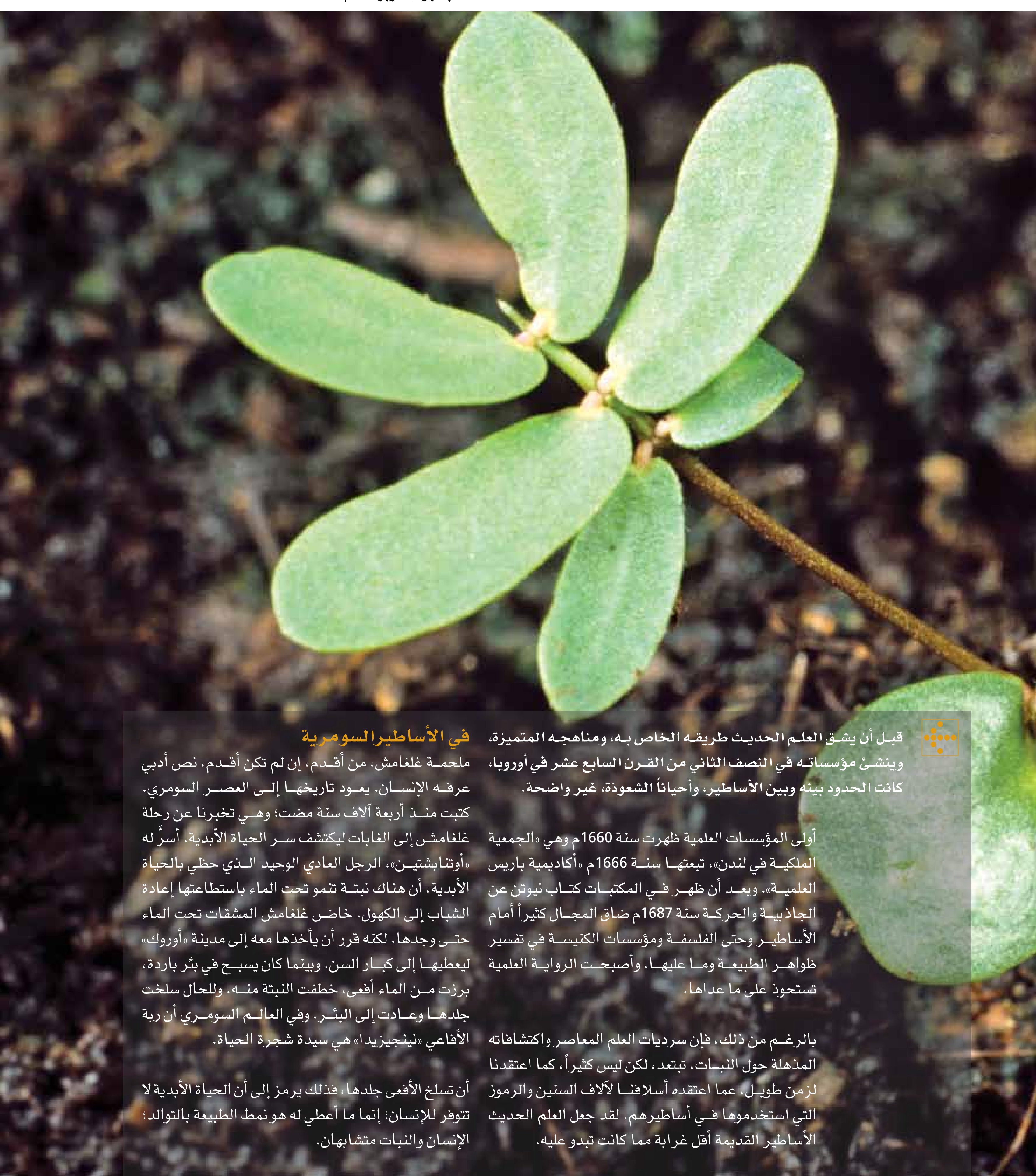
كل ما سبق تجده في طيات الكتاب المتوسط الحجم والبالغ عدد صفحاته 150 صفحة تقريباً من القطع الصغير. ليس هذا فحسب، بل إن الكتاب يرشدك -في ضوء النماذج العديدة التي يحفل بها- للقيام ببناء نموذج يخصك أنت، ويساعدك حتى في عملية تدعيمها بالرسوم التوضيحية، وفي النهاية يفسح لك المجال حتى تستغل وريقات بيضاء في نهاية الكتاب لتدوين نماذجك الخاصة وتطويرها، وهو بهذه الخطوة يؤكد ما ذكر سابقاً من أن الكتاب لا يقرأ فقط بل هو كتاب عملي يعطي أفضل النتائج عند استخدامه في النشاطات الإدارية اليومية، الذاتية والعامة.



عالم النبات بين الأساطير والعلم

كيف نظر الإنسان إلى عالم النبات خلال تاريخه؟ من الأساطير القديمة المتنوعة والمتعددة، التي قدَّمت لنا رؤاه في الأيام الغابرة، إلى العلم الحديث؛ رحلة أربعة آلاف عام، فيها الكثير من الغرابة والاندهاش حتى يومنا هذا. أمين نجيب يطوي هذه الرحلة ليقدِّم لنا حصيلة تجارب الإنسان ورؤاه في عالم النبات.

corbis



قبل أن يشق العلم الحديث طريقه الخاص به، ومناهجه المتميزة، وينشئ مؤسساته في النصف الثاني من القرن السابع عشر في أوروبا، كانت الحدود بينه وبين الأساطير، وأحياناً الشعوذة، غير واضحة.

أولى المؤسسات العلمية ظهرت سنة 1660م وهي «الجمعية الملكية في لندن»، تبعتها سنة 1666م «أكاديمية باريس العلمية». وبعد أن ظهر في المكتبات كتاب نيوتن عن الجاذبية والحركة سنة 1687م ضاق المجال كثيراً أمام الأساطير وحتى الفلسفة ومؤسسات الكنيسة في تفسير ظواهر الطبيعة وما عليها. وأصبحت الرواية العلمية تستحوذ على ما عداها.

بالرغم من ذلك، فإن سرديات العلم المعاصر واكتشافاته المذهلة حول النبات، تبتعد، لكن ليس كثيراً، كما اعتقدنا لزمن طويل، عما اعتقده أسلافنا لآلاف السنين والرموز التي استخدموها في أساطيرهم. لقد جعل العلم الحديث الأساطير القديمة أقل غرابة مما كانت تبدو عليه.

في الأساطير السومرية

ملحمة غلغامش، من أقدم، إن لم تكن أقدم، نص أدبي عرفه الإنسان. يعود تاريخها إلى العصر السومري. كتبت منذ أربعة آلاف سنة مضت؛ وهي تخبرنا عن رحلة غلغامش إلى الغابات ليكتشف سر الحياة الأبدية. أسرَّ له «أوتنابشتين»، الرجل العادي الوحيد الذي حظي بالحياة الأبدية، أن هناك نبتة تنمو تحت الماء باستطاعتها إعادة الشباب إلى الكهول. خاض غلغامش المشقات تحت الماء حتى وجدها. لكنه قرر أن يأخذها معه إلى مدينة «أوروك» ليعطيها إلى كبار السن. وبينما كان يسبح في بئر باردة، برزت من الماء أفعى، خطفت النبتة منه. وللحال سلخت جلدها وعادت إلى البئر. وفي العالم السومري أن ربة الأفاعي «نينجيزيدا» هي سيدة شجرة الحياة.

أن تسلخ الأفعى جلدها، فذلك يرمز إلى أن الحياة الأبدية لا تتوفر للإنسان؛ إنما ما أعطي له هو نمط الطبيعة بالتوالد؛ الإنسان والنبات متشابهان.

الفرعونية

الأساطير المصرية القديمة مليئة بالأشجار المقدسة. في واحدة منها أن هناك شجرتي دلب تقفان على البوابة الشرقية للسماء، ومنهما تشرق الشمس كل صباح. ولهذه الأشجار علاقة بثلاث من الآلهة، نوت وحاتور وأسيز. وكل واحدة منهن كانت تدعى «سيدة الدلب». وكانت وظيفة الآلهات مساعدة الشجرتين لمد الموتى بالغذاء. والشجرتان تتصرفان أحياناً كالبشر، إذ تمتلك أذرعاً تمد الموتى أيضاً بالطعام، كما يبدو في هذا الرسم القديم الذي يظهر أعلى الصفحة.

الأمريكية القديمة

قبائل الأيروكواس، من سكان أمريكا الأصليين، يعتقدون أن الأرض بدأت حين أطلت «السماء المرأة» من العالم العلوي، ومن خلال ثقب في السماء، وقعت في بحر لا حدود له. رأتها الحيوانات تسقط، وعلمت أنها حامل، فأخذت التراب من قاع البحر ونثرته على ظهر سلحفاة عملاقة لتوفير مكان آمن لها. أصبحت السلحفاة جزيرة وهذه الجزيرة هي أمريكا. عندما هبطت، للحال وضعت ابنة. هذه الابنة كبرت وحملت بواسطة الريح الغربية. وبينما كانت تضع توأميها الذكرين ماتت. فدفنتها «السماء المرأة» في «الأرض الجديدة»، ومن قبرها هذا نمت ثلاث نباتات مقدسة هي الذرة والفاصولياء والقرع، وهن ثلاث أخوات جميلات لا يفترقن أبداً. الذرة تشكل سلماً للفاصولياء كي ترتفع، والنبتتان تشكلان غطاء للقرع من الشمس الحارقة. وهناك الكثير من القصص حول الأخوات الثلاث بما فيها التفنن في وصف جمالهن بين قبيلة وأخرى.

الأخوات الثلاث

الأستونية

بعدما طرد الإنسان الأول من الجنة، تقول الأسطورة الأستونية، اضطر إلى العمل فذهب إلى الغابة لقطع شجرة. وبينما همَّ بفأسه على جذع شجرة صنوبر لقطعها، سمع صوتاً صارخاً في البرية: «لا تضربني، ألا ترى الدموع تنسكب على لحائي؟» تطلع إلى فوق، فرأى بالفعل مادة لزجة لاصقة تتسرب من جسدها، تركها إلى واحدة أخرى، وكل واحدة تستعطفه بعدم المس بها. توقف ثم توجه إلى الله قائلاً: كيف لي أن أشعل ناراً وأبني ملجأ وكل شجرة تلتمسني ألا أقطعها؟ عطف الله عليه وقال له: عد إلى الغابة وخذ حاجتك، فلن تعترضك واحدة. الأشجار لا تستطيع معارضة كلمة الله. بدلاً من ذلك، وكلما دخل إنسان الغابة أصبحت تهمس فيما بينها بلطف، مشتكية إلى يومنا هذا من معاملة الإنسان لها.

اليونانية

في اليونان القديمة، كل نبتة لها أسطورة. من هذه الأساطير: بينما كانت الحورية «نانا» جالسة تحت أغصان شجرة اللوز، وقعت في حضنها حبة، فحبلت ووضعت طفلاً هو «أتيس».

وفي أسطورة أخرى فإن «أفروديت» وقعت في حب الشاب الوسيم «أدونيس» الذي صرعه الخنزير البري فمات. وتقول الأسطورة إن أفروديت جعلت التراب الذي رواه دم أدونيس يتفتح عن شقائق النعمان وفاء لحبها له.



corbis

شقائق النعمان

الهندية

شجرة «الشمس والقمر» الهندية، الوارفة الظلال والضخمة جداً، والتي تنتمي إلى فصيلة أشجار «البانيان»، يستطيع اثنان من جذوعها قراءة المستقبل، كما تقول الأسطورة. فهي في النهار تتكلم كذكر وفي الليل كأنثى. وكانت الصبايا يأتين إليها لتمنحهن مستقبلاً مشرقاً. ويقال إن الإسكندر المقدوني الكبير قد زار هذه الشجرة، في القرن الرابع قبل الميلاد، وخيم مع 7000 من جنوده تحت ظلالها. كما أن المستكشف الإيطالي ماركو بولو قد زارها أيضاً في القرن الثالث عشر.


شجرة البانيان

في العلم

بالكاد تكشف عالم الحيوان عن غموضه، وتوضحت للعلم مكنوناته وأسراره، حتى برز عالم آخر أشد غموضاً وأكثر تعقيداً وأكبر تحدياً. إنه عالم النبات. فالإنسان يتشارك مع باقي الثدييات وحتى مع الكثير من الحشرات، معظم التركيبة البيولوجية. وأن جيناتهما تتشارك في أكثر من 90% من المعلومات. لذلك كان من السهل ولوج هذا العالم ومعرفته. بل إن الكثير من الاختبارات على الحيوان ساعدت على فهم تركيبة ومشكلات الإنسان نفسه، لكن لعالم النبات قصة أخرى.

علم النبات هو من أقدم فروع العلم. فقد جمع الفيلسوف اليوناني أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد معلومات عن معظم النباتات المعروفة

تاريخياً

علم النبات هو من أقدم فروع العلم. فقد جمع الفيلسوف اليوناني أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد معلومات عن معظم النباتات المعروفة. ووصف النبات: «إنه كائن بسيط يعتمد على نفسه في التغذية، غير متحرك، وليس له مركز إحساس، وإن كان يتأثر بالحرارة والبرودة، وتتغذى النباتات من التربة، ولا تمييز فيها بين الجنسين، فليس فيها ذكر ولا أنثى».

الكتاب العربي الأول عن علم النبات كان على يد أبي عبيدة البصري (208هـ، 796م) وهو «كتاب الزرع» ثم أعقبه الأصمعي (214هـ، 829م) في عنوان «النبات والشجر»، وبعده أبو زيد الأنصاري (215هـ، 830م) تحت نفس العنوان. أما الكتاب في علم النبات الذي ترك أثراً كبيراً في الشرق والغرب فهو كتاب ابن البيطار في القرن السادس الهجري، وعنوانه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» والذي ترجم إلى اللاتينية عام 1758م وإلى الألمانية، المستشرق فون زونتهايمر سنة 1840م ونشره في شتوتغارت، كما ترجمه إلى الفرنسية، المستشرق لوسيان لوكليرك. وظل هذا الكتاب يُدرَّس في الجامعات الأوروبية حتى القرن السادس عشر.

يقول الدكتور راغب السرجوني في موقعه على الإنترنت: «إذا كان الإغريق والرومان قد اتجهوا إلى الوصف الخارجي للنبات، فإن المسلمين كانت نظرتهم أعمق، وأكثر دقة».

العلم المعاصر

ومع بدء اهتمام العلم المعاصر، وتعمق العلماء في دراسة النبات، أدركوا مدى تعقيد تركيبته، وأصبحوا أكثر إعجاباً به وأقل رفضاً لكونه مجرد آلة تمتص المياه، وأوراق تجمع أشعة الشمس بواسطة الكلوروفيل لاستعمالها في عملية التركيب الضوئي. بل إنها شديدة الحساسية للبيئة، فالسرعة في التكيف للتغيرات فيها، والعدد الكبير وغير العادي للحيل بجعبتها لمحاربة المهاجمين والمعتدين، والتماس المساعدة من بعيد لصدهم؛ كل ذلك يجعلنا نعيد النظر، بل يدفعنا إلى قفزة مفهومية أو ثورة خضراء.

وفي واقع الأمر، إنه لم تعد، حديثاً، اللغة المستعملة إزاء النبات جامدة. لقد بدأ العلماء باستعمال أفعال نشطة وصور حية. النبات «يفتش» عن الموارد كالشمس والمغذيات في التربة. إنه «يحلل» الضوء الأحمر القريب من الضوء الأحمر البعيد الواقع على أوراقه. إنها «تحس» بوجود منافس لأخذ الكلوروفيل بقربها، «فتحاول» أن تتجه إلى نمو آخر. جذورها «تجول» تحت الأرض و«تتبادل» المعلومات والميكروبات وطرق التنفس مع أنواع أخرى.

مواجهة العدوان

في هذا السياق، أجرى فريق من علماء البيولوجيا في جامعة تورين في إيطاليا ومؤسسة ماكس بلانك الألمانية، العريقتين، دراسات واختبارات علمية لمدة ثلاث سنوات ونشرت في مجلة «بلانت فيزيولوجي» التابعة لجمعية البيولوجيين الأمريكيين، كما نقلتها صحيفتا «لا روبيبلكا» الإيطالية و«الغارديان» الإنجليزية سنة 2004م. لقد تركز البحث بمعظمه على نبتة الفاصولياء البيضاء. وجدوا «أن النباتات، عند تعرضها لأي خطر، تطلق خططاً ماكرة وشيطانية بمعنى إيجابي لها. إنها لا تحذر أقرانها من النباتات القريبة فقط، بل إنها تطلب النجدة من مخلوقات أخرى». تبين أن نبتة الفاصولياء عندما تتعرَّض لهجوم من بعض اليرقات الجائعة، «تحس» بصوت قضمات أوراقها الخضراء، فتبعث، كردة فعل إزاء ذلك، رائحة تشبه رائحة



بعض زهور المضعف المتفاعلة فيما بينها، حيث تميل للتجمع مجموعات متعانقة

الخزامى. هذه «تنبه» النباتات الأخرى لوجود عدو. «لكنها أيضاً تستدعي ما يمكن تسميته، بالعلم العسكري الحديث اليوم، القُوى الجوية. الدبابير، العدو الطبيعي لليرقات، تلتهمها أو تحقنها بالبيض، فتموت بعد ذلك». السؤال الأساسي الذي طرحته الدراسة هو «هل تشعر النباتات بالخوف؟». لقد تركت الجواب إلى أبحاث أخرى.

أما الدكتورة مونيكا هيلكر، أستاذة البيولوجيا من الجامعة الحرة في برلين، فوجدت، أواخر سنة 2009م أن النباتات «تميز» بين مختلف موجات الضوء. إنها «تصغي» إلى الإشارات الكيميائية. حتى أنها «تتكلم»، و«تلمس»، و«تستمع»، بالإشارات الكيميائية. هذه طرائق وقدرات نعتقد خطأ أنها مقتصرة على عالم الحيوان». ووجدت الدكتورة هيلكر وفريقها أن بعض النباتات «تحس» عندما تبيض الحشرة على أوراقها و«تتصرف» فوراً إزاء الخطر الناجم عن تفريخ هذا البيض؛ فتفرز سجادة من النتوءات والأورام لطرح البيض خارجاً، أو تفرز مادة قاتلة للبويضات للتخلص منها. وقد نشرت نتائج هذه الاختبارات في «وقائع الأكاديمية الوطنية للعلوم» الأمريكية المرموقة جداً. كما وجد هذا الفريق «أن أنثى فراشة الملفوف، حين تضع بيضها على الأوراق بلمسة من الصمغ، تتعرف هذه النبتة الساهرة، إلى بعض الإضافات البسيطة في هذا الصمغ، بنزيل السيانيد. وبمساعدة هذه المادة، تغير النبتة بسرعة التركيب الكيميائي لسطح أوراقها لتغري أنثى الدبابير بالقدوم مستغلة هذه الهبة الراسية على الأوراق، تقوم أنثى الدبابير بدورها بحقن بويضاتها داخلاً. حينئذ تتغذى أنثى الدبابير الحامل على أنثى الفراشة الحامل. وهكذا تحل النبتة مشكلتها.

ليس بإمكان النباتات أن تهرب عند تعرضها لأي اعتداء، لكنها تستطيع الثبات في الأرض. فعند أول رشفة من أوراقها من أي حشرة تغط عليها، تقول الدكتورة ليندا والينغ من جامعة كاليفورنيا - ريفرسايد، فإن خلايا متخصصة على سطح الأوراق تفرز فوراً مادة كيميائية توتر المهاجم أو مادة لزجة تصطاده. كما أن لها جينات في «د.ن.أ» تنشط لتشن حرباً كيميائية منظمة، وهذا هو جزء من نظام المناعة التابع لها.

التجسس والهجوم

في بحث نشر في مجلة «ساينس» المعروفة من قبل الدكتور مورايس وفريقه ورد «أن النبات «يتجسس» الواحد منه على الآخر أحياناً لأغراض حميدة وأخرى مهلكة. إن بعض شتول الحامول، وهي نبتة طفيلية من فصيلة «زهور الصباح»، بإمكانها التقاط مواد كيميائية متطايرة من بعض النباتات القريبة مثل الطماطم، حيث تنمو باتجاهها، وتطوق ساقها، وتمتص لحاءها الحيوي، حتى إنها تميز بين النبتة السليمة من المريضة وتختار الأولى».

تمييز الأقارب

وللنبات قدرة على تمييز الأقارب والمفاضلة بينها وبين الأجناس الغريبة. فقد قامت الدكتورة سوسان دادلي من جامعة ماكماستر في كندا باختبار على إحدى نباتات الكرنبية، وذلك صيف 2007م، ونشر في مجلة الجمعية الملكية: رسائل بيولوجية. «عندما تتشارك النباتات الوعاء نفسه، تبدأ المنافسة من خلال تنمية جذور أكثر، لتنتزع المياه والمعادن والمغذيات الواحدة قبل الأخرى. وقد تبين أنها تفعل هذا فقط عندما لا تكون النباتات تمت بصلة قربى. عندما تتشارك نفس العائلة الوعاء، فإن الجذور لا تنمو بنفس الوتيرة.. إن هذا التفاعل في الجذور يشير بقوة إلى وجود تمييز بين ذوي القربى». وبالرغم من أن النباتات لا تمتلك الإدراك والذاكرة، «إلا أن الدراسة توصلت إلى أن للنبات القدرة على التصرف الاجتماعي المعقد كالإيثار أو الغيرية تجاه الأقارب. إن السلوكيات الأكثر إثارة للاهتمام، كالناس، تحصل تحت السطح». تواصل دادلي: «إن المزارعين يعرفون منذ مدة طويلة أن بعض الأزواج من النباتات تنمو أفضل بعضها مع البعض الآخر، وأن العلماء أصبحوا يعلمون لماذا». فهل يجب أن نباشر تنظيم البساتين والحقول كما ننظم دعوات العشاء؟

وقد أعادت الدكتورة دادلي البحث، مع فريق آخر من العلماء، على بعض أزهار البلسم سنة 2009م ونشر في

«مجلة النبات الأمريكية». وتركز البحث على موضوع الإيثار أو الميل لمساعدة الآخرين. لكنه هذه المرة لم يقتصر على ضفيرة الجذور تحت الأرض، بل أيضاً التنافس على الضوء فوق الأرض. وكانت النتيجة مطابقة لأبحاثها السابقة.

في سعيها لإيجاد الغذاء، توازن الحيوانات بين المخاطر الممكنة من وجود معتدين محتملين وكمية الغذاء المتوافر

بالرغم من ذلك، وفي دراسة حديثة في أواخر 2011م وبمشاركة الدكتورة دادلي ونشرت في مجلة الجمعية الملكية، فإن النباتات الأقل قرباً، أحياناً، تتفاعل إيجاباً وتتفوق على الأخرى المتقاربة. وهذا يشير إلى أن التنوع له أيضاً إيجابياته. وتعلق دادلي على ذلك بالقول إن التفاعل الاجتماعي للنبات معقد جداً، لكنه موجود ويحتاج إلى أبحاث مستفيضة أخرى.

صرخة النجدة

وقد قام الدكتور كونسيلو دي مورايس من جامعة بنسيلفانيا باختبار لقياس سرعة استجابة النبتة، ووجد أنه «بعد عشرين دقيقة من بدء اليرقة امتصاص أوراقها، التقطت النبتة الكاربون الموجود في الهواء وجهزت تركيبة دفاعية من لا شيء». أضاف: «لقد دهشت من السرعة التي تمت بها هذه العملية». ويقول:، إذا كنا نحن البشر لا نستطيع سماعها، فهذا لا يعني أن النبتة لا تعوي. عندما تغط حشرة على أوراقها، تفرز مادة كيميائية متطايرة تقوم مقام الصرخة طالبة النجدة. وقد تبين أن هذه العملية تستدعي حشرات كبيرة مثل ذبابة التنين التي تبتهج لأكل لحم اليرقة، أو حشرات طفيلية تصيب بالعدوى هذه اليرقة وتدمرها من الداخل. ويعلق الدكتور ريتشارد كاربان، من جامعة كاليفورنيا – دايفس، على هذه الظاهرة: أن المادة المتطايرة التي تفرزها النبتة، تجعل النباتات الأخرى من نفس النوع، أو حتى من أنواع مختلفة، أكثر مقاومة لآكلي الأعشاب.

دمج المعلومات

في سعيها لإيجاد الغذاء، توازن الحيوانات بين المخاطر الممكنة من وجود معتدين محتملين وكمية الغذاء المتوافر. أي إنها تستخدم كافة المعلومات التي بحوزتها واستخدام معادلة: المخاطر مقابل المكافآت. هكذا تفعل النباتات. فقد تبين لفريق من الباحثين في جامعة ألبيرتا بقيادة عالم الأيكولوجيا ج.س. كهيل أن النباتات تدمج معلومات معينة عن أمكنة الغذاء ووجود منافسين على هذا الغذاء. وفي دراسات سابقة وجدوا أن الجذور تغير من وتيرة نموها بما يتناسب مع أمكنة توافر الغذاء. أما الآن، فقد تبيَّن أنها تضيف إلى هذه المعلومة احتمال وجود منافسين. ويعلق كهيل: هذه القدرة على دمج المعلومات بطريقة معقدة لم يرها أحد من قبل في النبات.

لقد استعمل الفريق كاميرا ريزوترون صغيرة تستطيع تصوير نمو الجذور واتجاهها في الوعاء؛ فعند زرع نبتة واحدة وتوزيع المغذيات بطريقة متساوية، نمت الجذور بطريقة متناسبة في وسع المساحة. وعند زرع نبتتين معاً في نفس الوعاء فإن جذور كل منها تفادت الأخرى وتم تقاسم المساحة بالتساوي. أما عند وضع المغذيات في منطقة واحدة، فالجذور اتجهت كلها نحو هذه المنطقة، لأن المردود يستحق المخاطرة: فبدون المغذيات تموت النبتة.

بين الأساطير والعلم

رحلة ممتعة، تكلم فيها أجدادنا في أساطيرهم القديمة بالإنابة عن عالم النبات. أما في عصر العلم الحديث، فقد أصبح عالم النبات يتكلم بالأصالة عن نفسه؛ لقد أثبت أن أجدادنا لم يكونوا تماماً على خطأ، فهل هي أسطورة جديدة أضيفت إلى عالم الأساطير؟


corbis

زاد العلوم

1 الأمومة تقضي على التوتر!

قد لا تصدق ذلك، ولكن الأمومة فعلاً تحمي النساء من الآثار السلبية للتوتر، فقد اختبرت تريسي شورز من جامعة روتجرز في نيوجيرسي وزملاؤها آثار التوتر على قدرة الجرذان على تعلم طرفة العين عندما تسمع صوتاً محدداً. إن التوتر يجعل إناث الجرذان العذراء غير قادرة على تعلم تلك المهارة أما إناث الجرذان التي ولدت صغارها أو إناث الجرذان التي تبنت أطفال غيرها فقد تعلمت تلك المهارة بسهولة بالغة. وهذه الحماية من التوتر تستمر طوال الحياة. ولكن العلماء لا يعلمون بعد ما الذي يجعل «الأمومة» بحد ذاتها مسؤولة عن توفير هكذا حماية! وهذه النتيجة جزء من بحث أكبر تجريه الباحثة ويركِّز على أن استمرار تعلم المهارات سيحافظ على الخلايا العصبية (نيورونز) من الموت والتلف مع تقدم العمر.



2 سلاح جديد لمواجهة سرطان الثدي

قد يتم استخدام عقار أيكسمستين Exmestane (أو أرماسين) المخصص لمعالجة سرطان الثدي في تقليل الإصابة بسرطان الثدي الانتشاري الخطر (لأنه ينتشر في داخل الثدي وقد يقفز إلى أقرب الغدد اللمفاوية منه ثم إلى أعضاء الجسم الأخرى) بنسبة 65%. والنساء اللواتي لم يدخلن سن اليأس بعد معرضات أكثر من غيرهن للإصابة بهذا النوع. جاء ذلك في دراسة أجراها فريق بحثي من جامعة بتسبرغ الأمريكية. يعمل هذا الدواء على منع صناعة هرمون الاستروجين فيقلل إمكانية الإصابة بالمرض، ولكن لا يخلو هذا العقار من الأعراض الجانبية كالأرق ونوبات ارتفاع درجة حرارة الجسم (البوخة) والتعرق والإرهاق.

3 عبقري الفيزياء في خطر

بعد أن بلغ السبعين من عمره، بدأ ستيفن هاكينج، عبقري الفيزياء وأستاذ جامعة كامبردج، يفقد قدراته في إيصال أبسط الأفكار إلى مساعديه بواسطة الكمبيوتر بسبب تدهور حالته الصحية. وهاكينج كما هو معروف مصاب بشلل عصبي حركي أقعده تماماً عن الحركة والكلام. ولكنه يعمل حالياً مع عدد من العلماء للتوصل لطريقة تساعدهم في قراءة أفكاره بواسطة موجاته الدماغية فقط. وقد أطلق هذه المبادرة البروفيسور «فيليب لو»، مبتكر تقنية (iBrain) في جامعة ستانفورد. ويقوم جهاز «لو» بقياس النشاط الكهربائي الدماغي، و«لو» يأمل في استخدام المعلومات لتحويل الأفكار إلى أفعال وكلمات. وهذا الجهاز مصمم بشكل أحزمة تشبه الخوذة يُلبس على الرأس ويقرأ نشاط الموجات الدماغية ويرسلها لاسلكياً إلى الكمبيوتر لقراءتها دون الحاجة لأي جهد عضلي.



4 ماء حي وماء ميت!

ثمة فرق بين الماء الساكن والماء المتحرك، كلاهما صالحين للشرب ولكن الفارق أن الأول ميت والثاني حي! لذلك، حرِّك قارورة مملوء نصفها بالماء جيداً قبل أن تشرب ما فيها. تدعى هذه العملية بأكسجنة الماء أي تشبيعه بالأوكسجين وكذلك الحال مع الأدوية. أثبتت دراسات وتجارب عديدة أن مفعول الماء والدواء سيرتفع لو تم تحريكهما قبل الشرب. إن تحريك الماء سيحسن عملية الهضم والصحة العامة وجهازك المناعي، خاصة وأن المعدة والأمعاء مصنعان للعديد من التفاعلات الكيميائية والتي لا يمكن أن تجري دون وجود الأوكسجين الكافي لها، كما أن أكسجنة أو تهوية ماء الشرب ينظم عمل القلب والعضلات ويقلل تساقط الشعر ويقلل ظهور التجاعيد ويحَسن المظهر العام للجلد ويزيد قدرة الجسم على التخلص من السموم لأنه يزود الخلايا بكميات أكبر من الأوكسجين فيحسن أداءها.

5 مرض «القلب المكسور»!

إنها حالة تسبب بشكل وقتي قصوراً في القلب بسبب فاجعة ما أو توتر عاطفي شديد، وهذه الحالة قد تحمي فعلياً القلب من المستويات المرتفعة للأدرينالين، وفقاً لدراسة أجريت مؤخراً. وقد أثبت الباحثون أن حصول تغير مفاجئ في استجابة القلب للأدرينالين قد يحمي القلب من التحفيز المفرط الذي تسببه الجرعات الكبيرة من الأدرينالين الذي يفرزه الجسم أثناء التوتر الشديد. من المعلوم أن إفراز الأدرينالين مهم جداً لأنه يُدخل المزيد من الأوكسجين إلى داخل الجسم أثناء التوتر، ولكن له أثاراً ضارة إن استمر في الإفراز لفترات طويلة. لذلك، ففي بعض المرضى يؤدي التوتر الشديد إلى أن يجعل الأدرينالين القلب يصاب بالسكتة وهذا يحمي القلب من التحفيز المفرط الذي قد يؤدي إلى الموت.



6 الرياضة تحمي العين!

أكدت عدة دراسات أمريكية أن الرياضة المنتظمة والشديدة يمكنها أن تحمي العين من مرض الكتراكت (وهو عتمة عدسات العين الذي قد يؤدي للعمى) ومن تردي البصر بسبب التقدم في العمر (تلف الشبكية الذي يؤدي إلى ضعف البصر الشديد الذي لا يمكن علاجه والذي يصيب 28% من الناس بسن 75 عاماً فأكثر) وغيرها من أمراض العين التي تصيب المصابين بالسكري. وبإمكان الشخص أن يقلل فرص الإصابة بتلك الأمراض إن اتبع نظاماً رياضياً وصحياً يشمل الرياضة الصارمة. ووجدت الدراسات أن الرجال الذين يركضون أكثر من 5.7 ميل في اليوم تنخفض نسبة إصابتهم بالكتراكت بحوالي 35% من الأشخاص الذين يركضون أقل من 1.4 ميل/اليوم، حيث تساعد الرياضة على تحسين مستوى الكولسترول فتقل الالتهابات والأكسدة وهما من العوامل المسببة للكتراكت.





ينشغل العالم بعلمائه وباحثيه منذ أكثر من 5 سنوات، بحدث جلل ينذر بنتائج خطرة جداً على البشرية، ألا وهو تناقص أعداد النحل، لأنه بكل بساطة ووضوح: «لا نحل.. لا محاصيل».

فثلاثة أرباع النباتات التي تحمل زهوراً، تعتمد على النحل لمساعدتها على التلقيح والتكاثر، وإذا واصل النحل تناقصه الحاد والذي يقدّر سنوياً بـ 30 في المئة، فإن العالم سيودّع عشرات الأنواع من الفاكهة، ناهيك عن الخسائر الاقتصادية التي تزيد حالياً على 15 مليار دولار في قطاع المواد الغذائية.

هنا إضاءة على هذه القضية العالمية أعدها **مالك القعقور**، عارضاً أبرز ما توصل إليه العلماء من أسباب وما توصلت إليه دراسات وأبحاث تجرى في معظم دول العالم وبخاصة في أوروبا والولايات المتحدة الأمركية.

لماذا تتناقص أعداد النحل؟

...تعددت الأسباب والموت واحد



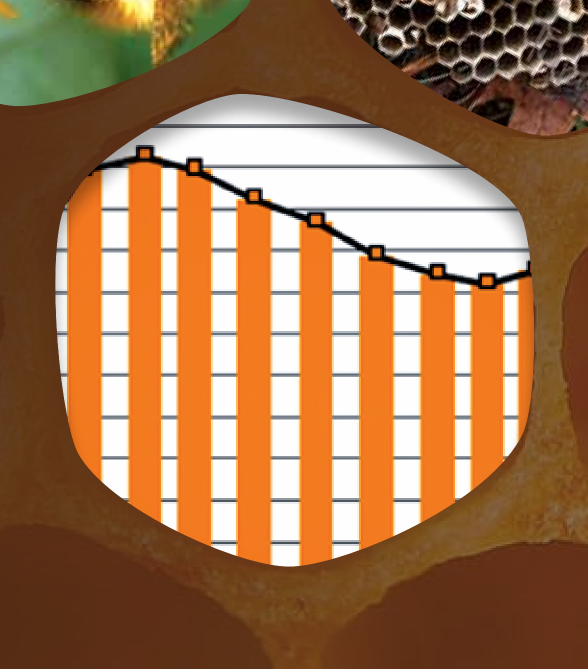
shutterstock

خلصت آراء العلماء والمؤتمرات الدولية الكثيرة التي تركزت على مناقشة أسباب تناقص أعداد مستعمرات النحل عالمياً بنسب عالية، إلى نتائج مقلقة نظراً إلى عدم تمكن العلماء والخبراء ومربي النحل في العالم حتى الآن، من التوصل إلى معرفة أسباب هذه الآفة التي تعصف بعالم النحل منذ عام 2006م حين بدأ يسجل مربو النحل خسائر في خلاياها.

ووفقاً لبعض هذه التقارير، فإن مربي النحل في الولايات المتحدة خسروا 35 في المئة من القفران عام 2007م، بعدما فقدوا 30 في المئة منها السنة التي سبقتها. كما مُني زملاؤهم في بلدان عدة من كندا إلى الصين مروراً بالبرازيل والهند إلى جانب كثير من البلدان الأوروبية، بخسائر مشابهة. لذا صدرت تحذيرات بأن «التهديد كبير جداً»، فبعض الدول سيختفي منها النحل نهائياً كبريطانيا، حيث حذرت جميعة مربي النحل من اختفائه كلياً من البلاد بحلول عام 2018م، وبالتالي غياب نحو 90 محصولاً من أهم 115 محصولاً من الفاكهة والحبوب والخضار تعتمد على النحل في تلقيحها، أي إن الناس سيفقدون اذا ما استمر الأمر، كثيراً من السعرات الحرارية ومعظم الفيتامينات والمعادن ومضادات التأكسد.

المرض نانوي

أما فيما يتعلق بالأسباب، فقدّم العلماء منذ عام 2007م فرضيات عدة أحدثها نظرية أفادت بأن الانخفاض العالمي لمستعمرات عسل النحل سببه تلوث ناجم عن جزئيات الديزل. ووفق خلاصة الدراسة التي أجراها فريق من جامعة ساوث مبتون، فإن الجسيمات الصغيرة جداً أو «النانوية»، المنبعثة من محركات الديزل يمكن أن تؤثر في أدمغة النحل، إذ تحمل في ثناياها عوامل تضر بالعاملات من النحل فتعجز عن إيجاد طريقها لتعود إلى خليتها.

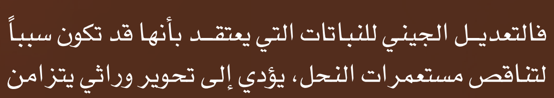


ويعتقد الفريق أيضاً، أن النانوية تشكل واحداً من عوامل التوتر التي يمكن أن تؤدي إلى نقطة تحول في صحة النحل، وبالتالي تسهم في انهيار مستعمرته. واستند الباحثون في نتيجتهم، إلى دراسة أجريت في المملكة المتحدة وأخرى في الولايات المتحدة، أظهرت أن جزئيات الدخان تضرّ بأدمغة الحيوانات عندما تتعرَّض لجرعات كبيرة. وسعى الباحثون إلى معرفة ما إذا كان النحل يتأثر بالطريقة نفسها، والأسباب التي تحول دون معرفة النحلة طريقها إلى خليتها بعد مغادرتها، للعثور على الغذاء.

ورجّح فريق البحث المؤلف من علماء بيولوجيا وبيئة وتكنولوجيا النانو، بعد اختباره التغيرات السلوكية والعصبية للنحل عقب تعرضها لجزئيات الديزل، أن أبخرته قد يكون لها تأثير مزدوج على النحل: ضياع طريقة العودة إلى الخلية، وتلويث روائح الزهور في الهواء ما يصعّب على النحل العثور على مصادر الغذاء. ومكّنت هذه البحوث التي استغرقت تجاربها 3 سنوات، من كشف مزيد من الآثار النانوية المحتملة على انهيار مستعمرات النحل.

تعديل جيني وطفيليات خلوي

وكان العلماء ساقوا قبل هذه النظرية نظريات عدة تفاوتت بين «التعديل الجيني» و«عث الفاروا» و«الطفيليات»، و«الهواتف الخلوية»، و«البذر المدمر».



فالتعديل الجيني للنباتات التي يعتقد بأنها قد تكون سبباً لتناقص مستعمرات النحل، يؤدي إلى تحوير وراثي يتزامن مع غبار الطلع للزهور، فتلقح الزهور لتنتج ثماراً معدلة وراثياً. وهنا يسود اعتقاد بأن النحل الذي يتغذى من الزهور الملحقة وراثياً يعاني من سوء تغذية يتسبب بوفاته نتيجة نقص في المواد الغذائية صيفاً، ما ينعكس ضعفاً في الجهاز الهضمي أثناء عملية الإسبات شتاء.

خسر مربو النحل في الولايات المتحدة 35 في المئة من القفران عام 2007م، بعدما فقدوا 30 في المئة منها السنة التي سبقتها

أما «عث الفاروا» الذي يلقي عليه بعضهم اللوم في وفاة النحل، فساد لدى العلماء يوم بدأت المشكلة عام 2005م، بأنه مصدر رئيس لمرض معوي يصيب النحل ويؤدي إلى وفاته. وهنا برزت مشكلة ثانية إذ رأى العلماء أن استخدام علاجات ضد هذا العث، قد تتسبب بأمراض تستدعي استخدام مضادات حيوية قد يؤدي الإفراط باستخدامها إلى خلل في الجهاز المناعي.

وفيما يتعلق بالطفيليات فإنها موجودة في المحاصيل والشجر ما يدفع بالمزارعين إلى رشها بمبيدات مركبة من مواد كيماوية وسامة، علماً بأن تلك المحاصيل والأشجار هي مصدر غذاء النحل، وبالتالي يعتقد أن تلك المبيدات مسؤولة عن تدمير مساكن النحل.

وكذلك فإن الهاتف الخلوي لم يسلم من التهمة، إذ أفادت دراسة بأن إشعاعه يؤثر في قدرة النحل على التنقل، مؤكدة أن موجات الراديو الكهرومغناطيسية تؤثر سلباً في الحركة الملاحية للنحل الذي يتوه عن مواقع الغذاء وأيضاً عن مساكنه.

أما «البذر المدمر» وهو نوع من البذور المعدلة وراثياً فتستخدم لإنتاج البذور، فيعتقد بأنه يسبب للنحل أمراضاً في جهازه الهضمي إذ ظهرت لدى نحل حاول ارتياد هذه البزور، أمراض من هذا النوع شبّهت، بعد عملية التشريح، بسرطان القولون لدى البشر.

بين الذاكرة والمناعة

وفي السياق نفسه، أكد علماء بريطانيون أن النحل يفقد جزءاً من قدرته على العمل عندما يمرض، وأنه مثل البشر يعاني صعوبة في القيام بواجباته اليومية حتى يتعافى. وأوضحوا أن نحل العسل ذا أجهزة المناعة النشطة، يعاني من مشكلات في الذاكرة. واعتبروا أن هذه الاكتشافات قد تعزز الجهود لإنقاذ مستعمرات النحل، لأن النحل حيوان يعيش على ذاكرته، واذا أضرت مجرد عدوى بسيطة بها، فتلك كلفة كبيرة. وقالوا إنه مثل بني البشر يمكن أن يمرض ويتماثل للشفاء خلال أيام من مرضه بعد أن ينشط جهاز المناعة لمقاومة الفيروسات والطفيليات.

وتشخيص العلماء البريطانيين للمشكلة بمرض أصاب ذاكرة النحل وجهاز مناعته، جاء بعد دراسة عملية على مجموعتين من النحل حقنوا بعضها بمادة تحفز جهاز المناعة، ثم عرضوا للنحل الاختيار بين زهور زرقاء وأخرى صفراء لكن لوناً واحداً كان يحوي رحيقاً، وفي نهاية المطاف أمضى كل النحل وقته في التغذية من الزهرة الصحيحة لكن النحل المحفز استغرق زمنا أطول

10 بالمئة ليصل إلى تلك النقطة مما يظهر أن استجابة المناعة النشطة عند المرض تؤثر في الذاكرة.

وفي موازاة ذلك تجرى أبحاث ودراسات لمعرفة الأثر الحقيقي لبعض مبيدات الآفات على النحل وطريقة تفاعله معها بهدف اختيار أفضل أنواع النحل التي تتكيف مع هذه الطفيليات ومع الإجهاد البيئي أيضاً، من خلال التركيز على علم الوراثة لمعرفة أي جينة تنشط بفعل الاجهاد والمرض والطفيليات الحشرية.

مقاوم في جو قاتم

ووسط هذا الجو القاتم، برز أمل أمام العلماء من فرنسا حيث اكتشفوا نوعاً من النحل مقاوماً للأمراض. وأعلن فريق البحث أن النحل في آفينيون (غرب فرنسا) لا يقاوم الطفيليات فقط بل جميع الأمراض على رغم أنه لم يتلق علاجاً ضد أي من هذه الأمراض، أو ضد أي من هذه الطفيليات.

ويتركز عمل العلماء على معرفة السبب الذي يجعل هذا النوع من النحل يعيش بينما تموت أنواع أخرى، لكن الحل النهائي ما زال بعيد المنال ويسعون الى تحقيقه خلال سنوات ثلاث من خلال تربية نحل مقاوم.

أسرار النحل

كشف الباحثون كثيراً من أسرار النحل، إذ تبيَّن لهم أن للنحل إبر وخز في ذيولها، وأنه شديد الدقة في بناء بيوته ويرقص للاتصال والتحاور بعضه مع بعض وينجز كل ما يحتاج عمله في الحياة في نحو 6 أسابيع. وللنحل أيضاً حاسة شم حادة، وذاكرة حادة إذ يمكنه أن يتذكر المكان الذي تناول فيه آخر وجبة. أما مخ النحل فحجمه بحجم حبة سمسم، ويعتمد على مدى صغير من المركبات لتصنيف روائح الزهور، إذ يمكن مستقبلات الروائح لدى النحل أن تكتشف حتى أصغر جزيء للرائحة في الهواء.

أفادت دراسة بأن إشعاع الهاتف الخلوي يؤثر في قدرة النحل على التنقل وموجاته تؤثر سلباً في حركتها الملاحية

والنحل يستطيع التفرقة بين مئات الروائح المختلفة وأيضاً معرفة ما إذا كانت الزهرة تحمل لقاحاً أو رحيقاً من خلال شم رائحتها على بعد أمتار، وهو يمكن أن يبحر من خلال الرائحة واللون والمسافة. وتثير الرائحة أيضاً لدى النحل ذكريات ملاحية عن المكان الذي يذهب إليه وما هو لون الزهور.

وأفادت دراسة حديثة بأن ملكة النحل ليس لها كلمة الفصل في القرارات التي تتخذ، بل تكون للعاملات الأكبر عمراً اللاتي تعطي إشارات معينة لها ولبقية الرعايا وذلك وقت ما تريد.

لكن هذا العالم المنظم والجميل مهدد فعلاً بنتائج خطيرة ما لم يرس العلماء والباحثون على سبب واحد يجمعون على أنه وراء تناقص النحل، خصوصاً أن كل سبب من الأسباب التي أعلنوها جاء من ينفيه مستنداً إلى دلائل علمية أيضاً، بينما يواصل النحل رحلة موته التي لن تقضي عليه فحسب بل ستكون نتائجها مؤلمة جداً لكل الكائنات على وجه البسيطة وبخاصة البشر.

قصة ابتكار

الفازلين

لم تكن جميع المبتكرات في العالم نتيجة لتجارب واختبارات مخطط لها من قبل، فقد ظهرت الكثير من المبتكرات عن طريق المصادفة من غير سابق تخطيط. وربما من أشهر هذه المبتكرات العرضية هي مرهم «الفازلين».

كان الكيميائي روبرت شيسبرو واحداً من تجار الكيروسين الشباب والواعدين ومُني كغيره من التجار بخسائر فادحة عندما أخفق في توريد مادة العنبر إلى البلاد. وفي عام 1859م، قرر أخيراً أن يسعى وراء رزقه في الحقول النفطية في ولاية بنسلفانيا الأمريكية. وبعد جهود مضنية، حقق نجاحاً متواضعاً في ذلك.

لاحظ بعد فترة قصيرة من وصوله أن العمال في الحقول النفطية كانوا يشتكون من مادة شمعية مزعجة وسموها في ذلك الحين باسم «الشمع اللحائي». كانت المادة جيلاتينية جداً كالصمغ تتشكل على معدات الحفر وتلطخها، ولاحظوا أيضاً أنه على الرغم من الإزعاج الذي يسببه ملمسها الإنزلاقي، إلا أنها كانت تعجّل من تعافي الجروح والكدمات التي كانوا يتعرضون لها أثناء العمل.

شك شيسبرو في ماهية هذه المادة، فأرسل عينة منها إلى مختبره في بروكلين. وبعد دراسات وتجارب، استطاع عزل المادة عن البترول الاعتيادي، ومن ثم شرع في إجراء الاختبارات عليها وأخضع نفسه لكل أنواع الجروح والكدمات والحروق وعالجها بالمادة النفطية العجيبة، والمذهل أن كل جروحه كانت تلتئم في وقت قياسي.

ولإضفاء صفة تجارية على ابتكاره المذهل، أطلق شيسبرو اسم «فازلين» (المأخوذة من كلمتين هما «فازر» الألمانية وتعني الماء، و«إلاين» الإغريقية وتعني زيت)، وبدأ في عمل استعراضات فردية في الشوارع ليشرح للناس القدرات العجيبة لمنتجه، بعد أن رفضت الصيدليات ترويج المنتج له، وكان لا يتورع عن جرح أو حرق نفسه بالنار أو بالمحاليل الحامضية أمامهم ويضع المادة على الجرح! ونجح في بيع زجاجة من المنتج في كل دقيقة. استخدم الناس المادة في كل شيء تقريباً بدءاً من تنظيف الاحتقانات الأنفية إلى تنظيف الأثاث. وفي نهاية القرن التاسع عشر، أصبح شيسبرو من أغنى الأغنياء وبدأ يحتل أسواق أوروبا بمادته هذه.

وفي عام 1870م، افتتح أول معمل لتصنيع الفازلين في نيوجيرسي الأمريكية وفي عام 1872م، تسلّم شيسبرو رسمياً شهادة ابتكاره لهذه المادة الأمريكية الصنع بامتياز. ومن ثم أنشأ عدداً من المعامل الأخرى في بتسبرغ وبنسلفانيا ولندن وبريطانيا. وفي عام 1882م، تسّلم شيسبرو، لكونه مواطناً بريطانياً، وسام الفرسان من الملكة فيكتوريا تكريماً له على ابتكار هذه المادة التي كانت تستخدمها الملكة يومياً.

عاش شيسبرو حتى الـ 96 من عمره، واعترف قبل وفاته في عام 1933م بأنه كان يلتهم ملعقة من الفازلين كل يوم ولسنوات عدة. ويشير أحد المصادر إلى أنه كان يعاني من مرض ذات الجنب (التهاب الغشاء المحيط بالرئة) وكان يطلب من ممرضته أن تدلكه من رأسه إلى أخمص قدميه بالمادة، وشفي من المرض بعدها بسرعة.

قصة مبتكر

د. طاهـــر الجـمـل

جميع المتعاملين مع المتصفحات والأجهزة الرقمية كالحواسيب وأجهزة الهاتف المحمول لا بد أن يعرفوا مَن هو الدكتور طاهر الجمل. هو واحد من أهم علماء التشفير في تاريخ الإنترنت فهو مخترع بروتوكول التشفير SSL، المسؤول عن تأمين البيانات السرية المستخدمة على الإنترنت، وتقنية التوقيع الرقمي.

ولد د. طاهر الجمل في القاهرة عام 1955م في أسرة ميسورة الحال، كان والده مسؤولاً كبيراً في وزارة الصحة وله من الأخوة ثلاثة، ويقيم حالياً في الولايات المتحدة الأمريكية. كان مولعاً بالرياضيات والخوارزميات في طفولته ومراهقته ويكره اللغويات وكتابة المقالات والمسائل الأدبية. نال شهادة البكالوريوس في العلوم من جامعة القاهرة في عام 1977م، وشهادتي الماجستير والدكتوراة من كلية الهندسة الكهربائية في جامعة ستانفورد في عامي 1981 و1984م، على الترتيب. كان أخوه الأكبر يشجعه للالتحاق بجامعة ستانفورد لكونه متخرج فيها هو الآخر. وهناك تعَرف مصادفة بمارتي هوارد الذي كان يترأس القسم الذي كان يدرس فيه الجمل. وكان هاورد مشهوراً في علم التشفير. وسأله الجمل إن كان يريد أحد الطلاب أن يعمل معه، فقبل هاورد. وهنا بدأت رحلته مع عالم التشفير. كان هاورد يعطي الجمل العديد من المعادلات الرياضية التي لا حل لها، وفي كل مرة كان الجمل ينجح في حلها إلى أن بدأت تتولد لديه فكرة يسميها العالم اليوم باسم: (Discrete Quadratic Log Algorithm) التي تستخدم في إيجاد الخوارزميات والأعداد الصحيحة. وقاده ذلك للحصول على براءة اختراع بنظرية تشفير خاصة ومن هنا أصبح معروفاً في ذلك المجال للحكومة الأمريكية. التحق الجمل بالكادر التقني في مختبرات هيوليت هيلمان في عام 1984م وعندما تخرج في السنة نفسها، لم يكن أحد مهتماً بما توصل إليه وعمل في شركة HP في مجالات ليس لها علاقة بالتشفير كالصور والرسم الجرافيكي.


Wikipedia

بعد ذلك التحق بمختبرات Hewlett-Packard وفي العام 1988م، عرض عليه رئيسه في العمل الانضمام إلى شركته الجديدة فترك منصبه في HP، وانضم إلى تلك الشركة باعتباره مؤسس InfoChip الثالث من العام 1988م. لم يكن الجمل تاجراً بل كان شخصاً تقنياً لا يفهم إلا في الخوارزميات ولكنه اكتسب المعرفة في عالم إدارة الأعمال من خلال تعرّفه إلى كيفية إدارة الشؤون الهندسية. لم تحقق تلك الشركة نجاحاً تجارياً فقرر بيع نصيبه في العام 1991م إلى شركه سيركس بولاية تكساس وبعد ذلك التحق بالعمل في شركه RSA، والطريف أن تلك الشركة طوّرت نظام تشفير خاص بها لينافس نظام التشفير الخاص بطاهر الجمل!

وكان هذا العالم كبيراً للعلماء في مؤسسة نيسكاب للاتصالات من 1995 إلى 1998م حيث كان وراء ابتكار تقنية التشفير (SSL) العالية التعقيد. واحتل منصب مدير المهندسين في مؤسسة RSA للأمن قبل تأسيس شركة Securify ومن ثم أصبح رئيسها التنفيذي. وعندما استحوذت Securify على شركة كرول-أوجارا، أصبح رئيساً لمجموعة أمن معلوماتها.

وفي العام 2009م حصل د. الجمل على جائزة الإنجاز مدى الحياة lifetime achievement award نتيجة لاختراعاته العديدة في مجال معايير الأمن للشبكات.

اطلب العلم

تتنافس الشركات المنتجة للمكملات الغذائية على تقديم أنواع مختلفة وجديدة كل يوم من منتجاتها، وتنفق مبالغ طائلة على الحملات الترويجية لتسويق الأحدث والأكثر فاعلية والأكثر فائدة، في عالم المكملات الغذائية الذي يكاد يكون أحدث موضة لدى من يتهافتون على الغذاء الصحي والجسم السليم المتناسق.

وتبذل هذه الشركات أقصى طاقاتها الإبداعية لإقناعنا بأهمية المكملات الغذائية في حياتنا، حتى تكاد تشعر أنك ستمرض إن لم تتناولها، فتقف مذهولاً أمام عبارات تحولت لدينا إلى حقائق تقولها له حسناوات رياضيات وشباب مفتولي العضلات بأن هذه العلبة التي تحتوي على مجموعة فيتامين تمنح الشخص الحيوية، وتبعد عنه شبح الشيخوخة، وتزيد من طاقته الجسدية والجنسية والذهنية أيضاً. إضافة إلى الوقاية من مختلف الأمراض بما في ذلك الأورام

المكملات الغذائية أهي علاج أم صرعة ؟

السرطانية وأمراض القلب والأوعية الدموية وغيرها، وتحقق هذه الشركات بالفعل أرباحاً خيالية من جرَّاء نجاح حملاتها الترويجية والإقبال المتزايد على المكملات الغذائية.

فأصبح تناول المكملات الغذائية يتزايد من قبل الأفراد بصورة عامة ومن قبل الرياضيين بصورة خاصة بهدف رفع مستوى أدائهم، فبحسب دراسة أمريكية إن أكثر من نصف الشعب الأمريكي استخدم أو يستخدم المكملات الغذائية ويتم إنفاق ما يزيد على الـ 6 بلايين دولار سنوياً عليها.

وتعرِّف هيئة الغذاء والدواء الأمريكية المكملات الغذائية بأنها منتج يؤخذ عن طريق الفم، يحتوي على عنصر غذائي أو أكثر يقصد به تدعيم النظام الغذائي للفرد ويشتمل على أحد المكونات التالية أو أكثر «الفيتامينات، المعادن، الأعشاب أو مشتقات النباتات الأخرى، الأحماض الأمينية، وحدة البناء الأساسية في البروتين، الأنزيمات أو أنسجة الأعضاء أو الغدد، منتجات عملية الأيض».

لذلك فإننا نرى المكملات الغذائية في الأسواق، الصيدليات، محلات العطارة وعلى مواقع الإنترنت وحتى عبر الإيميل بأشكال وأنواع مختلفة وجاذبة، خاصة في ظل انتشار الأطعمة السريعة الضارة وطرق الطبخ غير الصحية ونمط الحياة السريع الضار على أسلوب التغذية السليم، ما أظهر نقصاً في أنواع مختلفة من الفيتامينات لدى العديد من الأشخاص حتى الأطفال ما قبل السنة الأولى من حياتهم.

فتناول المكملات الغذائية لا يعني التوقف عن تناول الغذاء الصحي والمتنوع، لأن الشخص وإن حصل على عدد محدود من المكونات الغذائية من هذه المكملات إلا أن الغذاء الصحي المتنوع يحتوي على مئات من المكونات الأساسية لبناء جسم صحي.

فالأصل هو الغذاء الصحي والمتنوع بلا منازع الذي يغني عن تناول المكملات الغذائية التي قد يصل تركيز بعض المواد فيها إلى مستوى ضار بالجسم، فبعض المكملات الغذائية مفيدة لكن بشرط استشارة الطبيب أو الصيدلي أو أخصائي التغذية.

الشيء الأساسي الذي يجب معرفته هو أن المكملات الغذائية، على عكس الأدوية، لا تستخدم لعلاج أو منع أو تشخيص أو القضاء على مرض معيَّن، بالتالي لا يجوز الادعاء أنها على سبيل المثال تعالج أمراض القلب أو تنهي التهاب المفاصل، وإن وجدت مثل هذه الادعاءات فهي تخرج من إطار المكملات الغذائية وتندرج تحت إطار الأدوية. فوجود عبارات مثل «علاج كامل وسريع» أو «آمنة ولا يوجد مضاعفات» يجب أن تجعلك تشك في مصداقية الشركة المصنعة.

فإذا كانت المكملات الغذائية غير نافعة فهل هي ضارة؟ الجواب نعم، فهناك الكثير من المواد من الممكن أن يكون لها تأثير سلبي على الجسم خصوصاً إن وجدت بتركيز مرتفع، ويجب التأكيد على أنه لا يعني إذا كان المنتج مصنَّعاً أو مستخرجاً من مواد طبيعية أنه غير ضار بالجسم، يجب أن تتذكر دائماً أن السلامة والأمان أولاً والفاعلية ثانياً.

قبل البدء في تناول أي مكمل غذائي يجب عليك أن تسأل نفسك عدداً من الأسئلة: ما هي فوائد هذا المنتج؟ هل أحتاج إليه؟ ما هي مضاعفاته الجانبية؟ ما هي الجرعة الموصى بها؟ كيف ومتى وما هي المدة اللازمة؟ وحتى تعرف يجب أن تعلم طبيبك وتسأله عن رأيه وتقرأ النشرة المرفقة لمعرفة بعض الحقائق عن المكمل الغذائي مثل المكونات وتركيز المادة الفعالة وعن أي مواد مضافة والجرعة الموصى بها التي من الممكن أن يتم تعديلها حسب رأي الطبيب ومن الممكن الاتصال بالشركة المنتجة للاستعلام عن أي معلومة تحتاجها.

وعند البدء في تناول المكمل الغذائي لا تحاول أخذ جرعة أكبر من الجرعة المعتمدة، وإذا حصلت أي مضاعفات جانبية فيجب عليك إيقافه مباشرة وإخبار طبيبك وإبلاغ الشركة المنتجة، فالمشكلة حالياً تكمن في أن الدليل العلمي متوافر فقط لبعض المكملات الغذائية حول مدى فائدتها أو ضررها على الجسم.

فإذا قررت تناول المكمل الغذائي فيجب ألاَّ تتهاون في بعض الحقائق وهي: الشروط اللازمة للتأكد من سلامة المكمل الغذائي ومنع التلوث والتغليف الصحيح وحددت الحد الأعلى والأدنى للتركيز وتقوم بجولات تفقدية دورية للمصانع للوقوف على سلامة الإنتاج، فاللافت أنه لا يتم التحقق بشكل ملائم من سلامة وفعالية المكملات الغذائية من قبل الجهات المعنية قبل طرحها في الأسواق.

بالرغم من أن الفيتامينات تلعب دوراً مهماً في العمليات الحيوية في الجسم، إلا أن الإكثار منها يعرض الجسم للمضاعفات، وأغلبها يمكن الحصول عليها بشكل كاف عن طريق الطعام الصحي والمتنوع والذي يحدد الحاجة لهاً من عدمها هو الطبيب أو أخصائي التغذية.

فأحياناً تكون المكملات الغذائية ضارة عندما تحتوي على مكونات ذات تأثير بيولوجي قوي في جسم الإنسان، وتسبب ضرراً أو تضاعف المشكلة عند الشخص، كما هو الحال عند استخدام المكملات الغذائية مع الأدوية الطبية، أو استخدام المكملات الغذائية بدلاً من الأدوية الموصوفة من الطبيب كالتداوي بالأعشاب أو تناول جرعة عالية من المكمل الغذائي.

سامي الحلاق



الفاصل المصوّر

أيمن يسري ديدبان

قبل أن أكون وبعده

يقول: «أنا أي شيء
أنا كل شيء»

هكذا يقول!
أراد أن يشكو تشرده
لجأ إلى العلم.
أخذه بين يديه.

التحفه كما يلتحف
النائم القلق لحافاً.
غطى به رأسه،
ثم جعله تحت إبطه.
شده إلى الأمام،
ثم ألقاه إلى الخلف.
جمعه بكلتا يديه
ضمّه وتقلّب به،
ثم أزاحه.
ثم أعاده وغار فيه.

خاطبه ثم أسكته.
عنّفه ثم راضاه.

وحين لم يُجب
ولم يتجاوب

نحته من أي شيء
نحته من كل شيء.

ك.ح.

















أيمن يسري ديدبان

فنان فلسطيني الأصل يعيش في المملكة،
اتخذ من تشكيل علم فلسطين موضوعاً
أساسياً في مساره الفني.
التعبير الوارد ضمن مزدوجين له.

تصوير: بركان قاوقجي وماجد المالكي.

قبل أن يجيء الصبح

لن يستمتع الإنسان بقـراءة جريدة رقمية على جهاز، بقدر ما يستمتع بقـراءة صحيفة ورقية يحملها بين يديه، إلا يوم يكـون قد تحـوّل كائناً رقميـاً بشكل أو بآخـر. وربما هو في طريقـه لذلك دون أن يدرك. فحينئذ فقط سيكون بمقدوره الإحاطـة بكيان النشـرة الصحافية كامـلاً، وعلى التحكم بهـا وتقليبهـا تماماً مثل مـا يفعل الآن بالصحيفـة، مشبعاً شغفـه في الغور في ثنايا الخبـر أو إيقاعات الرأي. فهناك فارق حسي أو لمسي بين الاثنين: الورقة الكبيرة المطبوعة بحِبْرها وبنصوصهـا وعناوينها وصورها، واللوح الزجاجي القاسـي الصغير، يستحيل تجـاوزه أو إلغاء أثره. وهو فارق يؤثر فـي التعرف على الأخبار، ونـوع تلقّيها وإحساسه بها.

وهـو يندرج كذلك ضمن نظريّة الرسالـة في الوسيلة، هذه النظرية التـي تأخذ اليوم أبعاداً جديدة مـع تعدد الوسائل بشكل غير مسبوق.

لا شـك في أن القراءة الرقميـة -إذا جاز التعبير- أصبحت أمراً مسلّمـاً به. ونسبة كبيرة من القـرّاء، وربما كاتب هذه السطـور منهم، أصبحت هذه القراءة تشكّل حيزاً كبيراً من ممارسـة القراءة لديهم. ولا شـك أيضاً أن القراءة الرقمية قـد وفّرت مصادر قـراءة كان يستحيل على القراءة الورقية أن توفرهـا. لكن هذه الحقيقة الشاملـة، يجب ألا يسلّم بها دون مراجعـة وتفحّـص، وعلى الرغم من أنهـا تبدو حقيقة بيّنة لا تحتاج إلى برهان. فهي ميزة جديدة متعددة الفوائد، وفّرتها الحيـاة المعاصرة للإنسان. لكـن ونحن نفرح بهذه الميزة، بل ونتباهى، لا بد أن ندرك ماذا نخسر بالمقابل.

فالقراءة ليست بالتأكيد مجرد عيون وكلمات. وإلاّ لما كانت الحضـارة قـد أنتجـت كل هـذه الوسائل المختلفـة لتقديم الـكلام. الكتـاب والجريدة والمجلة والنشـرة. ومن الكتاب الصغيـر بحجـم كف اليـد، والكبير الذي ينبلـج عن صور أو خرائـط كبيـرة، ومـا بينهما مـن مقاسات ونسـب تبدأ ولا تنتهـي. وهـي بدورها في مئات أنواع الـورق يتم اختيار الأنسـب حسـب المضمـون. المصقـول اللمّـاع والمطفي والسميـك سماكـة لـوح الخشـب، إلـى الرقيـق رقة خيط الحريـر. ثم الورق غير المصقول الجاف وأحياناً الخشن. وتنـوع الورق هو فـي خدمة الكلام ومـا يصاحبه من صور ورسـوم وأي عناصـر بصرية أخرى. وهـو أيضاً في خدمة تنـوّع الأغلفة في المنشـورات التي يختلف غلافها عن ورق الداخـل. وكـم للغـلاف أحياناً مـن دور في تقديـم العمل وجذب النظر إليه.

والقراءة الرقمية بطبيعة الحال تلغي كل هذا الثراء الحسي -الذي لا يقف عند ما ذُكر- أو تلغي جزءاً كبيراً منه، وهذا الثـراء شكّل عبـر التاريخ الإنسانـي، ضرباً مـن التثقيف والتهذيـب والتأثير النفسي، أمـور تتطلبها الحياة المدنية ويحتاجهـا التقدم الحضاري. ويصبح كل هذا التنوع أسير اللوح الزجاجي الأملس موحّد المقاس.

إن هناك حالة نفي التنوع والخصوصية في هذا التطّور. أو على الأقل إلغاؤها كما نعرفها.

الخبر الذي أقرأه في صحيفتي المفضلة على الورق يختلف عنه حين أقرأه رقمياً، حتى ولو في نفس الصحيفة.

ملاحظـة الأخبار التي تهمّنـا تختلف، النظـر إلى الصور التي تلفت نظرنا يختلف، الخلاصة الذهنية والنفسية التي آخذها حين أطوي الصفحة الأخيرة تختلف.

لديك صحيفة ولديك لوح. هيا قارن بينهما صباح الغد.

كميل حوا 

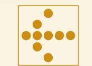


سلاح منزلي ذو حدين..
الصيدلية المنزلية

لا يخفى على أحد ما وصلتْ إليه الصيدلية المنزلية من درجة جعلتها أمراً لا غنى عنه في منازلنا، كما بات من المعروف لدى الكثيرين ما كان لتلك الصيدلية المصغرة من دور رئيس في إنقاذ حياة مريض ما، أو تقديم إسعاف أولي لآخر تارة، أو التخفيف من حدة داء مفاجئ ألمّ بجسمه تارة أخرى. لكن ماذا عن محتوى تلك الصيدلية؟، وما الذي يجب توافره ضمن رفوفها؟، وهل هي الأدوية فقط ما يجب أن تضمّه الصيدلية المنزلية المثالية؟، أو أنّ عناصر أخرى يجب أن تضاف إليها لتقديم خدمة أفضل عند الحاجة إليها؟، وما شروط تنظيم خزانة كتلك؟، وأيّ مخاطر كامنة قد تحملها، لتجعل منها سلاحاً ذا حدين يفيد حيناً ويؤذي حيناً آخر؟ الدكتور حذيفة أحمد الخراط يحاول في هذه المقالة الإجابة عن هذه الأسئلة.

صور المقال: shutterstock





ثمة قائمة طويلة من الأدوية التي يجب أن يجدها كل شخص في صيدلية منزله حين ظهور الحاجة إليها، وقبل أن نسرد عناصر تلك القائمة، ننوه إلى أهمية الوعي التام بما سيتمّ تناوله من أدوية، ومعنى ذلك عدم التهاون بتناول دواء من غير مشورة طبيب، وعدم الاعتماد على عنصر الحدس أو التخمين في تشخيص مرض ما ووصف ما يناسبه من علاج.

في رأس قائمة أدوية الصيدلية المنزلية تأتي مسكنات الألم بأنواعها وأسمائها المختلفة، وهي عنصر مهم لا غنى عنه في منازلنا، فأجسامنا عُرضة لمطارق الألم التي قد توجّه سهامها نحونا في أيّة لحظة، فلا مفرّ إذن من احتواء صيدليتنا المنزلية على أقراص مادة الباراسيتامول أو الأسبرين، تحفظاً من وقوع ألم طارئ أو دخيل.

وللعديد من مسكنات الألم تلك استخدام مهم آخر، ويظهر ذلك في معالجة الحمّى وخفض درجة حرارة الجسم، ويزيد هذا من أهمية توافرها في كلّ منزل، ولا سيما في حال وجود الأطفال، فهم الفئة العمرية الأكثر تعرضاً لمخاطر الإصابة بالحمّى، وتتوافر الأدوية المخصصة لهؤلاء، في صورة شراب فموي، أو تحاميل تؤخذ عبر المستقيم.

ومما يجب توافره من أدوية في رفوف الصيدلية المنزلية أيضاً، ما يستخدمه المريض بصورة مستمرة، كأدوية علاج الأمراض المزمنة مثل ارتفاع ضغط الدم، والداء السكري، والربو، وغيرها، وتقتضي الحكمة هنا أن يقوم المريض بتأمين حاجته من تلك الأدوية، وألا يتأخر في توفير ما ينقصه منها، إذ إنّ إهمال هذا الجانب يعني تأخر الجرعة الدوائية، وقد يترتب على ذلك ضرر صحي كبير، يتبع ظهور مضاعفات تلك الأمراض.

ومن أدوية الصيدلية المنزلية التي قد يحتاج إلى استخدامها بعض المرضى نذكر على سبيل المثال، الأدوية المخصصة لعلاج الكحّة، وتوجد في صورة أقراص أو شراب، وتقوم بتهدئة السعال، وتخفيف ما يصاحبه من مفرزات، وتذكر كذلك الأدوية المضادة للحموضة Antacid ذات الدور المهم في تخفيف حدة إفرازات المعدة التي تعطي شعوراً حارقاً، وبخاصة لدى مرضى القرحة الهضمية، وتطرح الشركات المصنعة هذه الأدوية في صورة أقراص ومحاليل فموية.

أما أقراص المضاد الحيوي بأنواعها المختلفة، فيجب استخدامها ضمن شروط دقيقة، ووفقاً لوصفة دوائية، ويُجانب الصواب من يهرع فيستخدمها من غير مشورة طبية، وقد أدى تعاطي تلك المواد بصورة عشوائية، إلى ضعف تأثيرها في مقاومة بكتريا الجسم، والأخطر من ذلك ظهور العديد من سلالات البكتريا المقاومة للدواء، والتي تستدعي وصف مضادات حيوية أقوى من سابقتها والتي غدتْ ضعيفة وعديمة الأثر.

وللمراهم الجلدية حضور قويّ في الصيدلية المنزلية، ولا بدّ من توافر العديد منها، وبخاصة مراهم المضادات الحيوية المستخدمة لعلاج ما قد يتعرض له الجلد من التهابات طارئة، ومن أمثلتها: مرهم فوسيدين Fusidic acid، ومرهم جنتاميسين Gentamycin.



ومن المراهم المهمة أيضاً: المخدر الموضعي، ويستخدم لتخفيف حدة الألم الذي يظهر على الجلد لأسباب مختلفة كلسعات الحشرات والرضوض المختلفة مثلاً، ومنها المراهم المخصصة لعلاج الحروق، مثل (فلامازين) Flamazine، والمراهم التي تحوي مادة الكورتيزون ذات الاستخدام الشائع في علاج عدد من الأمراض الجلدية، وحالات الحساسية، وما يتبعها من ظهور أعراض كالحكة. ولا غنى أيضاً عن وجود المراهم المضادة لنمو الفطريات، وبخاصة في حال وجود أطفال صغار السن في المنزل، إذ تفيد تلك المراهم في معالجة ما قد يشكو منه هؤلاء من حدوث التهابات جلدية وطفح في منطقة الحفاظات.

المحتويات غير الدوائية

ثمة عناصر أخرى غير دوائية، يجب أن تحتويها رفوف الصيدلية المنزلية، ولكلّ منها أهميته وفائدته، فلا بدّ من وجود الشاش المعقَّم أو القطن على سبيل المثال، لتنظيف الجروح الجلدية وتغطيتها، وتستخدم هنا محاليل معقمة ومطهرة مختلفة، كمحلول (ديتول) أو (سافلون) وما شابههما، ويخدم الغرض نفسه ما يعرف بالمسحات الطبية التي تحوي مادة الكحول. ومن اللازم أيضاً استخدام شريط لاصق يثبّت ذلك الشاش في مكانه، ويضمن عدم كشف الجرح، ويتبع ذلك بالضرورة وجود مقص صغير يأخذ به المسعِف حاجته من الشاش والمواد اللاصقة، للمساعدة في إتمام عملية تضميد الجروح المكشوفة.

ويفيد في حالات الإصابة بتلك الجروح أيضاً، استخدام قفازات مطاطية معقمة يقوم المسعِف بارتدائها قبل مباشرة عمله في تنظيف الجروح وتغطيتها، وتقي تلك القفازات كلاً من المصاب ومسعفه من انتقال العدوى بين الطرفين، كما تقلل من فرص تلوث الجروح.

ومن محتويات الصيدلية المنزلية أيضاً: المحاقن (السرنجات)، وتستخدم لتعاطي الأدوية حقناً بالوريد أو بالعضل أو تحت الجلد، ويجب هنا التشديد على أهمية استخدامها من قِبل شخص خبير بفنّ إعطائها، وقد يؤدي التهاون في ذلك إلى وقوع مضاعفات وخيمة لا يُحمد عقباها.

ومما يشيع حدوثه بين صفوف الأطفال من أمراض: التهاب اللوزتين Tonsillitis، ويستدعي تشخيصهما وجود ما يعرف بخافض اللسان، وهو في الغالب أداة خشبية تخفض لسان الطفل، وتكشف لعَين الفاحص ما يظهر من تضخم لوزتي الطفل نتيجة التهابهما، إلا أنّ استخدام أداة كتلك يتطلب بعض الخبرة، ولا يصحّ الاعتماد على تشخيص ذلك بمجرد التوقع أو التخمين.

ويعدّ مقياس درجة الحرارة (الترمومتر) من أهم ما يجب توافره أيضاً في كلّ منزل، وقد يكون هذا العنصر الأكثر أهمّية، وثمة أشكال مختلفة من هذا المقياس، فمنها ما يستخدم عن طريق الفم بوضعه تحت اللسان، وآخر عن طريق المستقيم، وآخر يوضع على الجلد مباشرة، وغير ذلك، وتتأكد أهميته أكثر في وجود أطفال في الأسرة، فقد تخفي الحمّى وراءها داءً التهابياً خطيراً، يكشفه ارتفاع مؤشر الحرارة، وليس من الحكمة الاكتفاء بتقدير درجة الحرارة بلمس جبين الطفل المحموم.

ولوجود أجهزة قياس ضغط الدم في صيدلية المنزل أهمية كبرى، وتزداد أهميتها في بيت مريض ارتفاع الضغط، الذي يحتاج إلى قياس ضغط دمه بصورة دورية تستدعي توافر ذلك الجهاز، وهناك عدد من أجهزة الضغط، ولها أشكال مختلفة، ومنها أنواع إلكترونية لا تتطلب الخبرة ممن يستعملها.

ومما ينصح به كذلك، توافر جهاز فحص السكر، وبخاصة إن كان في البيت مصاب بالداء السكري، وهذا يتطلب إجراء تحليل دوري لمتابعة وضعه الصحي، وإعلام طبيبه بما يستجدّ من أمور تستدعي ضبط جرعة ما يتناوله من الدواء، وتتوافر



فـي الأسواق أجهـزة مختلفة لقياس سكر الدم فـي المنزل، وتعتمد على فحص قطرة دم صغيرة من أصبع المريض غالباً.

وقد يحدث في بعض الأحيان، أن يتعرَّض أحد أفراد الأسرة لوخز شوكة أو ما شابهها مـن الأجسام الدقيقة، وقد يبقى جـزء صغير منها خلال الجلد، ويستدعي ذلك وجود ملقط صغير لسحب مثل تلك الجُسيمات الصلبة، وتسهم العدسة المكبـرة والمصباح اليدوي في تأميـن رؤية أوضح وإضاءة كافية تساعد في تلك العملية.

ومـن الأشيـاء المهمة أيضـاً، وجود مفكـرة صغيرة تحوي أرقـام الهواتـف الضرورية التي قد يحتـاج إليها أيّ منزل، كرقـم سيارة الإسعاف مثلاً، والمطافـئ، والدفاع المدني، والمستشفيـات القريبـة مـن المنـزل، وغيرهـا، وفي تلك المفكـرة يمكـن كذلـك تسجيـل الملاحظـات المهمـة، وتقديمهـا إلـى طبيـب الطوارئ في حـال نقـل مصاب ما إلـى المستشفـى، ومن ذلك مـا ظهر على جسـم المريض مـن أعراض وعلامات، ومـا تناوله المريض مـن دواء في المنزل، وما تمّ تقديمه من إسعافات أولية، وغير ذلك.

شروط صيدلية المنزل

ثمـة مواصفات مهمـة تضبط سلامة الصيدليـة المنزلية، وتقلـل من مخاطرها الكامنة، إذ يجب في البداية أن توضع هذه الصيدلية فـي مكان عالٍ، بغية ألا تطالها يد الأطفال، وفـي الوقـت نفسـه يجـب إبعادها عـن متنـاول المرضى النفسيين ومرضى الأمراض العقلية، نظراً لقلة وعي هؤلاء بما تحمله محتويات الصيدلية من مخاطر.

والصيدلية المنزلية المثاليـة ذات حجم كبير، يتيسّر معه ترتيب مـا فيها من الأدوية المختلفـة، ويأخذ فيها كلّ دواء مكانـه بوضـوح، مما يسهّـل عملية العثور علـى ضالتنا من الدواء، إذ ثمة رفّ خاص بالأدوية السائلة، وآخر للأقراص، ورفّ للمراهـم، وآخـر للشاش والقطن والأربطـة، وغيره لـلأدوات المعدنية المختلفة، وتُحفـظ كلّ تلك المحتويات خلف باب محكم الإغلاق.

ومـن أهـمّ مـا يُذكـر مـن ضوابـط الصيدليـة المنزلية، متابعة تاريـخ صنع الأدوية بغية التخلص من الأدوية ذات الصلاحيـة المنتهية، التي تتحوّل فيها المـادة الفعالة إلى سمّ ضار، وفي حال تغير رائحة الدواء، أو ظهور طعم غريب فيـه، أو تغير شكله ولونه، فيجب التخلص منه فوراً، وإن لم تنتـه صلاحيتـه بعد، وهنـا لا بدّ من وضع تلـك الأدوية في حاويـة محكمة الإغلاق، والتخلص منها بأسرع وقت، خوفاً من أن تصل إليها يد الأطفال.

ويجـب وضـع الصيدليـة المنزلية في مكان جـاف بعيداً عن عوامـل الرطوبة والحـرارة المرتفعـة التي تؤثر فـي سلامة أدويتها، نتيجة تحلل المادة الدوائية وفسادها وتغير خواصها الدوائية، مما ينتج عنه ظهور مركبات سامّة فيها، ويعني ذلك إذن عـدم صواب وضـع تلك الصيدلية في مطبـخ المنزل أو فـي دورة المياه، ويفضّل كذلك أن تعلّق في مكان ذي إضاءة خفيفـة، إذ إنّ بعض الأدويـة قـد تتفاعل مع أشعـة الشمس المباشرة والإضاءة القوية، فتفسد وتتغير خواصها الدوائية.

ويشترط أيضاً أن تكون العُلب الحاوية للدواء محكمة الغلق، وأن يكـون اسم الدواء مدوّناً عليهـا بوضوح، ويقتضي ذلك التخلص من الأدويـة المجهولة الهوية، وعدم وضع دواءٍ ما فـي علبة دواءٍ غيره، حتى لا يحدث لـبس أو خطأ، ولا مجال هنـا للمخاطـرة أو المجازفة بتنـاول دواء غير موثوق، فقد يكون إجراء كهذا قاتلاً في بعض الأحيان.



التسمم بالأدوية المنزلية

يُعدّ التسمم بأدوية الصيدلية المنزلية واحداً من أكثر المخاطر تهديداً للحياة في بيوتنا، وبخاصة لدى الأطفال، ولا شك أنّ اتساع محيط دائرة ما نتعاطاه من الأدوية في منازلنا يكبر شيئاً فشيئاً، ومصانع الدواء تضخّ أصنافاً دوائية جديدة بين فينة وأخرى، وهذا يجعل من تلك الظاهرة المرضية مشكلة نامية الأطراف. وتحدث حالات التسمم الدوائي عندما يتناول المصاب دواءً ما، بجرعات تفوق الحدّ العلاجي الموصى به، فتظهر بذلك تأثيرات جانبية في الجسم، قد تهدد الحياة أو تسبب مضاعفات خطيرة في أجهزة الجسم المختلفة، والضحية هنا في الغالب طفل يتناول الدواء جهلاً منه بخطورة ما يفعل، وقد يظنه بألوانه الزاهية حلوى يستلذ لمذاقها، أو قد يتناوله لفضول وحبٍ للتجربة، أو من باب تقليد الآخرين. وثمة من جهة أخرى تسمم دوائي مقصود Intentional poisoning، وهو لدى الكبار أكثر، وضحيته هنا على علم سابق بخطورة ذاك الدواء، إلا أنه يعمد إلى تناوله رغبة منه في إلحاق الضرر بجسمه، ومحاولة الانتحار. وتخضع ظاهرة التسمم بالأدوية إلى بعض العوامل الاجتماعية، وتشير الإحصاءات الخاصة بهذه الظاهرة إلى أنّ عدد الحالات المسجلة بين صفوف الإناث أكثر من شبيهاتها لدى الذكور، وهي لدى العائلات الفقيرة أكثر، ولا سيما تلك التي تشكو من مشكلات التفكك الأسري، والطلاق، والضائقات المالية، والتعثر الدراسي.

تبعات التسمم الدوائي في جسم الإنسان

يتباين ما يظهر في أجسامنا من تأثيرات تتبع ما نتناوله من أدوية، ويعتمد ذلك على تفاعل المادة الدوائية مع أنسجة الجسم، وعلى قدرة تلك الأنسجة على تخفيف الأثر السمّي لذلك الدواء، وتحمل الأدوية بين طياتها تأثيرات سمية بالغة الخطورة إن زاد تركيزها في الجسم، ففاق الجرعة الدوائية المطلوبة.

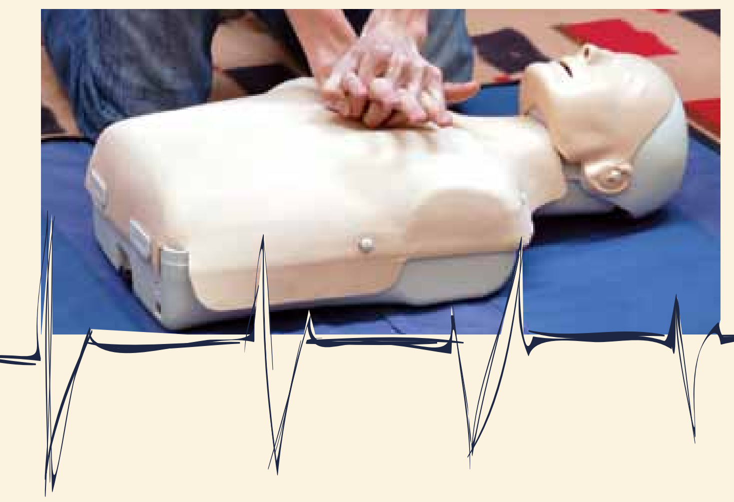
يظهر التأثير السمّي الأولي في معظم حالات التسمم الدوائي، وتبدو نتيجة لذلك أعراض مرضية غير نوعية، كالحمّى، واضطراب التنفس، وارتفاع ضغط الدم أو انخفاضه، وظهور بعض الأعراض العصبية. وثمة تأثيرات سمية أخرى تستهدف لاحقاً العديد من أجهزة الجسم، ويختلف ذلك بحسب الدواء المستعمل، فهناك على سبيل المثال أدوية يؤدي التسمم بها إلى ظهور أعراض تخصّ الجهاز الهضمي، وأخرى تؤذي الكلى، وأخرى تؤثر في صحة الجلد، أو الكبد، أو الدماغ، وغير ذلك من الأعضاء، فالمريض المتسمم بأقراص الأسبرين على سبيل المثال تظهر على جسمه أعراض عديدة، كطنين الأذن Tinnitus، والصمم المؤقت، وكثرة التعرق، واضطراب الرؤية، والتقيؤ، وقد يصاحب ذلك غيبوبة عابرة في بعض الحالات.

أما مادة (باراسيتامول) التي تطرحها شركات الأدوية تحت مسميات تجارية مختلفة مثل اسم (بانادول)، فتظهر على جسم المتسمم بها أعراض التقيؤ، والغثيان، وانخفاض درجة حرارة الجسم، واضطراب ضغط الدم، وفي حال تناول جرعات كبيرة يحدث فشل حاد في الكبد والكلى. ويؤدي التسمم بأقراص الفولتارين المعروفة إلى ظهور الغثيان، وألم البطن، والتقيؤ، والصداع، وطنين الأذن، أما أدوية مادة الحديد المستخدمة لعلاج حالات فقر الدم، فتَظهر على الجسم أعراض الإسهال، والتقيؤ الممزوج بالدم أحياناً، وألم البطن، وقد يلحق الدماغ بعض الضرر، وفي الحالات الشديدة قد تصاب الكلى والكبد بالفشل، وهذه المضاعفات قاتلة في كثير من الحالات.

معالجة حالات التسمم الدوائي

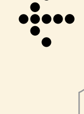
تطورتْ في الآونة الأخيرة وسائل تشخيص حالات التسمم بالأدوية ومعالجتها، وقلّتْ بذلك نسبة الوفيات والمضاعفات الصحية الناتجة عن تلك الحالات، إلا أنّ ذلك لا يعني زوال الخطر، فمصانع الأدوية لا تزال تضخّ الكثير من منتجاتها المختلفة في الأسواق بصورة مستمرة، مما يستدعي توخّي الحيطة والحذر الدائمين.

وتتفق المراجع العلمية على ضرورة الإسراع في إسعاف جميع مصابي التسمم الدوائي إلى أقرب مستشفى، دون النظر إلى حالتهم الصحية العامة التي قد تكون مستقرة أحياناً، فقد يبدو المريض طبيعياً في بادئ الأمر، فيتدهور وضعه الصحي لاحقاً، وقد يصل إلى مرحلة حرجة ومهددة للحياة. وفي المستشفى يجب شرح ما حدث لطبيب الإسعاف، وتعريفه بما تناوله المريض من دواء، والجرعة المتناولة، ووقت الإصابة، وما تمّ تقديمه من إسعاف أولي، وغير ذلك من معلومات تفيد في تقويم الحالة العامة، وتقديم ما يلزم من علاج.



وقد يلجأ الطبيب إلى تحليل بول المصاب، وهنا يلحظ ارتفاع تركيز الدواء في عيِّنة البول، ويفيد أحياناً سحب جزء من محتويات المعدة بغية تأكيد التشخيص، إذ يتم التعرف إلى بقايا الدواء المهضومة، التي تبدو مختلطة مع طعام المعدة، كما يرتفع تركيز المادة الدوائية في عيِّنة الدم المفحوصة. وفي الوقت نفسه يُقوّم طبيب الطوارئ وضعَ المصاب، ويشرع بتقديم ما يلزمه من إسعافات أولية، إذ يتمّ مراقبة العلامات الحيوية، وأهمها عملية التنفس، إذ قد تصاب بعض حالات التسمم الدوائي بضيق التنفس، الذي قد يستدعي تدخلاً سريعاً لإنقاذ حياة المصاب، ودعم تنفّسه عبر جهاز التنفس الصناعي.

ومما يراقب لدى ذلك المريض أيضاً: ضغط الدم، فانخفاضه أمر شائع في الكثير من حالات التسمم الدوائي، وقد يترتب عليه تبعات صحية ضارة في كلّ من الدماغ والكلى، ولقياس درجة حرارة الجسم أيضاً دور كبير في تقويم حالته العامة، ويجب المسارعة إلى تدفئة الجسم في حال انخفاض درجة حرارته، عبر استخدام الأغطية التي تحفظ حرارته، وتدفئة الأجواء المحيطة بالمريض، وقد يؤدي الانخفاض الشديد في درجة الحرارة بين صفوف الأطفال إلى إصابات قاتلة. أما مرحلة العلاج التالية فتهدف إلى البدء بتقديم علاج نوعي يهدف إلى تخليص الجسم مما علق به من السموم الدوائية المتناوَلة، وثمة وسائل عديدة تحقق ذلك، ومنها إجراء عملية غسيل المعدة Gastric lavage، التي يتمّ خلالها حقن معدة المصاب بسائل دافئ، يمتزج مع الأدوية في المعدة، ويتم بعدها سحب هذا المزيج نحو الخارج.



ثمة قائمة طويلة من الأدوية التي يجب أن يجدها منشدها في صيدلية منزله حين ظهور حاجة إليها

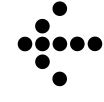
وهناك أدوية خاصة تشجّع على التقيؤ، وتُحدث لدى المريض شعوراً بالغثيان، وتحرضه على الاستفراغ، وتخرج بالتالي المادة السامة من معدته، مما يعني توقف عملية امتصاص الجسم لذلك الدواء. كما تتوافر في أقسام الطوارئ في المستشفيات، عقاقير تتحد مع المادة الدوائية في معدة المصاب، ممّا يقلل من امتصاص المعدة لها، ويأتي الفحم المنشط Activated charcoal في رأس قائمة تلك المواد.

الوقاية من مخاطر الصيدلية المنزلية؟

عرفنا إذن أنّ الصيدلية المنزلية سلاح ذو حدين، فمحتوياتها النفيسة لا غنى عن وجودها في منازلنا، وبات واضحاً الآن أنّ لها في الوقت نفسه مخاطر كامنة، تساعد في الوقاية منها وسائل عدة. ويكمن حجر أساس البرنامج الوقائي، في الحدّ من وصول الأدوية المنزلية إلى متناول يد الأطفال، ويتحتم هنا اتباع سياسات معيَّنة تضمن خدمة هذا الغرض، كالحرص على حفظ تلك الأدوية ضمن الصيدلية المنزلية، وعدم توزيعها في أماكن متفرقة في المنزل، ويجب أن تكون تلك الصيدلية في مكان بعيد أو مرتفع عن متناول يد الأطفال.

ويعدّ التثقيف الصحي أحد أهم الركائز الوقائية، ويهدف إلى توعية أفراد الأسرة بمخاطر الدواء، وما قد ينتج عنه من أضرار مختلفة، ولأولادنا علينا حقّ في ذلك بتوضيح مكمن الخطر، بأسلوب ذي عبارات مبسطة تقرب الفكرة إلى أذهانهم. ومن النصائح المهمة أيضاً، أن تستخدم لحفظ الدواء علُب محكمة الإغلاق، حتى لا يتمكن الطفل من فتحها بسهولة، وقد صمّمتْ بعض الشركات علباً تفتح بطريقة خاصة تصعب على الأطفال، وحبذا لو تقيدت باقي الشركات المصنّعة بذلك. وتسهم المراجعة الدورية لأدوية الصيدلية المنزلية في التخلص من الأدوية ذات الصلاحية المنتهية، وهذا يؤدي بالطبع إلى التقليل من عدد أدوية المنزل، والحدّ من احتمال تعرض الأطفال لمخاطر التسمم.

أما عن محتويات صيدلية المنزل من غير الأدوية، فيجب الانتباه إلى ضرورة مراقبة الأدوات المعدنية المختلفة كالمقصات والملاقط مثلاً، والحرص على تنظيفها باستمرار وتعقيمها جيداً، والتخلص منها في حال ظهور صدأ بها، ففي هذا الصدأ سموم ضارة، قد تلحق الأذى بما تلمسه من أنسجة الجسم المختلفة، كما يجب أيضاً الحرص على عدم وصول تلك الأدوات الحادة وغيرها من الأجهزة السابقة الذكر، إلى متناول الأطفال كي لا تلحق بهم الضرر، وحبذا لو وضعت في علب محكمة الإغلاق.



لا تحظى التوعية بالمسائل المالية في حياة أطفالنا بموقعها الطبيعي في حياتهم التعليمية وخاصة في المراحل المبكرة من أعمارهم. فهم يرون آباءهم وأمهاتهم يتجولون في الأسواق مستخدمين أموالهم المباشرة أو بطاقاتهم الائتمانية دون أن يعوا مصادر تلك الأموال أو يدركوا حجم المعاناة التي تواجهها الأسر لتأمين متطلبات الأبناء وضمان حياة كريمة لهم. الخبيرة التربوية مهى قمر الدين تناقش في مقالها أهمية تحميل الأبناء ومنذ سن مبكرة المسؤوليات المالية وتعلم أسس التفكير المالي بما ينطوي عليه من ادخار وتخطيط للإنفاق وفهم أكبر للخارطة المالية للعائلة.

كيف يدَّخرونه أو ينفقونه أو يستثمرونه؟

الأطفال والمال



هنالك العديد من الأمور المهمة التي لا تُعلَّم في المدارس وتقع مسؤولية تعليمها على كاهل الأهل. ومن تلك الأمور المهمة تعليم الأطفال كيفية التصرف في الأمور المالية.

فكم هم الأهالي الذين أدركوا، في مرحلة من المراحل، أنه ليس باستطاعة أطفالهم فهم العلاقة بين كسب المال وإنفاقه؟

إذ إن هنالك الكثير من الأطفال الذين يعتقدون بأن المال متوافر في المصرف بشكل دائم. لذلك يطلبون من أهاليهم الذهاب إلى المصرف لجلب المزيد من المال في حال رفض الأهل تلبية أحد طلباتهم بحجة أن ليس لديهم المال الكافي لذلك.

تقول لوري ماكي Lori Mackey مؤسسة شركة «الازدهار للأطفال» أو «Prosperity for Kids» إن تعليم الأطفال الدراية بالأمور المالية هو بنفس أهمية تعليمهم القراءة والكتابة. وتضيف تُعد تنشئة أطفال واعين من الناحية المالية لا يتعلق بالمادة، إنما هو مرتبط بتنشئة جيل أفضل وأكثر نجاحاً إذ إن التنشئة الصحيحة بالأمور المالية تشكِّل أداة مناسبة لتطوير مهارات الاستقلالية والقدرة على الحكم على الأمور بشكلٍ صحيح والإحساس بالمسؤولية.

إنها وسيلة لكي يصبح الجيل الجديد أكثر إسهاماً في العائلة والمجتمع. ويتعلق تعليم الأطفال الأمور المالية بتعليمهم بعض المهارات والقيم الأساسية. أما المهارات فتشمل مهارة توفير المال وتأجيل متعة الإشباع الفوري وكيفية العيش على ميزانية معيَّنة وطريقة الصرف بطريقة حكيمة ومتابعة مسار المال ومهارات أخرى. كذلك هنالك مجموعة من القيم التي تشكل الأساس لاكتساب تلك المهارات بشكلٍ صحيح، ومن هذه القيم أن المال هو الوسيلة لتحقيق الاستقلالية، وإن توفير المال الضروري، دون المبالغة في اقتصاده، وإن العطاء أمر مطلوب خصوصاً أنه جزء من تحمل المسؤولية ضمن العائلة، وإن المال هو طاقة يمكن استخدامها من أجل الخير والشر، و إن تقدير النعم والشكر عليها أمر أساسي.

ولكن قبل كل ذلك يجب أن يكون الأهل واضحين بالنسبة لعدة نقاط من أجل تعليم تلك المهارات وتلك القيم بشكل أفضل. على الأهل، أولاً، عدم الخوف من التحدث مع أطفالهم في الأمور المالية، فعلى الأهل أن يدركوا بأن هنالك أربعة أعداء للإدارة الجيدة للأموال وهي الوقت و الأصدقاء والإعلام والتسويق .كيف؟ الوقت لأنه في العائلات العصرية يعمل كلا الوالدين وينشغل الأولاد بأوجه النشاط المختلفة مما يقلل من كمية الوقت الذي



تمضيه العائلة سوياً! والأصدقاء بسبب الضغوط التي يمكن أن يمارسوها على أصدقائهم والإحساس بضرورة التباهي بهم. والإعلان والتسويق اللذان يؤثران على الأطفال ويدفعانهم إلى طلب أمور لم يكونوا ليريدونها أو ليعرفوا بها لولا وجودهما. والحل الأنسب هو توفير الوقت المفيد والملائم للدخول في نقاشات مع الأبناء وملء الفراغات في تفكيرهم بما يريده الأهل وليس بما يريده العالم الخارجي.

كما أنه غالباً ما يكون لدى الكبار قضايا معقَّدة وملتبسة بالنسبة للأمور المالية. لذلك، يؤجل الأهل الحديث عنها مع أطفالهم. ولكن لذلك الحديث أهمية كبرى إذ هنالك من يشبهه بإعطاء أطفالنا طعماً معيَّناً، لأنه يشكِّل الحصانة الكافية لحمايتهم من الرسائل المرسلة إليهم من الثقافة الخارجية والمبادئ التي يفرضها عليهم المجتمع بالنسبة للأمور المالية.

وإذا كانت القيم المالية واضحة ومعلنة من قبل الأهل، فسيكون من الأسهل عليهم تجنب الصدامات العائلية التي يمكن أن تنشأ عندما تتصادم طلبات وقيم الأبناء مع قيم الأهل. لنقل إن هنالك فتاة مراهقة تريد شراء بنطالاً من الجينز ذي ماركة معيَّنة وإن الوالد يعارض ذلك لأنه لا يريد أن يكون لدى ابنته الاعتقاد بأنها ستكون «شخصاً مهماً» بمجرد ارتدائها تلك الماركة المعروفة. وبدل الجدال معها يمكن للوالد مناقشة القيم التي تدفعه إلى اتخاذ قراره بالنسبة لذلك الموضوع. وبذلك يرفع المناقشة إلى مستوى أعلى ويذيب صراع القوة بين الأهل والأبناء ويساعدها على اتخاذ قراراتها بناءً على القيم المزروعة داخلها أكثر من الجري وراء ضغوط الأصحاب.

والأمر الثاني هو أنه يجب البدء بالحديث عن الأمور المالية باكراً لأن تعلم الأمور المالية هو، مثل تعلم اللغة، يمكن أن يكون سهلاً عندما يتم البدء به في عمرٍ مبكر.

تقول جولين غودفري Joline Godfrey في كتابها «تنشئة أطفالاً سليمين من الناحية المالية» أو «Raising Financially Fit Kids» أنه «على الأطفال تعلم بعض المهارات الأساسية المتعلقة بالأمور المالية قبل فوات الأوان» أي قبل أن يكبروا ويستقلوا بأنفسهم. وليست الفكرة هنا أن نثقل كاهلهم بالأمور المالية المعقَّدة ولكن أن نعلِّمهم بعض المفاهيم الأساسية.

أمـا القيـم التـي يجب علـى الأهل نقلهـا إليهم فـلا تتغير بتغيـر عمر الأطفال، ولكن مسـتوى فهمها يصبح أفضل مع تقدمهم بالعمر. ففي عمر مبكر يمكن إعطاؤهم مصروفهم ويُطلـب منهم تقسيمـه بين الإنفاق والتوفيـر وإعطاء قسم منـه كصدقة، وعلينا مكافئة أي سلوك يـؤدي به إلى توفير وإعطاء نسبة مُرضية منه.

Raising Financially Fit Kids

Joline Godfrey

أما في حال إنفاقـه فعلينا أن نفرض عليهم ضرورة انتظار موعـد المصـروف التالي في حـال أرادوا شـراء أي شيء، وذلـك مهما كان مدى ثراء العائلة لأنـه لا يجب علينا عزل الأطفال عن معرفـة حقيقة الدنيا التي بإمكانها حرمانهم مـن هـذا الثراء في وقـت من الأوقـات. وفي هـذا العمر المبكـر من المفيد تعليمهم التمييـز بين ما يريدونه وما يحتاجون إليه فعلاً.

أما فـي عمر المراهقـة المبكرة فمـن المفيد تشجيع الأولاد على اتخـاذ وظيفة بسيطة وهو الوقت المناسب لتعليمهم كيفيـة «ملاحقة المال» أي معرفة أين ذهب كل فلس أنفقوه، مما يعلمهم قيمة المال وأهميته.

القيم التي يجب على الأهل نقلها إلى أطفالهم لا تتغير بتغير عمر الأطفال ولكن مستوى فهمها يصبح أفضل مع تقدمهم في العمر

وفـي المراحـل المتقدمـة أي بعـد سـن السادسة عشرة يجب إشراكهم وإطلاعهم علـى حقيقة أوضاع الأهـل المالية حتى أنه يمكـن الطلـب منهـم المساعـدة فـي دفع بعـض الأقسـاط الماليـة قبـل أن يقفـزوا للعيش بمفردهم ويكون عليهم وحدهم عـبء سداد جميع أقساطهم المالية.

وفـي هـذه المرحلة بالـذات إذا مـا شعر الأهـل بأنهم هم أنفسهـم تنقصهـم الخبـرة والمعرفـة فـي إدارة أمورهم الماليـة لنقلها إلى أولادهـم، عليهم طلـب المساعدة من الآخريـن. إذ يمكن الطلب من أي شخص آخر تعليم ابنهم أو ابنتهـم كيفيـة موازنـة دفتر الشيـكات أو إنجـاز جدول بيانات على الحاسوب الإلكتروني مثلاً.

وهنالـك نقطة مهمـة أخرى هـي أن كلا الوالدين لن يكونا علـى نفس الموجة من التفكير عند تقديم أي نصائح مالية لأطفالهمـا، إذ إن إعطاء الأطفـال معلومات متضاربة حول كيفيـة الإنفاق والتوفير وجني الأموال والتصدق بها هو مثل محاولـة تعليمهم اللغة العربية، بينما يتحدث أحد الوالدين اللغة الإنجليزية والآخر اللغة الفرنسية!

وتبقـى نقطة أخيـرة وهي أنه علينا ألاّ ننسـى بأن للأطفال طباعـاً يولـدون بها، فالبعض منهـم يميلون إلـى الإنفاق الفائـض ويميل البعض الآخر إلى إدخـار المال والاحتفاظ بكل ما يحصل عليه منه.

لذلـك يبرز السـؤال التالـي: كيف نوفـر التعليـم المالي الأنسـب لكل منهم؟ والجواب هو أن الطريقة الأفضل هي بتعليمهم طبيعة المال وفوائد ادخـاره وإنفاقه واستثماره والتصدق به. بكلام آخر، لا يمكننا إرغامهم على التخلي عـن طباعهم الفطريـة، لكـن لا يمكننا أيضـاً مجاراتها بالكامـل. والبديـل هـو تعليمهـم التـوازن بيـن الإنفـاق والادخار والاستثمار.



صورة شخصية

هاني نجم..
جرَّاح يواجه النبض ويسابق الزمن



مسيرة حافلة للجرَّاح السعودي هاني نجم، بدأت بتفوقه في معهد العاصمة النموذجي ومرت بمراحل دراسية وأكاديمية وتخصصية كثيرة أوصلته إلى أن يصبح رئيساً لقسم جراحة القلب في مركز الملك عبدالعزيز بمستشفى الحرس الوطني في الرياض. شارك نجم في عدد كبير من المؤتمرات المتخصصة في جراحة القلب، وخلال سنوات قليلة نجح في تطوير قسم جراحة القلب للكبار ليصبح أحد المراكز الرائدة في المملكة والشرق الأوسط. حصد جوائز وأوسمة عليا عديدة وهو مستشار وعضو في عدد من الجمعيات المتخصصة. عبير الفوزان تقدِّم هنا صورة شاملة لهذا الطبيب النابه الذي لم يتردد في مباشرة حالات قلبية معقَّدة وأحياناً ميئوس منها، لكنه، وبعون من الله، ينجح في إنقاذ تلك القلوب لتعود إلى أهلها طيبة ومعافاة.

في حياتنا قرارات كثيرة من الصعوبة أن تتخذ فردية. فما بالك لو كان هذا القرار متعلقاً بأعز ما يملك الإنسان حيث يكون نبض حياته مرتبط به. فبمَنْ تثق لتُسلّم قلبك المتعب، أو قلب من تُحّب لإجراء عملية قلب مفتوح؟! من هو جراح القلب الذي يستطيع أن يقوم بالمهمة بأقل خطورة ممكنة إن لم تكن على أكمل وجه ممكن.

لا بد من التقصي والسؤال والبحث عمَّن يقوم بهذه المهمة الكبرى التي تتطلب صبراً، وجلداً، ودقة، وتركيزاً، ومعرفة، وخبرة، فهو القلب.

إن القلب ليس بالكائن الرومانسي البسيط كما يُصُور في رسائل الحُب، أو كما يُرسمُ على الورق شبيهاً بالتفاحة الحمراء الجميلة، إنه أعقد مما يتخيله الفنانون، وأهم وظيفياً مما يراه المحبون، فهو ليس سكناً مجازياً للأحبة فقط. إنه مضخة الحياة للجسم والعقل. عندما يُشق الصدر عنه تظهر ملامح الحياة جلية، ليكون الجراح وجهاً لوجه مع النبض، وحياة هذا الإنسان الذي غدا عمره ومستقبله وحياة من يحبونه مرهوناً بين يديه، بعد يد القدر.

الدكتور هاني نجم اختار مواجهة النبض الحقيقي، والوقوف وجهاً لوجه أمام القلب الحقيقي بشرايينه وصماماته وعضلاته. يراه وهو ينبض في القفص الصدري، فيلمس شيئاً لا يستطيع أقرب الناس لهذا القلب أن يمسه أو يستشعره. ولعل من المفارقات التي تبدو غريبة، بالنسبة للبعض، أن يكون هذا الجراح الذي يداوي القلوب بالمباضع والقص والربط والترقيع، ويعمل بيديه وعقله وبصره وكل تركيزه، كان بطل المملكة في التايكوندو منذ عام 1984م وحتى عام 1986م، وهذا يضاف إلى مزاياه كجراح ناجح حيث تساعده بنيته الجسمية الرياضية القوية على تحمل الوقوف الطويل والتركيز الشديد في غرفة العمليات.

نجم الجراحة

في حياة نجم، الذي أخذ من اسم عائلته دلالته، حيث أصبح نجماً في عالم جراحة القلب المفتوح، لا مكان للاسترخاء إلاَّ نادراً، فهو يخرج من غرفة عمليات ليدخل إلى أخرى، وربما عمل في غرفتين للعمليات في نفس الوقت.

فهو يسابق الزمن مع حالات ربما لا يسعفها الزمن! متخذاً في كثير من الحالات قرارات جرَّاح محنك، وذلك عندما يشق الصدر ويرى ما لا تستطيع أجهزة الكشف الوقوف عليه، فلربما رقّع صمام قلب المريض الذي دخل غرفة العمليات لتبديل الشرايين، وربما استطاع أن يرى انسداداً آخر لم تستطع القسطرة التشخيصية أن تقف عليه.

يتعلم فريقه منه الإخلاص في العمل والإتقان اللذين هما سر النجاح، وسرعة الإنجاز فعملية تبديل الشرايين التي قد تستغرق من جراحين آخرين ست إلى سبع ساعات، لا تحتاج من هاني نجم وفريقه سوى أربع ساعات بالإضافة إلى عمل آخر كترقيع صمام القلب أو تبديله. وكأنهم في سباق متقن مع النبض.

باستطاعتك أن تلمس في شخصية هاني نجم ذلك الهدوء الذكي الذي يتطلبه عمله الدقيق، وتلك الابتسامة الواثقة التي قلما تفارقه. يتحدث معك عن تفاصيل عملية القلب المفتوح التي انتهى منها للتو وكأنه لم يفعل شيئاً يستحق الوقوف عليه، ببساطة يقول لك: «الحمد لله بدلنا أربعة شرايين، ووجدنا ارتخاءً في الصمام وقمنا بترقيعه».

يتحدث عن الشرايين والصمامات وتفاصيل القلوب التي غدت جزءاً من تفاصيل يومه مثلما يتحدث طبيب الأسنان عن التركيبات والخلع!

نجاح مرهون بالتحدي

تقاس براعة الجراحين وتميزهم، عادة، بعدد العمليات التي قاموا بها ونسبة نجاحها، وسمعتهم أمام نظرائهم العارفين بالمهنة، وسيرتهم المهنية وشهاداتهم، وسبقهم في الإنجازات.

ونجم تميَّز في كل ذلك، حيث كان أول من زرع قلباً صناعياً مساعداً في البطين الأيسر في المنطقة في عام 2004م، في مركز الملك عبدالعزيز لأمراض القلب. وحاز كثيراً من الأوسمة لإنجازاته في داخل المملكة وخارجها، وبالرغم من صغر سنه قياساً بأعمار جرَّاحي القلب العالميين حيث ولد في الرياض عام 1962م، إلاّ أنه استطاع خلال فترة وجيزة أن يكون من أشهر جرَّاحي القلب في العالم.

يعمل، حالياً، رئيساً لقسم جراحة القلب في مركز الملك عبدالعزيز لطب وجراحة القلب في مستشفى الحرس الوطني بالرياض. وقد قام بتطوير قسم جراحة القلب للكبار حتى أصبح أفضل مركز متخصص في القلب، في الشرق الأوسط.

ويستقبل هاني نجم أشد الحالات تعقيداً، وأكثرها يأساً، فهو لا يبحث عن النجاح بعدد العمليات، بقدر ما يبحث عن نجاح آخر يتجلي في جراحة ما يعجز عنه الآخرون. فكأنه مفطور على التحدي والتحمل والصبر. ولعل المتتبع لسيرة نجم يجد هذه الملامح في شخصيته، بدءاً من شغفه برياضة التايكوندو إلى شغفه بالبحث والاطلاع على آخر مستجدات الجراحة، فلم يتوقف عند تخرجه في الجامعة عام 1985م، بل أمضى سنوات عشر في كندا لدراسة الجراحة، وجراحة القلب والصدر، وجراحة قلب الأطفال.

يزدحم أسبوعه بالعمليات والاستشارات، حيث يكون يوما الأحد والثلاثاء مخصصين لمناقشة حالات المرضى ومدى إمكانية خضوعهم للعملية، بينما تجده باقي أيام الأسبوع في غرف العمليات، مع فريقه الذي يكنّ له كل التقدير.

عندما تزور مركز الملك عبدالعزيز للقلب في الرياض وترى كم عدد المرضى الذين يخضعون لعمليات القلب المفتوح، سترى تلك الثقة وذلك الاطمئنان في عيونهم. وعندما تسأل أحدهم :من فتح قلبك؟! ربما أجاب بكل فخر: إنه هاني نجم. وكأن المريض يزهو بنجاح وهبه الشفاء.

من الجزائر والمغرب إلى مصر والأردن والكويت فالعراق وعمان، اتفقت آراء مسرحيين وممثلين على وجود أزمة نص مسرحي عربي خالص، لكنها اختلفت حول تحديد حجم هذه الأزمة، إذ رأى بعضهم أن النص هو أساس المسرح وأن النصوص الحالية إما تعبِّر عن ذاتية كاتبها، وإما أنها بعيدة عن قضايا الجمهور العربي، بينما رأى بعضهم الآخر أن النصوص متوافرة لكن الأزمة تكمن في عدم التنسيق والالتقاء بين الكاتب والمخرج.
آراء المسرحيين استطلعها **جعفر العقيلي** في محاولة لتحديد مكمن الخلل الذي يعتري المسرح العربي، انطلاقاً من الإشكالية الآتية: هل تكفي النيات وحدها لإيجاد مسرح عربي يستند إلى نصوص عربية تراعي خصوصية مجتمعاتنا وشعوبنا، وتنطلق من واقعها، وتحاكي هموم أفرادها وقضاياهم بمصداقية؟

نص المسرح العربي.. مفقود.. مفقود.. مفقود



shutterstock




إذا ما تحدثنا عن قضايا المسرح العربي المعاصر، فإن أزمة النصوص العربية المعدّة للمسرح تتصدر القائمة، إذ لا تزال منذ عقود مطروحة على طاولة النقاش ولا يزال المعنيون يناقشونها بالحماس نفسه، كلما سنحت لهم الفرصة، عبر مؤتمر أو ندوة أو مهرجان، دون أن يهتدوا إلى حلّ سحري يفضي إلى مساحة أكثر بياضاً، تعيد للمسرح (أبو الفنون) مكانته التي يستحقها، وتُصالحه مع نفسه، وتجعله عربياً خالصاً، لا مهجّناً أو غريب الهوية.

فثمة اتفاق على أن عدد الكتَّاب والأدباء العرب الذين يمارسون الكتابة المسرحية قليل، وعلى الرغم من ذلك فإن النصوص التي ينتجونها -على قلتها- غالباً ما تعاني من إشكاليات مثل: عدم مراعاة الخطاب المسرحي، وإغفال ما للدراما من خصوصية، والمراوحة بين الذهنية والمباشرة، والافتقار إلى الحوار المفعم بالتوتر الذي يتسم بالتشويق والتكثيف والذي هو جزء لا يتجزأ من النص المسرحي الناجح، وكأن ما يكتبونه ليس سوى نصوص أدبية لم يجرِ (وربما لا يمكن) تحويلها من صيغتها الأدبية البحتة إلى الصيغة التي تناسب الدراما.

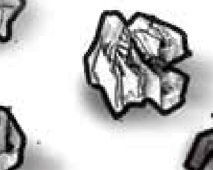
الموسى: حرية النص العالمي

ويقول المخرج العراقي أحمد حسن موسى إن النص العربي يفرض سلطة مسبقة في تحديد بيئة العرض المسرحي، مؤكداً أن «هناك أزمة ملحّة في النص المسرحي على المستوى العربي». ويضيف: «نعم هناك نصوص مسرحية، لكنها غير قادرة على التعبير عن الواقع، أو الغوص في أعماقه، إلا أنها -في الغالب- تلامسها بسطحية، من الخارج فقط».

ويتابع الموسى: «حقيقةً، وأرجو ألاَّ أكون مشاكساً، أرى أن هذه الأزمة على مستوى النص أتاحت لنا مناخاً مسرحياً متوهجاً، لا يخلو من التجريب بحكم التلاقح بين الرؤى الغربية، والآراء الإخراجية العربية».

رؤى مشاكسة

ويوضح الموسى أنه يلجأ على الصعيد الشخصي، إلى نصوص الكتَّاب الطليعيين أمثال هارلود بنتر، ويوجين يونسكو، وبيكيت.. وإلى فضاءات الشعر، حيث مملكة اللغة واكتمال المعنى «لكي أنشئ عبر رؤى مشاكسة، واقع العرض المسرحي» على حد قوله.


ولأن النص العربي، على رغم ندرته وعدم توافره، يفرض سلطة مسبقة في تحديد بيئة العرض المسرحي، وهذا شكل من أشكال مصادرة التقنية لحساب اللغة وبنية الجنس الأدبي. لهذا توجه الموسى نحو النص العالمي، وذلك كما يقول «لأن الضوء الأخضر يبقى متقداً، ويمنح المخرج الحرية الكاملة ليحلّق عبر مفاتيح النص المتعددة، ورؤاه التي يشف منها».

ويؤكد الموسى «أن كاتب النص لا يتخذ موقفاً ثابتاً تجاه القضية الواحدة، بل يتيح عبر نصه المجال للقرَّاء لاتخاذ أكثر من موقف وإخضاع النص إلى أكثر من تأويل. عموماً، أتمنى أن أصادف مؤلفاً عربياً ينجز نصاً مسرحياً عبر جلسات فكرية مع المخرج، وأطمح إلى إنشاء مختبر يجمع المؤلف والمخرج معاً في صناعة العرض المسرحي».

العسال: الإفادة من التراث

الأزمة، كما تراها الكاتبة المصرية فتحية العسال «ليست في النصوص، ولكن في الالتقاء ما بين الكتّاب والمخرجين. والمسرح الموجود عربياً ليس مسرحاً، لأن الباب فُتِحَ أمام ما يُدعى مسرح «الشبّاك» على مصراعيه، وهو ما يتطلب أعمالاً وعروضاً أبعد ما تكون عن المسرح الحقيقي».

وترى العسال أن المسرح العربي انقسم إلى مسرحين: جادّ، وتجاري. فكتَّاب المسرح الجاد يبحثون عن أشكال جديدة وأفكار تحاكي قضايا الناس وهمومهم، متمردين على ما هو قائم، ولكن دون الوقوع في فخ «التجريب» الممجوج.

وهذا المسرح «الجاد» له قوالبه الخاصة به، وله جميع مواصفات المسرح الأصيل، لكنه غير رائج الآن، لأن المتفرج أصبح ميالاً إلى مسرح الإثارة و«الزغزغة» الذي يتقنَّع باسم «المسرح الخاص»، ويقدِّم عروضاً لا تهدف إلى جذب الجمهور، بقدر ما تهدف إلى جذب الأموال.

للضحك فقط

وتتابع العسال «إن المسرح التجاري مخصص فقط للضحك، والرقصات المفتعلة، و«الأفيهات» الجنسية والاستعراضات، وهذه النوع من المسرح لا يوجد له نص على الإطلاق، لأنه لا يحتاج إليه أصلاً: مجرد بطلة وبطل، يطرحان موضوعاً بسطحية في عجالة من الكلمات، لينتقلا إلى التهريج الذي لا يحمل هدفاً أو مضموناً أو رسالة طيلة ساعات العرض.

ومن هذه الزاوية ترى العسال، أزمة النص الحقيقية «ذلك أنه لم يعد هناك قوام للمسرح في هذا الزمن، على رغم ما يمكن أن يبرز هنا وهناك من عروض تبعث الحياة في جسد المسرح المحتضر».

وتسوق العسال أمثلة في المسرح التجريبي المصري نماذج قدَّمت لمسرحيات مهمة، منها: «ناس البحر» لناصر عبدالمنعم، و«الأرنب الأسود» لعبد الله الطوخي،


فتحية العسال

و«البردية» لحسن الوزير، و«طبول فاوست» لانتصار عبدالفتاح، وغيرها من المسرحيات التي كتبها أدباء شباب ومخضرمون لا يستهان بهم.

وتضيف العسال في هذا المضمار: «بعض عروض المسرح الخاص يستند إلى نصوص متينة، مثل مسرح محمد صبحي، الذي لجأ إلى النصوص القديمة وأعاد صياغتها مثل «لعبة الست» و«سكة السلامة»، وهناك مسرح عادل إمام الذي يبذل جهده للحصول على نصوص ذات مضامين، ولا يمكن بأية حال إغفال نصوص لينين الرملي، ومحفوظ عبدالرحمن، ووحيد حامد، وكرم النجار».

وتدعو العسال إلى الرجوع إلى التراث والإفادة منه، وهذا المشروع بدأه ألفيرد فرج، ويوسف إدريس، وعبدالرحمن الشرقاوي، ونعمان عاشور، وأسعد وهبة.

بورشيد: السبب هو القطيعة

أما الكاتب والمخرج المغربي عبدالكريم بورشيد فيشدد على أن «المسرح ليس النص وحده، بل هو عملية متكاملة، يمثل النص أحد عناصرها، وله دور فيها، مثل أي عنصر آخر».

ويرد بورشيد على من يقول بوجود أزمة نص في المسرح العربي، معتبراً أن «الكتابة المسرحية العربية متوافرة وبكثرة، لكن هناك ما يمكن أن أدعوه بالقطيعة بين القائمين على المسرح والكتّاب. وهذا مردّه إلى انفصال الفنون في العالم العربي بعضها عن بعض، فكل مجموعة معنيَّة أو مهتمة بفن معيَّن، تنغلق على ذاتها في دائرة واحدة، بينما المسرح هو ملتقى كل الفنون، بلا منازع».

الجندي: أين المسرح؟

وترى الممثلة والمخرجة الكويتية عبير الجندي أن هناك «مسألتين مهمّتين عند إعداد النص للمسرح من الناحية الزمنية: الأولى إذا أردنا تناول نصوص قديمة فهناك كتّاب عاصروا مواقف معيَّنة وكانوا موجودين في حقب ذات سمات ثقافية واقتصادية واجتماعية، وكما نعلم، فإن الفنان مرآة مجتمعه، وبالتالي كان هؤلاء مرايا مجتمعهم في نفس الوقت». وتضيف: «المسألة الثانية، كان هنالك استعمار وثورات، وتلك الحقب أظهرت هؤلاء الكتاب وشكّلت معاناتهم على المستوى الشخصي أو على المستوى العام، فأنتجوا نصوصاً فريدة».

وتتابع الجندي: «كانت هنالك فترة كان الفن فيها معافى لناحية النص الدرامي والممثلين الذين يحملون الرسالة، والمخرج الذي له رؤية، إضافة إلى الجمهور المبدع في تلقّيه وتذوّقه.. كان هنالك اهتمام بالمسرح، على رغم وجود التلفزيون».

وتقول الجندي: «الآن السؤال المطروح هو: أين المسرح؟ ففي ظل انتشار الإنترنت والفضائيات ودور السينما، لم يتغير شيء على المسرح؛ خشبته كما هي، لم يتم تطوير التقنيات فيه، كيف يمكن استقطاب الجمهور؟ أين ذهبت رؤية المخرج وإسقاط ثيمات العرض على الواقع؟».

وأد النص

وتتابع: «نحن نتشدق بالثقافة، هناك فرق بين المثقف والدارس، هناك عوامل تعمل على وأد النص في مهده، قد يكون هناك نص جيد، لكن لم يلتفت إليه أحد لتقديمه، والسبب ليس ذوق الجمهور كما يُشاع، فالمنتَج بعامة هو الذي يشكل هذا الذوق. وهناك مسألة الكسب المادي، كما أصبح النص يفصَّل لعمل معيَّن ببطولة محددة مسبقاً لشخص (ممثل) دون غيره».

وتستدرك الجندي قائلة: «هناك بلا شك نصوص جيدة، لكن تحتاج إلى من يبحث عنها، ودعم كتّابها، والسؤال هنا: لماذا لا تعقد ورش للكتابة أسوة بتلك التي تقام للتمثيل والإخراج؟».

ولا تخفي الجندي خشيتها من «تحول المسرح إلى «كباريه»، إن لم يجرِ اختيار نصوص تليق بتقديمها على الخشبة... على الكاتب أن يخاطب جميع المستويات لدى المتلقي السمعي، البصري، والحسّي».

السيابي: استسهال النص وتقليصه

ويرى الباحث المسرحي العماني الدكتور سعيد السيابي أن «هناك محاولة من المخرج المسرحي أو القائم على عملية الإنتاج من أفراد وشركات، إلى اللجوء إلى تكييف وتأقلم بين المنتج الأصلي كنص أدبي مع المحيط الخارجي، والظروف الإنتاجية المصاحبة لعملية تقديم الشكل


عبير الجندي






المسرحي لجمهور مستهـدَف»، موضحاً أن «عملية الإعداد يصاحبها نجـاح وفشل، تطوير وتجميد، تلاقـح وأقلمة، أو تقليـص وتقطيـع وتشويه. لهذا، فـإن فعل الإعـداد إذا تم القيام به، بهدف تطويـر ومناسبة للحدث الذي يقدَّم عليه النـص مع وجود حرص كاف مـن المعدّ على الالتزام بروح العمل وأفكاره الرئيسة، فإنَّ النجاح يتحقق، إضافة إلى بث روح الحياة من جديد، داخل نص مسرحي ميت».

ويقـول السيابـي «لكـن الغالـب فـي عمليـة الإعـداد التي تلاحَـظ فـي تجـارب الشبـاب، أن هنـاك استسهـالاً فـي إعداد النـص وتقليصه ليتـواءم مع السرعـة التي يعيشها الشبـاب، ويندفعـون بها من خـلال العاطفـة والرغبة، في تقديـم الجديـد، دون الحـرص الكبيـر بأن الإعـداد الذي يتم به تقديم النـص المسرحي والمشاركة في مهرجانات أو مناسبـات احتفالية يتـم فيها تقديـم عروض مسرحية بشرط أن تكون قصيرة».

النص الأجنبي

ويشير السيابي إلى الإعداد عن النص الآخر الأجنبي، وهذا الآخـر بكل تأكيد كتب نصه بلغته الأم وموضوعات وأحداث وشخصيـات تناسب تفكير وقضايـا الجمهور الذي كتب له هـذا النص. عملية الإعداد هنا تكـون ضرورية، تكون فيها «أقلمة» للبيئـة، وحذف عدد من المشاهـد المسرحية غير المناسبـة، واختصار الحوارات التـي تحتوي على مفردات وألفاظ لا تصلح لتقديمها أمام جمهور آخر.



عادل إمام في «مدرسة المشاغبين»

وبحسـب السيابـي «هنـاك مخرجـون ومنتجـون يقومـون بالإعـداد مـن أكثر من نـص مسرحـي، باستخـدام فـن الكـولاج المسرحـي، فالإعـداد للنص بشـكل عام، يلجـأ إليه الكثير من المبدعين للوصول إلى إنتاج مناسب ومقبـول فنياً وجماهيرياً، مع مـا يرافق من توفيق أو إخفاق في تناول روح النص ورسالته».

الجراح: النص العربي يعبِّر عن همومنا وقضايانا

ويقول المخرج الأردني عبد الكريم الجراح: «إننـا فـي الوطـن العربـي نواجـه مشكلات عند إعداد النـص العربي، للارتقاء به فنياً ودرامياً، على عكس النص العالمي»، نافيـاً «وجود أزمة في النص العربـي المعدّ للمسرح بالمعنى الحقيقي للكلمة، لكن الإشكاليـة تكمـن في عدم وجـود كتابات مسرحيـة متعددة ومتنوعة، تتيح للمخرج الخيار لانتقاء النص المناسب منها، إذ يحتاج الواحد منا إلى الكثير من الجهد حتى يجد الكاتب المناسب والنص المناسب الذي يمكنه أن يحمل رؤيته».

النص المحلي

ويوضـح الجـراح أنـه يميـل للنـص العربـي، ويقـول «أنا شخصيـاً ميال للنـص العربي والمحلي بشـكل خاص، لأنه الابن الشرعي المعبِّر عـن هموم الإنسان العربي وقضاياه، خصوصـاً أن النـص هـو الركـن الأول فـي بنـاء العرض المسرحي».

ويشيـر إلى أن «المخرج ربما يواجـه بعض المشكلات عند إعـداد النـص العربـي، للارتقـاء به فنيـاً ودراميـاً، على العكـس من النص العالمي الـذي يستسهل بعضهم تقديمه لأنـه جاهز، تناولـه الكثيرون وكتبـوا عنه، وهـو بالتالي لا يحتاج إلـى مجهود كبير مـن ناحية الإعداد قبـل العرض، ناهيك بلجوء بعض المخرجين -خصوصاً الشباب- للنص العالمـي تجنّباً للنـص العربـي الـذي ينحصر فـي تناول ومعالجة قضايا المجتمـع المحلي أو المحيط، لأن المخرج لا يريـد أن يقع في صراع مع الجمهور الذي يمسه الموضوع مباشرة».

ويدلـل الجراح على مـا سبق من تجربـة شخصية، ويقول: «هذا ما حدث معي فـي مسرحية «عرار نشيد الصعاليك»، فهـل أقـدِّم الشاعـر الأردنـي عـرار المختزن فـي ذاكرة الأردنييـن، من وجهة نظـري، وأصطدم مـع المتلقي الذي جـاء للعرض وفي مخيلته عرار خاص به لا يستطيع التنازل عنه، أم أقدِّم هاملت أو مكبث أو أيّة شخصية أخرى لا تمس قضايانا مباشرة، رغم أنها تشتبك معنا إنسانياً ووجدانياً؟»

ولا يستبعـد الجراح اللجـوء للنص العالمـي ولكن بشرط، ويقـول: «ألجـأ للنـص العالمـي عندمـا أشعر أنـه يحاكي طروحاتـي، أو يستفزنـي بـأن يظـل حاضراً فـي مخيلتي، ليصبـح بالتالي جـزءاً مني، أو عندمـا يتقاطع هذا النص مع العرض الطقسي الذي أسعى إلـى تقديمه، كأن يستند إلى مظاهر أسطوريـة أو يبحث في وجود الإنسان وصراعه مع الطبيعة».





«سكة السلامة»



«لعبة الست»

مرير: تجاهل الفعل المسرحي

المخرج الجزائري جمال مرير، متيقّن من تميز المنجز الإبداعي العربي، لكنه يقيد ذلك بالوعي، ويقول: «أنا متيقن من قوة الإبداع العربي، لكن علينا أن نعي أن للتأليف المسرحي تقنياته وفنياته. فالنصوص المنتجة -في معظمها- تنزع إلى الأدبية، وتبتعد عن الدراما، وتتجاهل عناصر الفعل المسرحي، وهذا يرجع إلى عدم احتكاك الكاتب مع خشبة العرض».

ناد للكتاب

ويدعو المرير إلى تأسيس ناد للكتّاب والمسرحيين لتطوير الكتابة المسرحية، «لأن كثيراً من الكتّاب والمبدعين ذوي مواهب وأحاسيس، ولكل واحد منهم خصوصيته في الكتابة، لكن معظمهم مطلع على المسرح من الجانب «النظري»، وليس من جانب العرض «التطبيقي». مثلاً، كاتب نص مسرحية «الدالية» التي أخرجتُها وعُرضت أخيراً، هو الشاعر عز الدين ميهوبي الذي عُرف كشاعر بأحاسيسه ومخيّلته قبل أن يكتب للمسرح، وهذا من الأمور التي يحتاجها المسرح. فضلاً عن أن علاقتي بالميهوبي -كصديق- أحدثت فائدة، وساهمت في إنتاج النص بالشكل المطلوب. من هنا، أرى أنه من الضروري التقاء الكاتب والمخرج، ومناقشتهما للنص قبل الشروع بإنتاجه مسرحياً».

ويلقي المرير الضوء على الواقع الحالي للمسرح في الجزائر، ويقول: «الآن، من الملاحظ أن ثمة تلاقحاً بين الكتّاب والمسرحيين، ترفده كثرة المسارح التابعة للقطاع العام، على خلاف البلدان الأخرى، التي ينتشر فيها المسرح التجاري فقط».

يؤكد المرير أنه «ليس هناك أزمة نص، والمسرح فن إنساني، وانطلاقاً من هذا الفهم، لا مانع من الاستعانة بالنصوص المترجمة، ولكنني أفضّل أن أقدّم مسرحاً بنص عربي، وهذا ما يجري على أرض الواقع، حيث إن أكثر من 90% من النصوص التي أنتجتها للمسرح هي نصوص عربية».

خضر: البحث عن النص

ويرى المخرج والممثل الأردني سامر خضر أن «النص دائماً يكشف عن منطلقاتنا الفكرية ويشير إلى تحدّينا الإبداعي الأول، والأفكار العظيمة تحتاج إلى نصوص عظيمة تحملها». ولكن خضر لا يعتقد في الوقت نفسه أن «هناك نصاً مفقوداً على وجه العموم». ويقول: «نحن يلزمنا النص الذي يتحدث عنا ويتقاطع مع ليال شمسها الحقيقة العربية، أو حتى المحلية الأكثر تكثيفاً... وفي حال عدم توافر هذا النص سنظل في حالة بحث دائم عنه حتى نجده».

ويتابع: «المسرح عبر مر العصور اتكأ على الحكاية المستوردة من الأسطورة، واستند إلى ما يرويه التاريخ، فانحاز إلى النص الإنساني بشكله البهي ومضمونه الأبهى... ونحن -المسرحيون- نتقاطع مع النص الجميل أينما وُجد. فالإنسان وسيلتنا وغايتنا، وهذه خصوصية ما نقدّمه، والنصوص المسرحية تنبع من عصب الحياة اليومية، فقط علينا أن نفتح أعيننا جيداً».

عبدالكريم الجراح: «المخرج ربما يواجه بعض المشكلات عند إعداد النص العربي، للارتقاء به فنياً ودرامياً، على العكس من النص العالمي الذي يستسهل البعض تقديمه لأنه جاهز»

بوحسين: لا نحتاج رؤى المؤلف

ويعتقد الدكتور المغربي مسعود بوحسين وهو مخرج ودراماتورغ، بأن «ما يسمى بإشكال النص العربي مجرد شبه مشكل لأن الخلفية المتحكمة فيه إيديولوجية وليست فنية، وهو إحدى علامات مشكل الهوية التي يتخبط فيه الفكر العربي منذ زمان، ففي كل التجارب المسرحية الدولية هناك دائماً طغيان للنص الأجنبي مقابل النص المحلي وتلك مسألة مفهومة وبسيطة لأن كم النصوص العالمية المتراكمة عبر التاريخ أكثر بكثير من النصوص المحلية، وهذا يجعل المخرج في أي مكان من العالم أمام نصوص عالمية كثيرة إلى جانب المحلية بطبيعة الحال، وهو ما يجعل إمكانية اختيار النصوص الأجنبية أكثر احتمالاً».

العرض العربي

ويرى بوحسين أن دواعي اختيار النصوص تختلف من مخرج لآخر، «فهناك دواعٍ ذاتية - إبداعية تتحكم في هذا الاختيار وهي غير مرتبطة بجنسية كاتب النص. ولذلك قد يكون النص في حالتنا عربياً أو أجنبياً، وشخصياً لا أرى أي ضير في ذلك، المهم أن يكون العرض المسرحي مقنعاً وقابلاً للتجاوب مع الجمهور العربي، وهو بهذا المعنى عرض عربي بكل المقاييس».

ويتابع: «في العالم العربي لدينا كتاب مسرحيون كبار وهؤلاء كثيراً ما ترى نصوصهم النور على الخشبة، لكن بالمقابل لا يزال لدى كثيرين لبس كبير في خصوصيات الجنس الدرامي، يكتبون محاورات هي في الواقع «مونولوغ» طويل يلقى وبالتتابع على أفواه شخصيات، بهذا المعنى تغيب الكتابة الدرامية كفعل قابل للتجسيد ويحل القول محل الفعل». ويوضح أن «هذا النمط من الكتابة كان مقبولاً في

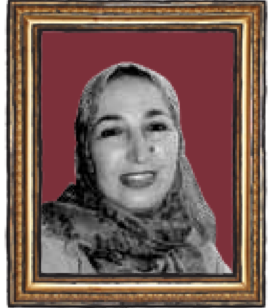

مسعود بوحسين

وقت كان فيه المتفرج العربي يهمه الموضوع الذي يطرحه النص أكثر من خصائصه الفنية - الدرامية، الآن الوضع مختلف: نحتاج إلى نصوص درامية بالفعل، لا تداعيات ورؤى ذاتية للمؤلف موزعة على شخصيات».

قبر النصوص

ويشير بوحسين إلى «سبب ثالث يتمثل في التعريف بالعديد من النصوص العربية، العديد منها تبقى حبيسة أدراج مكاتب مؤلفيها ولا تعرف طريق النشر، وبمجرد ألا تنال قبول مخرج واحد تقبر إلى ما لا نهاية، وهذا مشكل حقيقي لأنه من المحتمل ألا يتوافق هذا النص مع الميول أو الانشغالات الفنية لمخرج ما لكنه قد يتوافق مع توجهات مخرج آخر أو فرقة مسرحية أخرى»، لافتاً إلى «مشكلة رابعة تتعلق بمفهوم الريبيرتوار في المسرح العربي. ففي العديد من البلدان، تلعب المسرحية مرة واحدة ثم تنتهي وهذا أيضاً أمر غير مقبول، إذ من المفروض أن تلعب المسرحيات الجيدة لمرات متعددة، وبإخراج مختلف الأمر الذي يجلب المتفرج إلى مستوى راق من التذوق، لأنه هنا لا تهمه المسرحية كأحداث وشخصيات وغير ذلك، بل تهمه المقاربة الفنية التي اعتمدها للنص نفسه هذا المخرج أو ذاك هذا الممثل أو ذاك».

بن عائشة: أزمة النص مفتعلة


ليلى بن عائشة

الدكتورة الجزائرية ليلى بن عائشة ترى أن «مسألة استعارة وتوليف وإعداد النصوص المسرحية الغربية لتكون المادة الأساسية في بناء الخطاب المسرحي العربي بجانبيه (الخطاب الدرامي وخطاب العرض) مسألة لا يخلو منها أي من المسارح العربية من مشرقها إلى مغربها، وهي إشكالية لها مبرراتها وأسبابها التي توكل بالدرجة الأساسية إلى الأزمة المفتعلة ما يسمى أزمة النصوص المسرحية؛ والتي نخال أنها مسألة تكاد تكون في اعتبار كثير من النقاد شماعة يُعلقُ عليها عدم الاطلاع على ما تراكم من نصوص مسرحية لم تجد طريقها بعد إلى خشبة المسرح بسبب تجاهلها».

وَهْمٌ مفتعل

وتقدر الدكتورة عائشة أن «اللجوء إلى النص الغربي من جهة ثانية، يعود إلى الانبهار بالآخر وبكل ما يبدعه دون أن


بشرى عمّور

نفتح المجال للأنا أو بعض الأنا ليشاركنا إنتاج الخطاب المسرحي بفعالية ونجاعة، ليجد الكاتب المسرحي نفسه وقد حكم عليه بالفشل قبل أن تُقْرَأ أعماله بسبب وهم مفتعل اسمه أزمة النص».

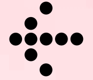
وتتابع الدكتورة عائشة مستدركة: «بيد أن الأمر لا يضير إن كان هذا التوليف أو الإعداد لأسباب فنية تفرضها قوة بعض النصوص الغربية وهيمنتها على أكثر من مستوى لتصبح مرجعية فنية وجمالية تلهم صانع العرض وتغريه باختيار نص بعينه ليضفي عليه رؤيته الفنية والجمالية والفكرية. ومن المؤكد - والثابت عبر التجربة – أن كثيراً من النصوص الدرامية العربية أثبتت مقدرة فنية عالية، غير أن النص المبتكر لا حياة له ما لم يُلْتفَت إليه ويُتَرْجَم على المسرح». وتضيف: «لذا ثمة أحكام قاسية على النصوص العربية قد تصبح أحكاماً مع وقف التنفيذ إن وجدت هذه النصوص طريقها إلى خشبة المسرح، ولا نملك إلا أن نقول فلنُسقِط هذه الأحكام جملة وتفصيلاً».

عمّور: نحتاج لمخرج متميز

الناقدة المسرحية المغربية بشرى عمّور لا ترى أن «هناك أزمة نص ولكنها أزمة قراءة». وتقول: «النص المسرحي العربي متوافر، لكنه لا يشتمل أحياناً على تدقيق في تفاصيل همومنا اليومية، خصوصاً أن المسرح هو أبو الفنون ومرآة المجتمع. لذا فإن النص من أهم الأسس التي يقوم عليها العرض المسرحي، لأنه هو البذرة الأولى أو النواة التي يعتمد عليها المخرج لاستكمال نمو النبتة التي ترتكن على الأداء الجيد الذي يجسد جمالية الفكرة، إضافة إلى تقريبها إلى المتفرج الذي يعدّ عنصراً من عناصر العرض».

وتتابع: «لهذا، يتميز النص العربي بخصوصية تعبّر عن الهوية العربية، وتحيي عاداتنا وتقاليدنا لتقريبها من جيل إلى جيل. بمعنى أن النص يبقى مرجعية ثابتة لأي عمل، وجسراً يربط مراحل الحياة (الماضي، الحاضر والمستقبل)، شرط تواجد مخرج متميز في تفكيك شفرات النص وقراءة ما بين سطوره».

لقطة من مسرحية «الجاكيت يا مجبور»





تحتضن مدينة سيت الفرنسية مهرجاناً سنوياً للشعر يحضره مجموعة من شعراء العالم وخاصة من دول البحر الأبيض المتوسط ويشتمل على أمسيات شعرية وموسيقية وحوارية. والمهرجان يهدف إلى تعميق الروابط الثقافية بين شعوب المتوسط، وتنمية فرص التلاقي بين ثقافات تلك الشعوب والثقافات والفنون المجاورة. يحضر تلك التظاهرة الموسمية سكان المدينة وجمهور زائر من فرنسا وأوروبا ودول أخرى.

محمد الدميني شارك في فعاليات المهرجان هذا العام وكتب انطباعاته في هذا التقرير.

في مهرجان سيت الشعري

الشعر يتنفس في الشوارع والمراكب والمقابر

لا أعرف ما إذا كان يمكن للمرء أن يضيق بمدينة مثل باريس دون أن تنهال عليه الشتائم قولاً أو إيماء..!. لكنني لا أنكر، وأنا من محبيها، أنني بلغت معها حدود العتاب وأنا أجرجر حقائبي في محطة قطاراتها الرئيسة وسط الألوف من البشر متبايني السحنات والهويات واللغات.

كانت اللغة هي العائق الكبير، وخاصة في الأماكن العامة حيث الناس يسرعون إلى قطع تذاكرهم واللحاق بقطاراتهم. وقتهم الراكض لا يسمح لهم بأن يتوقفوا لمساعدة أحد، أو الرد على أسئلته العابرة، فإذا أضفنا أننا بلا لغة مشتركة فما أسهل أن ينصرفوا عنك، ويصبح أملك معلقاً في شباك مركز المعلومات الواقع في عمق المحطة والذي يقف أمامه صف طويل من المسافرين هو موقع النجدة الوحيد..!

أخيراً هأنا في الطريق إلى «سيت» المدينة الصغيرة التي تقع في الجنوب الشرقي لفرنسا، ليس بعيداً عن الحدود الفرنسية – الإسبانية. أمامنا أربع ساعات لكي نصل فالمسافة لا تقل عن 800 كم، ورغم الارتباك الذي قادني إلى كابينة غير تلك التي عليها مقعدي فقد تحملت أكثر من ساعة لكي يتوقف القطار في المحطة التالية لأنتقل إلى مقعدي المحجوز وأواصل رحلتي.

لم أحمل أبداً هموم السفر بالقطار فأنا أحد عشاق هذا السفر وخاصة داخل الجغرافيا الأوروبية. المأكل والمشرب على بعد عربة، واستعددت لصرف الوقت بكتب ومجلات وكمبيوتر تكفيني مؤنة نهار كامل بالقطار. في هذه الرحلة الأرضية تتكشف طبائع الناس وتقرأ اهتماماتهم، وعبر



الشاعران صالح دياب وجيمس ساكري في لقاء شاعري عُقد في حديقة سيت العامة

النوافذ يمكنك أن تقترب من ملامح الحياة اليومية وتضاريس الطبيعة ووجوه النشاط الميداني لشعب عريق كالشعب الفرنسي. في هذه الساعات القليلة يمكنك أن تنقّل عينيك بين المساحات الزراعية الشاسعة، وبين القرى المتناثرة بمعمارها القوطي، وبين المصانع الكبيرة والصغيرة، فيما يواصل الطريق اختراقه للغابات والسهول والممرات المائية والمزارع دون أن تجفل الأبقار والأغنام والأحصنة الغارقة في مراعيها الشاسعة. كانت شمس الصيف المعتدلة تمنح الناس المزيد من الدفء وتقلل هواجسهم من الأمطار المفاجئة أو من كآبة الغيوم الداكنة.

حين وصولنا إلى «سيت» حيث ينعقد مهرجانها الثقافي السنوي، (من 20 - 28 يوليو 2012م) وحيث ألبّي دعوة للمشاركة فيه مع أكثر من مائة شاعر وشاعرة من دول العالم، بدت ملامح المدينة المتوسطية أكثر وضوحاً. درجات الحرارة والرطوبة هنا أعلى، لكن سكانها كأغلب سكان السواحل أكثر دفئاً ورأفة بالغرباء. على العكس من باريس فزحام المركبات لا نكاد نشعر به، والزوار وأبناء المدينة الذين يفيض عددهم على الخمسين ألفاً يطلقون سيقانهم للمشي، وبما أن المدينة تنتشر فوق منحدرات جبلية تطل على المتوسط، وأعلاها قمة سانت كلير، فإن الناس لا يتوقفون عن صعود شوارعها والتجول في ممراتها القديمة حتى الهزيع الأخير من الليل.

في الليلة الافتتاحية للمهرجان التي احتضنتها الحديقة المركزية للمدينة، وقفت مديرة المهرجان، مايتي فاليس بليد لتتحدث عن الأواصر الأصيلة التي يعقدها الشعر بين الشعوب، وتكرس الأمل في الفن والأدب كخلاص للكائن الإنساني الذي يواجه عصراً عولمياً معقداً. لم يكن هناك مسؤولون، ولا رجال أمن، ولا أناشيد وطنية ولا قصائد تطنب في مديح المناسبة أو رعاتها. لقد أتى الناس لكي يحتفلوا بالشعر والموسيقى وبالغناء مع ضيوفهم الذين أتوا من أطراف العالم. لا فائدة من الخطب الحماسية ولا من تكرار فضائل المدينة المضيفة، ولا من أكداس المديح التي يمكن كيلها للتقاليد الثقافية الفرنسية، لا شيء من ذلك، ولا حاجة له. بعدها اصطففنا (حوالي 40 شاعراً وشاعرة) ليقرأ كل منا قصيدة قصيرة واحدة متبوعة بترجمتها إلى الفرنسية. بين موجة وأخرى من القصائد كان الموسيقيون والحكواتيون الشعبيون والمغنون الذين بدت على أعمالهم مناخات جنوب المتوسط بإيقاعاته وروحه الموسيقية يقدمون فنونهم وبعضهم يرتجل وصلاته الكوميدية.

احتشدت الحديقة بالناس من كل الأعمار، لم تكن الكراسي تكفي لعددهم الكبير فافترشوا الأرض وبعضهم استند إلى جذوع الأشجار، وآخرين تزاحموا على الكراسي القليلة.

بدأت اللقاءات الشعرية منذ اليوم التالي بعد أن قدموا لكل شاعر وشاعرة برنامج مشاركاته اليومية. قبل ذلك قضى كل شاعر وقتاً مناسباً مع مترجمه. كان مترجمنا العربي هو الكاتب اللبناني، أنطوني جوكي، وأعتقد أن ثقافته وخبرته النوعية وحساسيته المزدوجة تجاه اللغتين العربية والفرنسية قد أفضت إلى ترجمة أنيقة تصالحت معها الأذن الفرنسية سريعاً، والحقيقة أن المترجمين الآخرين عن اللغات الأخرى لم يقضوا مع الشعراء الآخرين وقتاً طويلاً،

فقـد وجدت أغلبهم يقرأون من كتب صدرت بالفرنسية، ما يعنـي أن قصائدهم ترجمت منذ سنـوات وتأهلت للصدور في كتب نشرت بالفرنسية.

الشعر قريباً من الناس

لكننـي أريد أن ألقي ضـوءاً موسعاً على المـكان والطريقة التـي تدار بها تلك الفعاليات. أقول هذا لأننا طالما انتقدنا وضقنـا بالأسلـوب الجامـد الـذي تـدار بـه مهرجاناتنـا الثقافيـة والأدبية والذي أسفر عن انحـدار واضح في عدد الجمهـور الـذي يحضـر تلك النـدوات، بـل إن عـدداً من الأدبـاء والمحاضرين أصبـح متردداً أو متبرمـاً من مناخ تلك الفعاليـات. وقد تمنيت حقاً أن ترسـل وزارات الثقافة العربيـة والمراكـز الأدبية مندوبيـن نابهيـن يتعرفون إلى القواعـد والأساليـب التي تنظـم بها المهرجانـات الدولية ليعودوا بها ويضعونها على محك التطبيق.

... وتحت سقف السماء

على خلاف عاداتنا العربية حيث يجري الشعر والفكر والفن دائمـاً تحت سقوف صلدة، فقـد آثر منظمو مهرجان» سيت» أن يلقـي الشعـراء قصائدهـم ويتحادثون تحـت السماوات المفتوحة، والبرنامج ينطلق منذ التاسعة صباحاً ولا يتوقف إلا قبيل الواحدة صباحاً وهو يختتم عادة بالقصائد الرومانسية أو بحفلات غنائيـة وموسيقية يشارك فيها فنانون مرموقون مـن الدول المطلـة على البحر المتوسـط. اختار المنظمون لإقامة الفعاليات مجموعة من الساحات والممرات المفتوحة داخل الأحيـاء السكنية، ونصبوا فيها سـرادق صغيرة تتسع منصتها لخمسة أو ستة أشخاص فيما بسطوا أمامها صفوفاً مـن الكراسي، ودعـوا ضيوف المهرجان، عبـر جدول يومي صـارم، إلى لقاء الجمهور الشغـوف على هذا النحو البسيط والفريد. وعقدت بعض النـدوات في باحات المدارس وأمام أماكـن العبادة وفي الأماكـن الأثرية، وفـي الحدائق العامة والخاصـة، لكـن ما فاجأنـا هـو أن يلتقي الشاعـر بصحبة مترجمـه، بخمسة أشخاص على ظهر مركـب يمخر عباب إحـدى القنـوات البحريـة للمدينـة، أو مـع مجموعـة تبحر فـي إحـدى السفن الشراعيـة، وقد تسنى لـي أن أرافق هذه الجماعات البحرية أربع مرات، كانت إحداها «فزعة» لشاعر فرنسي تعرض لأزمة صحية مباغتة.


الموسيقيون يرافقون اللقاءات الشعرية

جمهـور المراكـب والسفـن البحريـة يدفع مبلغـاً يتضمن جولـة بحرية ولقاء شعراء، سبق له وأن اختارهم من جدول المهرجان الـذي فاضت فعالياته عـن 200 صفحة، ولعلها مـن المـرات القليلة التي يدفـع فيها مواطـن أو سائح للقاء مـا يسمعـه من قصائـد. وعلـى العكس من ذلـك فجمهور المنتديـات الشعريـة التـي تقـام داخـل الأزقـة والأحيـاء لا يدفعـون شيئـاً. يأتـون وحدانـاً وأحيانـاً مـع أزواجهـم أو أبنائهـم وربمـا حيواناتهـم لسمـاع أصـوات قادمة من جغرافيات بعيدة، لغة وتراثـاً وصوراً، لكنهم يأتون، وخلال تلـك الملتقيات يصـدف أن يفتح أحد سـكان الحي نافذته ليستمـع، وقـد تهبط حمامـة أو طائر بحري علـى الشجرة المجـاورة لتطلـق غناءها، وقـد يفاجأ شـاب بأمسية أمام بيتـه فيضطر إلـى الجلوس مع الحضـور أو يعبر خجلاً إلى منزله. والمهم ألاّ واسطة مع هذا الجمهور الذي يتناثر بين نـدوة شعرية وأخرى سجالية، فهو يأتي لأن للشعر حيّزاً في مشاعره وثقافته، وربما يأتـي لشغفه بأشعار الأمم الأخرى وتلمس غرابة أصواتها ودلالاتها، فلعلها توقظ في ذاكرته ما لا توقظه الموجات الحديثة في الشعر الفرنسي.

لقد عبر بعض مرتادي جلساتنا الشعرية عن متعة الإنصات لشعـراء يكتبـون بلغات خارج تـرددات سمعهـم، وناقشونا أحيانـا فـي صلب القصائـد ومناخاتها ومجازاتهـا، بل إن إحداهن تحدثـت عن متابعتها الدائمة لما ينشر من أشعار فرنسية لكنها كثيراً ما وجهت انتقاداتها إلى غرق القصيدة

المشاركون العرب: علاء خالد وغادة نبيل من مصر، وظبية خميس من الإمارات، وأمجد ناصر من الأردن، ومهدي سلمان من البحرين، وسعيد حاذف والطيب لسلوس من الجزائر، وعبد الرحمن طهمازي وصلاح الحمداني وعبد الزهرة زكي من العراق، وصلاح ستيتيه وفينوس خوري – غاتا وغسان علم الدين وشارل شهوان من لبنان، ومحمد بنيس وعبدالله زريقة ورشيدة مدني من المغرب، وعبدالسلام العجيلي وسعاد سالم من ليبيا، وعبد يغوث وفاطمة الشيدي من عمان، ومحمود أبو حشاش وعثمان أبو حسين من فلسطين، وأكرم القطريب من سوريا، وعبدالوهاب مؤدب وطاهر بكري وصالح بن عياد من تونس، وحمد الفقيه ومحمد الدميني من السعودية.



عبدالرحمن طهمازي وأكرم القطريب ومترجمهما يستعدان لقراءة في مركب شراعي

الفرنسية في فخ الاستعراض الثقافي مشيرة إلى نخبويتها وأنها لا تكتب للقارئ العام الباحث عن صور وأخيلة أكثر تبسطاً وفطرية وألصق بالحياة اليومية. تذكرت أن هذه الأسئلة نفسها توجه أيضاً إلى أشعارنا الجديدة التي تظهر وكأنها على قطيعة مع الذاكرة الشعرية العربية، ولم أعرف ما إذا كانت هذه المستمعة تمتدح تجاربنا أم إنها تطلق سهامها على كل التجارب الشعرية الجديدة..!

لكن ينبغي الإشارة إلى أن أولئك الذين انتدبوا لقراءة قصائدنا بالفرنسية كانوا مؤهلين للقراءة فأغلبهم طلاب وطالبات يدرسون المسرح وفنون الإلقاء في المعاهد الفرنسية لذا فهم أكثر تأهيلاً لمخاطبة المستمع وتحريك حواسه ومشاعره. هناك أيضاً تجربة أخاذة في العمل التطوعي الاجتماعي، فأغلب العاملين في تنظيم المهرجان هم متطوعون من أبناء وبنات المدينة يعملون بصبر ودأب على تقديم كافة أسباب العون للمشاركين، يرافقونهم إلى الملتقيات المترامية في المدينة داخل الأحياء أو على رؤوس الجبال أو في المراكب البحرية، وبعضهم يقرأ النصوص المترجمة، وآخرين يقودونك إلى المتاحف أو إلى مواقع الحفلات الغنائية والموسيقية، لا يتذمرون من كثرة الأسئلة والطلبات والشكاوى، ويعملون بكفاءة تنافس أولئك الموظفين النظاميين، ويقدمون أجمل الانطباعات عن مدينتهم الحافلة بالشعر والناس والفن.

مدينة الصيادين

توقفت منذ وصلتني دعوة المهرجان عند اسم هذه المدينة «سيت» وتاريخها، فاسمها مغمور وهي بعيدة عن باريس، معقل الأدب والمتاحف والفنون التي لا تكف عن الولادات في جميع الحقول الأدبية والمعرفية، كما أن صداها لم يتردد كثيراً في مدونات الثقافة الفرنسية، فلماذا اختيرت هذه المدينة الصغيرة لهذا التجمع السنوي؟!

أعتقد أن فرنسا تواصل إحياء شواطئها الجنوبية على المتوسط الساحر، هناك بالطبع كان ونيس ومرسيليا ومونبلييه، لكن هناك حاجة إلى مدينة تنطق بثقافات المتوسط حتى أن المهرجان اتخذ شعاراً له هو: «أصوات حية، من متوسط إلى آخر».

إنها مدينة فرنسية صغيرة يقطنها حوالي خمسون ألفاً، تعبرها القنوات المائية من عدة جوانب، وتنتشر بيوتها وشوارعها على سفح جبل سانت كلير. عرفت أدبياً بأنها مسقط رأس الشاعر الفرنسي الكبير بول فاليري وكتب عنها وفيها أجمل قصائده وأشهرها «المقبرة البحرية» التي أعادته إلى الشعر بعد انقطاع استمر اثني عشرة سنة.

اعتبرت مدينة للصيادين، ولا تزال المبارزات البحرية إحدى الرياضات الشهيرة فيها حتى اليوم. في عام 1666م اختارها الملك الفرنسي لويس الرابع عشر لتكون مرسى السفن الملكية وبينها وبين المدينة الإيطالية العريقة» فينيسيا» وجوه شبه كثيرة وخاصة في القنوات المائية التي تنتشر فيها، وقد اعتبرت سيت واحدة من عشر مدن عالمية تتقاطع ملامحها مع فينيسيا الأثيرة. جبل سانت كلير الذي كان ملجأ للقراصنة هو الآن أحد أعلى قمم الجنوب الفرنسي التي يمكن الإطلال منها على سيت بمرفأها الشهير وبالمشاهد المتوسطية الخلابة. إنها أيضاً ميناء تجاري فهي إحدى أكبر موانئ الاستيراد على ساحل المتوسط، وهي مدينة الأسماك بامتياز حيث تقام صالات المزاد بالقرب من صفوف المطاعم التي تقدم أشهى وجبات السمك. أما أشهر معالمها فهي المقبرة البحرية ومتحف بول فاليري ومتحف الشاعر والفنان الفرنسي جورج براسنس، وأولاً وأخيراً شاطئها وقنواتها المائية الهادئة التي تحف بها المراكب والسفن بشتى الأشكال والألوان.

في محطة القطار المغادر إلى باريس التقيت شاعراً فرنسياً مرموقاً انتدب على عجل ليحل محل زميله الفرنسي بيرنارد مازو الذي يعد من الشخصيات المعروفة المكلفة باختيار الشعراء المشاركين لكنه توفي قبيل انعقاد المهرجان. تحادثنا على عجل وبما أن مقاعدنا متباعدة فقد اتفقنا على مواصلة حديثنا حال وصول القطار إلى باريس. حين غادرت مقعدي وانغمرت وسط الزحام بحثت عنه، ولا بد أنه فعل الشيء نفسه، ولكن بدا جلياً أننا مضينا في طريقين لا يلتقيان.



عام على رحيل شيخ الصحافة السعودية

عبد الكريم الجهيمان:

مشعل التنوير وسادن الأساطير

بعد عام على رحيله، ما زال عبدالكريم بن عبدالعزيز الجهيمان «أبو سهيل»، يمثل علامة فارقة في الحياة السعودية. فقد كان رائداً حقيقياً من رواد الصحافة، وعموداً من أعمدة الكلمة، في الوقت الذي يقف فيه سادناً للأساطير وحافظاً للتراث، وحاملاً لشعلة التنوير، ومدافعاً عن حرية التعبير.

في هذا المقال، يتناول الباحث عبدالله العبدالمحسن، جوانب من حياة الجهيمان، ودوره في حمل رسالة التنوير، حيث تزامنت بداياته الصحافية مع مشروع الدولة الحديثة. فتبنى المهمات الأساسية المطروحة أمام الوطن. وحمل هموماً تدور في معظمها نحو تحديث المجتمع ونهضة الوطن.

طولاً وعرضاً..

وُلد عبد الكريم الجهيمان في بلدة غسلة، ونشأ في القرائن، وهما بلدتان متجاورتان قريبتان من «شقراء» وسط المملكة، التي تبعد نحـو 200 كيلومتر عن العاصمـة الرياض. وكانت ولادته في عام 1912م، (1332هـ). وانفصل والده عن والدته وهو لا يزال صغيـراً، فعاش منتقلاً بين القريتين، وقد عانى من هذا الافتراق، فلم يحظَ بعطف الأمومة كاملاً، ولا عطف الأبـوة كاملاً، مثلما عبر في مذكراته. خاصة بعد أن تزوجت أمـه، فأُوكلت جدته برعايته، ومـع أن هذه الحياة كانت تبدو بائسـة، إلا أن الجهيمان يعبر عنها علـى نحو مختلف؛ حيث يقول في مذكراته: «إنني عشتها طولاً وعرضاً. وتمتعت بأنواع مـن الحرية والانطلاق، كما سعدت بلقـاء العجائز، لا سيما جدتي». وكان عمره 5 سنوات حين اجتاح نجد وباء الكوليرا، فأوقـع فيهـا القتل والتنكيـل والتشريد، وسميـت السنة التي تساقط فيها الناس قتلى بفعل الوباء «سنة الرحمة».

العلم نور

فـي سـن السادسة، عـاد الجهيمـان لحضن أمـه بعد وفاة زوجهـا. وهـي التـي أدخلتـه إلـى الكُتـاب، لتعلـم القراءة والكتابة، وبهذا الإجراء رسمت الأم دون أن تدري درب رائدٍ من رواد التعليم والثقافة.

بعـد أن أنهـى دراستـه فـي الكُتـاب متعلمـاً فـك طلاسم الحـروف، قـراءة وكتابـة، توجه إلـى الرياض وعمره 13 سنـة. وهناك بـدأ الدراسة لدى مشايـخ المساجد، فدرس النحو، وعلـم الفرائض، وعلم الفقه علـى يد الشيخ محمد ابـن إبراهيم، واستمر هناك لمدة سنـة واحدة، وفي العام التالي، 1926م، غادر إلى مكة المكرمة طالبا للعلم، فسكن مـع الطلبة في قلعـة أجيـاد، وراح يتلقى العلـم في حلقات المسجد الحرام. وهناك التحق بسلاح الهجانة لمدة عام، ثـم انتقل للدراسة في المعهد العلمي، ودرس فيه 3 سنوات، وتخـرج من المعهـد عام 1351هـ، وبهذا يكـون تخرجه في المعهـد العلمي في مكة المكرمة في السنة نفسها التي وحدّ فيها الملك عبد العزيز أرجاء البلاد.

التعليم.. أول مشوار التنوير

بالنسبـة لعبد الكريـم الجهيمان، فقـد كان التعليم رسالة تنويريـة بامتيـاز، راح يؤديهـا مـن أجل نهضة بـلاد تشق طريقهـا نحـو التقدم. وفـي مراحل لاحقة مـن حياته، راح يعبـر عـن قيمة العلـم والتعليـم في بنـاء الأمـم ونهضتها وتطورهـا. يمكـن ملاحظـة ذلـك، حسبمـا يشيـر الناقد السعـودي الدكتور معجب الزهراني، فـي دراسة عن سيرة الجهيمـان، مـن خلال كتابه «إلـى باريس»، الـذي ألفه في فتـرة لاحقة. فمما توقف الجهيمان عنده بإعجاب في رحلة باريس كان انتشار التعليم بين الفرنسيين. الذي رآه الدليل الأقوى على بلوغهم ذروة التقدم الحضاري.

بدايـة مشـواره فـي التدريـس كان في عـام 1353هــ بمكة المكرمـة، حيث عمل مدرساً بمدرسة المعلى، ثم الفيصلية، ثـم انتقل لمدرسـة البعثات والمعهد السعـودي. ولم يقتصر نشاطـه علـى التدريـس، بل انكـب علـى تأليـف المقررات المدرسية في الفقه والحديث والمطالعة والتهذيب والتوحيد منفرداً، ومشاركا مع الآخرين كالأستاذ عبد الله عبد الجبار.

وبسبب صرامته في التدريـس، نُقل إلى الدوادمي. وفي عام 1930م انتدب لإنشاء المدرسة الأولى في بلدة الخرج، بعدها بسنـة واحدة انتقل للرياض لتدريس أبنـاء الملك سعود، ثم تولى تدريس أبناء الأمير عبد الله بن عبد الرحمن.

وتواصـل مـع التعليـم أيضـاً مـن خلال عملـه مفتشـاً في وزارة المعـارف. وحمـل هذا الهاجس حتى بعـد تحوله إلى الصحافة، وتفرغه للعمل الصحافـي. وتأتي عنايته بكتاب

الطفـل امتـداداً لاهتمامه بالتعليم. فهـو أول من عني بهذا الفن من جيل الرواد، حيث أسس «مكتبة الطفل في الجزيرة العربيــة» وأصدر عشر قصص للطفل. وتلتها «مكتبة أشبال العرب»، كما أصدر عشر قصص مماثلة.

كمـا تجسد اهتمامــه بالتعليم من خـلال تبرعاته السخية، فقد ذكر الدكتور حمود البدر أن عبد الكريم الجهيمان قدم لـه عندما كان البدر وكيلاً لجامعة الملـك سعود مبلغ 200 ألف ريـال لمساعدة الطلبة الذين تعوقهم أحوالهم المادية عـن مواصلـة دراستهـم، وطلب منــه تلمس حاجـة الطلبة المعوزين لمساعدتهم. كما قدم مبلغ 300 ألف ريال لمركز الأبحاث بالجامعة.

سمح اليد سلفاً وتلفاً

وبمناسبــة الحديـث عن عطائــه، فقد قـدّم 200 ألف ريال لجمعيــة أصدقــاء المرضــى، و300 ألف لجمعيــة الأطفال المعوقيــن. ويذكـر الكاتـب المعـروف محمد عبـد الرزاق القشعمي في هذا الصدد أن للجهيمان مشاركات في أعمال الخيـر، منهـا مشاركتــه بمليون ريال فــي تأسيــس «مركز المسنين» قبل أن يتحـول لمركز الأمير سلمان الاجتماعي. وتبرعــه السخي بمليون ونصـف المليون ريال لبناء مدرسة ابتدائيـة ومتوسطـة في السهبـاء بالخرج، والتــي افتتحها محافـظ الخـرج الأميـر عبد الرحمـن بن ناصـر بن عبد العزيز، بحضور وزير التربية والتعليم آنذاك الدكتور محمد الرشيد. وسميت المدرسة باسم الجهيمان.

في محراب الصحافة

على الرغـم من أن الجهيمان عرف فـي بداية حياته معلماً، فإنه سرعان مـا سلك درب الكتابة والنشر، في وقت لم يكن للصحافة السعودية وجود مؤسس، بل كانت التجارب الكتابية عبارة عـن أنشطة للأدباء لنشر إنتاجهـم الأدبي والشعري، فكانت الصحافة ملحقاً أدبياً، على الرغم من محدوديته.

وقد بـدأت الصحافة في المملكة صحافـة أفراد. وأبرز ما اتسمت به الصحافة في بواكيرها الانشغال بهموم الإصلاح والتغييـر والتحديث. لم يعنها كثيـراً إنتاج المعلومات وبثها للترفيـه. وقد وجد الجهيمان في الصحافة الوسيلة الأسرع لنشـر أفكار التنوير، وتشخيص مشكلات الوطن والمواطن من أجل معالجتها.

وقد تزامنـت بداياته الصحافية مع مشروع الدولة الحديثة. فتبنى الجهيمان المهمات الأساسية المطروحة أمام الوطن، فغدت محور كتاباته الصحافية، ولا غرابة أن تتماس تطلعات الدولـة الوليدة في الاستقرار والأمـن والتعليم والنهضة، مع تطلعـات الفتى اليافع الذي تسلح بالعلـم البسيط المتاح في وطنه آنذاك. وأثرى حصيلة تعليمه بما توافر لتثقيف الذات. ممـا مكنه من امتلاك رؤية متقدمة على عصره. أعانته على تحديـد أهـداف طموحة وعريضـة للنهوض بالمجتمع. لم يكتف بتحديدها، بل ألح على تحقيقها.

لكن الجهيمان لـم يكن فاتراً على الإطلاق، فقد كان ينتقد بحـدة ما يشخصــه ببصيرته الثاقبة مـن جوانب القصور فــي المجتمع. متحمـلاً في سبيلـه التبعات بإيمـان راسخ. ويطالب بما يـراه ضرورياً للنهوض بالمجتمع حتى وإن كان ما يطالب بـه سابقاً لأوانه في نظـر المسؤولين والمجتمع. وكان يرى أن التعليـم بمختلف فنونه ومراحله بوابة التغيير والتطويـر والإصلاح. ولم يغفـل الشؤون الأخـرى؛ فطالب بتوفير الرعاية الصحية، وتحديث الخدمات الطبية. وشدد فــي المطالبة بتطوير موارد الثـروة الوطنية. وحمايتها من جشع الشركات الأجنبية.



عبدالكريم الجهيمان يُشرف على طباعة صحيفة «أخبار الظهران»

ولأن التعليم يتصدر اهتماماته لم يتردد أن يطلق دعوته الجسورة لتعليم المرأة. وكانت دعوته هذه مستفزة لمجتمع محافظ يعارض أفراد منه تعليم الأولاد فضلاً عن تعليم البنات.

وعاود الجهيمان الكتابة في صحيفة «اليمامة» مع صديقه حمد الجاسر فكتب مقالات تحت عنوان «أين الطريق؟»، وخلال غياب الجاسر كان يتولى مسؤولية إدارتها. كما كتب بصحيفة «القصيم» عند صدور العدد الأول تحت عنوان «مع الزمن» في الصفحة الأولى، و«المعتدل والمائل» في الصفحة الأخيرة، وطرح في ذلك العمود أهم القضايا الاجتماعية والاقتصادية. وكان جريئاً في المطالبة بالاهتمام بشؤون البادية. كما طالب بإنشاء وزارة تعنى بالشؤون الاجتماعية. ودعا - ولأول مرة - لقيام جمعيات وطنية في المناطق لمساعدة الفلاح في الإنتاج وتصريف إنتاجه. كما طلب من وزير التجارة وضع تعاليم وقوانين لحماية التاجر من الكساد. والمستهلك من الاستغلال.

وتجاوز في كتاباته الهموم المحلية إلى هموم الأمة: حيث فضح الأطماع الاستعمارية في المنطقة. والأحلاف المشبوهة كحلف بغداد، والمؤامرة الصهيونية. وهاجم بشدة معاهدة «سايكس بيكو» التي استهدفت تقسيم الوطن العربي.



مع الصديق ورفيق الدرب الشيخ حمد الجاسر

وقد ترك الأستاذ عبد الكريم الجهيمان بصماته الواضحة على الصحافة المحلية ليس بنهج الكلمة الصادقة الشجاعة والمسؤولة فقط، بل ومن خلال دعوته لحرية الصحافة، لتتمكن من أداء دورها المسؤول. وسعيه الحثيث لجعلها منبراً مسموعاً للتصحيح والتوجيه. وهذا ما تبرزه بوضوح كتبه التي جمع فيها مقالاته وكتاباته الصحافية. مثل كتاب «دخان ولهب»، الذي ضم مقالاته المنشورة في صحيفة «أخبار الظهران». وكتاب «أين الطريق؟» المكرس لما نشره في صحيفة «اليمامة». وكتابه «آراء فرد من الشعب» الذي ضم ما نشره في صحيفة «القصيم». وختم هذه الكتب بكتاب «أحداث وأحاديث»، وهو آخر كتاب في سلسلة مقالاته الصحافية وصدر عام 1407هـ مشتملاً على ما نشره من مقالات في الصحف المحلية.

وقد وصف الكاتب عابد خزندار هذه الكتب بأنها: «شهادة حق على عصره». ووصف الأديب عبد الفتاح أبو مدين الجهيمان الصحفي بأنه: «شجاع وصادق وصريح.. لا يتملق ولا يتدانى.. يقول كلماته وهو يريد الخير لأهله ووطنه». أما الكاتب الراحل فهد العريفي، فوصف الجهيمان بأنه: «مدرسة كنا من بين طلبتها».

دورة مع الشمس

كان الجهيمان محباً للأسفار، ليس للمتعة فقط، وإنما للوقوف على المنجز الحضاري، وللتزود بالمعرفة والخبرة. وهذا ما نلمسه من انطباعاته حول المدن والناس، المحملة بدلالات قوية تحيل بوضوح إلى ما عرفناه من همومه التي عبّر عنها في كتاباته الصحافية، التي تدور في معظمها نحو تحديث المجتمع ونهضة الوطن. فأكثر ما تدهشه في تلك البلدان المنجزات العلمية والثقافية والعمرانية، والسلوك الحضاري كاحترام الأنظمة والقوانين.

زار معظم البلدان العربية، ودول الخليج، ودول المغرب العربي، حيث انطلق بسيارة من القاهرة حتى طنجة ماراً بليبيا وتونس والجزائر.

وقام برحلة لأوروبا، زار فيها فرنسا وبلجيكا وهولندا وسويسرا وإيطاليا. وقد تركت باريس في نفسه انطباعاً خاصاً عبّر عنه في كتاب أصدره بعنوان: «من ذكريات باريس»، يقول عنها الناقد الدكتور معجب الزهراني، إن الكتاب هو «أول كتابة في أدبنا المحلي تنبثق عن اتصال وتفاعل مع باريس فضاء وبشراً وثقافة».

تضمن هذا الكتاب إعجابه بباريس وبأهلها وشوارعها النظيفة وساحاتها الكثيرة والآثار والحدائق والمقاهي



صحيفة صوت الحجاز

صحيفة أخبار الظهران

والمتاحف. وأكثر ما يلفت انتباهه انتشار التعليم الذي رآه دليلاً على الرقي.

وقام برحلة أخرى سجل تفاصيلها في كتابه الثاني «دورة مع الشمس» انطلق من الرياض إلى أمريكا ماراً بلندن. وزار عدة ولايات في أمريكا. كما زار جزر الهاواي واليابان والصين وهونج كونج. وانتهي بالبحرين. مسجلا انطباعاته في كتاب يُعد من أبرز كتب الرحلات في المكتبة المحلية.

رائد بين رواد

ينتمي الجهيمان لجيل الرواد الذين استشرفوا المستقبل بشفافية نادرة ونظرة ثاقبة سابقين عصرهم. جمعتهم وقربت بينهم هموم التنوير والتحديث والإصلاح. فلا غرابة أن تتسم علاقة الجهيمان بمعاصريه بالود والاحترام والتعاون البناء.

عاصر الجهيمان جيل الرواد الأوائل أمثال: عبدالله العبدالجبار، وأحمد العربي حيث عمل معهما في تحضير البعثات. كما تزامل في درب الصحافة والكتابة مع حمد الجاسر في «اليمامة»، وعبد الله بن خميس في جريدة «الجزيرة».

وكان الجهيمان منصفاً وموضوعياً ومتجاوزاً لذاته، فهو يثمن دور مجايليه حتى وإن اختلف معهم في الرأي. وخير شاهد على مثل هذه المواقف علاقته بحسين سرحان التي اتصفت في مراحل منها بالمتوترة والمتشنجة، فقد نشب بينهما سجال حاد لم يوقفه إلا تدخل مسؤول كبير، لكن الجيهمان يصف تلك المعركة، بمصارعة بين شابين يريد كل منهما أن ينتصر. وقد تعانق الخصمان عندما تقابلا في بيروت، واجتمعا عدة مرات، كما أن سرحان سكن في شقة الجهيمان. ويقول حسين سرحان عن الجهيمان: «إنه من الرعيل الأول من أدباء بلادنا. فهو يجيد الشعر وفن النثر وقلة من الأدباء من تجتمع فيه هاتان الملكتان. وأنه يتمتع بروح مرحة. لطيفة المعشر.. مليئة بالكرم والتسامح وحب الخير».

أما علاقته بحمد الجاسر فقد امتدت زماناً طويلاً. منذ زمالتهما في المعهد السعودي، مروراً بالتدريس، والعمل في الصحافة، والرفقة في الأسفار. وكانت هذه العلاقة قوية تجاوز عمرها خمسة وسبعين عاما.

سادن الأساطير

تتجسد مأثرة الجهيمان الكبرى في الالتفات إلى الموروث الشعبي المهدد بالنسيان، والذي جمعه من أفواه الناس، من حكايات الجدات ومجالس السمر. وهذا يوضح حجم الجهد الذي بذله إذا أخذنا في الحسبان زمن وظروف الجمع، حيث الأمية الضاربة، وانعدام وسائل التواصل والاتصال الحديثة. لذا لا غرابة أن ينفق من العمر ما يقارب أربعين عاماً في حفظ ذلك التراث.

أما الدافع وراء تجشمه منفرداً ذلك العناء الكبير لجمع خمسة مجلدات من الحكايات، وعشرة مجلدات من الأمثال، فيظهر في قوله: «كان هدفي من جمع التراث الشعبي وتوثيقه خوفي من ضياع هذه الثروة العظيمة التي خلفها لنا الأجداد، والتي لو أهملت لذهبت أدراج الرياح».

إن جمع الموروث لم يحمه من الضياع فقط، بل وساعد على انتشاره. وقد اختيرت منها مجموعة وترجمت إلى اللغة الروسية، وصدرت في موسكو تحت عنوان «حكايات عربية عام 1999م»، قام بترجمتها د. شاه رستم شاه موساروف.

كما أن قناعته الواعية بقيمة الموروث الشعبي التاريخية، ورؤيته الموضوعية تكشف لنا سر اهتمامه بين معاصريه من الرواد بهذا الموروث، وبذله الوقت والجهد لجمعه وتنقيحه، وإنفاقه السخي لنشره. تلتقي قناعته تلك، ورؤيته المتقدمة بنظرة كبار العلماء والمختصين في الدراسات الفولكلورية، بل وتتطابق. فالجهيمان يرى أن هذا الموروث: «أصدق من التاريخ المكتوب، وأدق في رسم الحياة الاجتماعية، وأقدر على تكوين صورة وافية، فلن

نجـد أدق وأصـدق من الأمثال، التي هـي زبدة تجارب تلك المجتمعـات، ولا أقرب إلى الصدق من الأساطير، التي هي فضاء خياله الرحب وأفق تطلعاته».

وعبّـر عـن هـذه الرؤية مـرة أخـرى بقولـه: «لسـت أعدو الحقيقة إذا قلـت إن هذه الأمثال والأساطير هي التي تمثل التاريـخ الصحيـح لحالـة البـلاد الاجتماعيـة والسياسية والاقتصاديـة. أما كتب التاريخ فأكثرها لا تخلو من الأهواء التي تطمس الحقيقة».

لـم يـزدرِ الجهيمـان الأدب الشعبـي مثل الكثيـر من جيل الريـادة، ولم يـره مثلهم خطـراً على اللغـة الفصحى، بل علـى العكس كان مدركاً لأهميتـه التاريخية التي أشار إليها الدكتـور طـه حسين في كتابـه «الحياة الأدبيـة في جزيرة العرب»، بالقول: «هذا الأدب الشعبي، وإن فسدت لغته، حيٌّ قـوي له قيمتـه الممتازة، من حيث إنه مـرآة صالحة لحياة منتجيه».

لقـد تمتع الجهيمان بذاكرة قويـة مدهشة احتفظ بها حتى السنـوات الأخيـرة من عمـره الطويـل الذي جـاوز المئة. فالذاكرة هي أداة الراوي المهمة والأساس.

ثقافة الراوي

لا تكفي الطاقة الإبداعية أن تحول ما يحتشد في الذاكرة من أحداث ووقائع ومواقـف وأفكار إلى حكاية، إلا إذا ساندتها المقـدرة والذائقة الفنية التي تستشعر قيمة الحكاية الفنية والموضوعيـة، أما الطاقـة الإبداعية للـراوي فهي مقدرته على التصرف في العناصر المكونة للأثر المنقول. وكذلك إثرائه للنص المروي حتـى يغدو حكاية قادرة على التأثير.

وتظهر من خـلال الحذف والإضافـة دون الإخلال بالنص وإلحـاق الضرر بـه، خاصة إذا اضطرته مراعـاة الواقع أو المسؤوليـة الأخلاقية، أو الاجتماعيـة للانتقاء، حيث تعمل عمل الرقيب فيقوم بتعديلاتـه، وهو محافظ على العناصر الأساسية التي تكون الحكاية.

إذا كان بيـن رواة الموروث الشعبي راوٍ ملتزم يراعي «الحق الذاتـي» للحكايـة. يروي النـص كلمة كلمـة، وراو لا يكتفي بالنـص الأصل. فـإن الجهيمان جمـع الاثنين. نـراه أميناً على النص يرويه، كما سمعه تارة. وأخرى يصوغه بأسلوبه الخاص، كما ينوه مستهلا حكاياته.

وحين نتحدث عن الراوي ينبغي ألا نغفل عاملاً مهماً يتعلق به. وهو ثقافـة الراوي. فهي على درجة من الأهمية لإدراك مختلـف الجوانـب والأبعـاد التـي تحملها الحكايـة. ومدى مراعاتهـا للواقـع مما يشكل تحدياً للـراوي: هل تلقى قبولاً أم تقابل بالرفض؟.

وإذا لاحظنـا أن التعليم الذي تلقاه الجهيمان كان متواضعاً جـدا، إذا قسنـاه بمعاييـر يومنـا، فإنه استطـاع بالتثقيف الذاتـي والاطلاع الـدؤوب أن يثريه. ويرقى بـه إلى مستوى ذوي الاختصـاص.

فمهمـة الجهيمـان كـراوٍ لـم تكـن سهلـة، إذا أخذنـا في الحسبـان طبيعـة مصـادره، وهـي سمعيـة، فـي مجالس السمر، ومن أفواه الناس: كالجدات والوالدين والأصدقاء. وهـم كما نرى مثقلين بالأمية، فلا شك أن ما يروونه يعاني جوانـب من الضعف. وقـد تكون لهذا الجانـب ايجابيته إذ تصلـه الحكاية في أفضل حالاتها نقـاء وعفوية وأقرب إلى

الأصل، ولكن قد لا تصله كاملة، بل في بعض الأحيان تصل على شكل ماتيفات وأشلاء. وأخرى تعاني من فقد ونقص في التفاصيل. والتفاصيل هي الشبكة التي تصطاد حقائق الواقع، كما يقال. فيقوم الجيمان بإكمال الحكايات الناقصة بما يتناسب مع سياقها وما يتلاءم مع أجوائها.

أما وجهة نظره الواعية الأخرى التي تضعه في صفوف المدرسة الأوسع للدراسات الفولكلورية، فوردت في سياق تعقيبه على ملاحظات مهمة أبدتها الدكتورة سعاد المانع حول كتابه «الأمثال الشعبية في قلب جزيرة العرب». فقد لاحظت الدكتورة المانع أن بين أمثال الكتاب أمثالٌ مأخوذة من بيئات عربية مجاورة، وأخرى ذات صيغة فصحى. وملاحظة أخرى حول شرحه لبعض الأمثال أنه أسقط عليها أفكاره وآراءه الاجتماعية. فجاء في تعقيب الجهيمان: «أن الأمثال تنشأ عن ظروف اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية. وظروف العالم العربي تتشابه، ولهذا قد يكون المثل الذي لدينا يُقال في مصر والشام والعراق، وكل بلد عربي ينطقه بأسلوبه ولهجته، وليس معنى ذلك أنهم استوردوا المثل منا، أو أننا استوردنا المثل منهم، بل منشؤه تشابه الظروف وتشابه المشاكل».

الجهيمان شاعراً..

من أعمال الجهيمان النثرية؛ سيرته الذاتية بقلمه والتي حملت عنوان: «مذكرات .. وذكريات من حياتي»، وهناك تجدر الإشارة لدور الأستاذ ناصر الحميدي الذي شجعه بإلحاح على كتابة سيرته.

أخيرا لابد من الإشارة إلى ديوانه الوحيد «خفقات قلب». الذي جمع فيه إنتاجه الشعري المتواضع. حيث تلتقي لغة شعره بلغة نثره على قنطرة البساطة والوضوح. وهو في شعره رومانسي في التجاهه إلى الماضي مصوراً بحنين جارف براءة الطفولة وبساطة ودعة الريف والقرية والحبيبة. وهو رومانسي أيضا في جنوحه وتوقه اللامحدود لواقع جميل تسوده القيم الإنسانية النبيلة.

الكلمة لا تغفو

يذكر أن الجهيمان حظي بتكريم من خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز حينما كان ولياً للعهد عام 1421هـ، وذلك ضمن المهرجان الوطني للتراث والثقافة (الجنادرية).

في 2 ديسمبر «كانون الأول» 2011م، الموافق 7 محرم 1433هـ، وعن 102 عاماً رحل في أحد مستشفيات العاصمة الرياض، شيخ الصحافة السعودية، وأحد رواد الفكر والأدب السعودي، صاحب الكلمة الجريئة والصادقة والحالمة، حامل راية التنوير والتحديث والإصلاح، وسادن الأساطير وجامع الموروث، عبد الكريم الجهيمان. بعد أن أدى دوره كاملاً، على حد تعبير الدكتور منصور الحازمي. رحل تاركاً بصماته الواضحة على جوانب حياتنا الثقافية.

معالي وزير الثقافة والإعلام، د. عبدالعزيز خوجة، يكرّم الأديب عبدالكريم الجهيمان في إحدى المناسبات

الشيخ الجهيمان وبعض أصدقائه، من اليمين، عبدالكريم العودة ومحمد القشعمي وعبدالله الصيخان



قول آخر

أين هو أدب ما بعد الربيع العربي؟

«الرواية هي مرآة نتجوّل بها طول الطريق»... جملة كتبها ذات يوم صاحب «الأحمر والأسود» و«كاتدرائية بارما» ستندال. بهذا التعبير عرّف أحد أساتذة الواقعية الفنية معنى الرواية. وهكذا فعلاً تبدو الروايات، بكلّ أنواعها والأكثر فنتازيا أيضاً، مأخوذة من قلب الواقع. فالروائي ليس شاعراً. «الأنا» في كتاباته ليست ذاتية. وأفكاره ليست مشاعر داخلية خالصة. إنما هو يكتب في الرواية حياته وحياة الآخرين.

الروائي إذاً ابن بيئته. ومجتمعه.. لذا نرى أنّ الأحداث المفصلية التي يعيشها هذا المجتمع أو ذاك تنعكس مباشرة على نوعية الرواية وثيماتها. وهذا جليّ عبر التاريخ. فالآداب والفنون كانت غالباً ما تُمثّل إرهاصاً وانعكاساً للثورات في العالم. فأدب مونتيسكيو وفولتير وروسو أسهم في تحريك الثورة الفرنسية قبل اندلاعها. ثمّ جاءت الثورة لتترك تأثيرها الرهيب على الأدب الفرنسي ومن ثمّ الأوروبي. فكانت وظلّت مصدر إلهام للكثير من الروائيين.

أيضاً، بعد الحرب العالمية الثانية نشأت «العبثية» كمذهب جديد في الأدب الغربي. ولدت العبثية كبديل عن عالم انتفت فيه المعايير الإنسانية الحقيقية.

منذ سنة واحدة فقط عرفت منطقتنا أحداثاً مُلتهبة، مُتسارعة غيّرت ثوابت سياسية واجتماعية راسخة منذ أكثر من أربعة عقود في أكثر من عاصمة عربية. هذا التبدّل المفاجئ والصادم كان له انعكاساته الطبيعية على الشعوب العربية بنُخبها وطبقاتها العادية.

منذ أن هبّت نسائم الربيع العربي في تونس ومصر ومن ثمّ في ليبيا واليمن وسوريا وهناك كُتب وروايات ترصد هذا الواقع العربي المتغيّر. فالكاتب المغربي الفرنكوفوني طاهر بن جلّون أصدر كتابين متزامنين في موعد إصدارهما. الأول بعنوان «بالنار» وهو سيرة مُتخيّلة عن شخصية التونسي محمد بو عزيزي، الذي أضرم النار بجسمه وبالجسم العربي كلّه. والثاني عبارة عن مجموعة مقالات كتبها بن جلّون في أهم الصحف الفرنسية والعالمية خلال أحداث «الربيع العربي»، بعنوان «الشرارة».

وأصدر الكاتب اللبناني الفرنكوفوني ألكسندر خلال الأحداث الدموية التي كانت تعيشها ليبيا كتاباً ضخماً عن شخصية معمّر القذافي تحت عنوان مثير «تشريح الطاغية».

وأصدر الروائي التونسي الحبيب السالمي روايته التي كتبها قبيل اندلاع ثورة تونس بعنوان «بنات الياسمين»، وفيها صوّر الحياة الاجتماعية بمهارة جعلتها تدخل ضمن القائمة القصيرة لجائزة «بوكر» التي تُمنح خلال الأشهر القليلة القادمة.

وفي مصر انتشرت بعض القصائد، مع غلبة العامية على الفصحى، التي لاقت وقعاً قوياً في الشارع المصري مثل قصيدة «الميدان» لعبد الرحمن الأبنودي و«ارفع راسك إنت مصري» لجمال بخيت وقصائد كثيرة للشاعر الذي لُقّب ب«أمير الثورة» هشام الجخ.

رغم ذلك، لم يصل أدب ما بعد الربيع العربي إلى مرحلة النضج بعد. هذا لأنّ المسافة الزمنية ضرورية لاختمار الأفكار وتهذيبها حتى تظهر أخيراً بشكلها الذي يرتقي إلى مثل هذا الحدث الجلل. والأيام القادمة ستُثبت أنّ إفرازات الربيع الأدبية لن تكون محدودة، وربما تكون هذه الثورات مُلهمة الأدباء وستسهم في تحريك مياه الأدب العربي الراكدة.



مايا الحاج

المظلّة

لم يكن لشيءٍ مقبَّب، محدَّب، يُظلِّلُ الرأسَ والأبدانَ، في الصيف والشتاء، يقيها من الحرّ كما ينأى بها عن البلل، أن يرتحلَ جغرافياً ويعبرَ فصول التاريخ، ببعض التنازع والاختلاف حول أصله وفصله، لولا أنّ هذا «الشيء» تخطّى اعتبارات الحاجة البحتة ليصبح قيمةً اجتماعيةً وثقافيةً واقتصاديةً، بل وفنيّة مدهشة، سبقتها – بحكم تطوّر العديد من الأشياء – قيمة تاريخية ودينية واعتبارية..

تتحدّث هنا **حزامة حبايب** عن المظلة، كاختراع بشري، لم تشِ محدوديّة استخدامها في البدء، وطابعها العملي، وشكلها مكرَّس الهوية، أنّها قابلة لاستيعاب كلّ الأفكار الممكنة، بل قد تستظلّ تحت محيطها أكثر الأفكار والتصورات خياليّة وجموحاً.



Corbis







ما إن حمل الإنسان المظلّة، كإكسسْوار – وإن ليس ملحّاً – حتى طوّع نهاراته «مجازاً»، فأصبحت الشمسُ أكثرَ رأفةً به، كما حدّ من هجْمة الشتاءات عليه، فلم يعُد ماء السماء يطوِّقه، وإن ظلّ يغازله، وكثيراً ما قد يباغته، فلا «يلحق» أن يشهر مظلّته في وجه انثيالاته.

بين اللهيب والبلل، تفتّحت الشماسي والمظلات فوق الرؤوس خلال حقب التاريخ، وعبر الثقافات الإنسانية، قطعت التصاميم والألوان والخامات البحار والمحيطات، جاءت فرادى ثم توافدت جماعات، حتى إذا استقرت في مداخل البيوت في البيئات المشمسة جداً أو الماطرة – بطبيعتها – بغتةً، حتى تفرغ الإنسان لاشتقاق الفنّي والآسر والفاتن من هذا الاختراع البسيط، السلس في الظاهر..




كرة حمراء من المظلات في شانغهاي

في اللغة..
الغلبة للشمس

«المظلة» و«الشمسية» مفردتان لأداة واحدة، شقّتا طريقهما إلى لغتنا العربية. وفي حين اقترنت كلمة «شمسية» بالمحكية العربية الشفاهية، وظلّ معناها مقيداً باستخدامها الوحيد المتعارف عليه كأداة حماية من الشمس (أو المطر لاحقاً)، فإن المظلّة اتّسع مداها، متخطِّيةً عتبة المادي المحسوس إلى المجاز، إذ تشكِّل المظلة نطاقاً تستظل تحته الأفكار والرؤى والمؤسسات، ذات القواسم المشتركة، حيث تتحرك بطريقتها، وفي الوقت نفسه تكون مرتهنة لشرط الفضاء الذي تُتيحه مساحة ظلها، على اعتبار أن مساحة الظل هنا هي المعنى الشامل، وبالتالي فإن المظلة تكون بمثابة «منطقة حماية لمجموعة من الأشياء المشتركة».

من بين مفردات كثيرة تحمل معنى مظلة باللغة الإنجليزية، تظل مفردة Umbrella الأكثر شيوعاً واستخداماً، حيث تتقاطع المفردة – بطريقة أو بأخرى – مع مفردات مشابهة في العديد من لغات العالم. هناك أيضاً كلمة لا تقل شيوعاً هي Parasol، والمستخدمة في لغات عدة كالإنجليزية والفرنسية والإيطالية والهولندية والدانماركية والبولندية وغيرها. تعود كلمة Umbrella إلى مفردة umbra اللاتينية، ومعناها فيء أو ظلّ، والكلمة اللاتينية مشتقة أساساً من المفردة الإغريقية القديمة ombros، التي تفيد المعنى نفسه. ثمة مصادر تفيد بأن الكلمة مشتقَّة من المفردة اللاتينية umbella (حيث إن الـ umbel هي وردة دائرية مسطحة، وهو ما يقترن بسطح المظلة الدائري)، أو من مفردة umbra التي تعني «مظلَّل». أما كلمة Parasol، فتتألف من مقطعين؛ para وتعني «وقاء» أو «إيقاف»، و sol ومعناها شمس.

وعلى الرغم من أنّ المعنى الدلالي لكلّ من Umbrella و Parasol واحد، لجهة ارتباط المفردتين بـ«الحماية من الشمس»، فإن المظلة المستخدمة للوقاية من حرّ الشمس يشار لها بالإنجليزية Parasol، في حين أن تلك التي تستخدم لدرء زخات المطر فتعرف بـ Umbrella، والفرق بين كل منهما هو الخامة المستخدمة في صنعها، فمظلة المطر مصنوعة من قماش مقاوم للماء.

أيا كانت المفردات الدلالية والاشتقاقات اللغوية، من الجليّ أن المظلّة أو الشمسية، وما يتفتّق عنهما من مفردات تحوم في إطار المعنى نفسه، اقترنت في المنشأ بالحماية من الشمس، لا من المطر كاستخدام ثانٍ، دخل لاحقاً في مفردات الثقافة البشرية. والحقّ أنّ غالبية المصادر التاريخية تكاد تجمع أن المظلة ظلت لحقبة تاريخية طويلة أداة أو إكسسواراً للحماية من الشمس، والتماس بعض الفيء، خاصة في فترات الظهيرة اللاهبة. ولم تعد مُجازةً لدرء المطر إلا في فترة متأخرة نسبياً، وذلك في القرن الثامن عشر. لا يوجد سبب متّفق عليه لهذا الأمر، الذي يبدو للوهلة الأولى غريباً، لكن ثمة رأياً أنثروبولوجياً في هذا الخصوص يلقى مصداقية، مفاده أن الشمس، وإن كانت مهابةً في معظم الثقافات، إلا أنها اقترنت بالجفاف، بياس الأرض ومَحْلها وبخلها. في حين ظل المطر رديفاً للخير الذي تنعم به السماء على أهل الأرض، وبالتالي لم يكن الإنسان ليفكِّر أبداً بحجبه عن نفسه أو عن الأرض، فالبلل خصب وحياة ونظافة، وقطعاً فإن محاولة صدّ أو إيقاف ماء السماء أمر مثير للاستهجان، بل كان ضرباً من التجديف أن تحول – متعمداً – بينك وبين المطر.

وبالطبع، لا يمكن أن نتغاضى عن الدور الثالث والرئيس للمظلة، بعد الوقاية من الشمس وصدّ المطر، والمتمثل في كونها أداة «تقنيّة» أساسية في التصوير الفوتوغرافي، إذ تساعد المصور الفوتوغرافي المحترف في التقاط صور على درجة عالية من الدقة، خاصة في صور «البورتريه» متحكِّماً في شدّة الإضاءة ودرجة السطوع، حيث تسهم المظلة في توفير الإضاءة المطلوبة داخل الاستوديو. من جهة أخرى، تستخدم المظلة في التصوير خارج الاستوديو، خاصة في اللقطات الإعلانية، وذلك للتحكم بضوء النهار الطبيعي.



المظلّة في الفنّ..
ضوء، مخاتل وخيال مشاكس

لا توجد أداةٌ تضاهي المظلةَ في مدى قابليّتها لتطويعها فنياً. لقد أدرك كبارُ الفنانين، عبر العصور، قيمتَها الجمالية وقابليّتَها لاحتواء تشكيل فنّي يزاوج بين الإحساس بالقبض على الحركة/ الحياة من جهة وبين احتواء الضوء المخاتل، المراوغ، وإعادة صوغه أو عكسه ضمن لعبة «آسرة» تكون فيها «خبطة» الفرشاة أو «مسحتها» بمثابة «اصطياد» لحظة الضياء، وما يتفتّق عنها من ظلال، لتعود الألوان إلى تعريفها الأساسي، بوصفها أحد تجليات المزاج الضوئي..

لعل الانطباعيين كان لهم شرف «الافتتان» الأجمل بالمظلة، هم الذين انطلقت فلسفتهم، كما فرشاتهم، في المقام الأول من مفهوم «اقتناص» الضوء في خصائصه المتغيرة والمتبدِّلة، إلى جانب تضمين «الحركة» في اللوحة باعتبارها عنصراً حيوياً في بناء الخبرة والإدراك الإنسانيين.

كان الرسام الفرنسي كلود مونيه، مؤسِّس الحركة الانطباعية في القرن التاسع عشر، من أوائل من «لعب» على مفهوم الضوء، الذي تحجزه المظلة، أو تقتنصه، أو تمتصه، أو تعكسه، أو توزِّعه، وذلك من خلال عديد من الأعمال، من بينها ثلاث لوحات على الأقل تحت عنوان رئيس «امرأة تحمل مظلة»، مع فارق جوهري في كلّ عمل، له علاقة بحركة المرأة أو السيدة في اللوحة؛ ما إذا كانت تتحرك إلى اليسار أو اليمين، ذلك أن الحركةَ تحدِّدُ اتجاه الضوء.. يُلاحظ أن وجوه النساء في هذه اللوحات مغلَّفة بالظلال، ذلك أن المظلات تحجب عنهن الضوء السافر، ما يضفي على نظراتهن مسحة غموض ورومانسية ولين.

من بين أعمال الانطباعيين التي يجمع معظم نقاد الفن على عبقريتها لوحة «المظلات» للفرنسي بيير – أوغست رينوار، الذي أسهم بصورة جوهرية في تطوير ما يعرف بـ «الستايل الإمبريشنستي»، مضفياً على الانطباعية خصوصيةً تحيطُ اللوحةَ بجمال وبهاء وحسيّة متدفقة. رسم رينوار «المظلات» في ثمانينيات القرن التاسع عشر، حيث تصوّر مشهداً لشارع مزدحم في باريس. يحمل معظم الناس في اللوحة النابضة بالحياة مظلات لحمايتهم من المطر. الشخصية الأبرز في اللوحة امرأة تسير بلا مظلة، وهي صاحبة الملامح الأوضح، الأكثر نُطقاً، لكأن نظراتها تخاطب الرائي. على أن المرأة، التي بوغتت ربّما بالمطر تبدو وكأنها ترفع حاشية فستانها كي لا يتلوث بالماء والطين.. كذلك ثمة طفلتان، في اللوحة، بلا مظلة. من الجليّ أن المطر هطل في اللوحة للتو، ذلك أن إحدى نساء اللوحة المتواريات تنظر إلى أعلى وتهمّ بفتح مظلتها، وهي لقطة لحظية «انطباعية» بامتياز، ذلك أنها تعزِّز من قيمة الاحتفاء بالحركة في فلسفة الانطباعيين. على الرغم



«المظلات» للرسام الفرنسي بيير – أوغست رينوار

مـن العفويـة الجميلـة والفاتنة التـي يبدو عليهـا أناس اللوحـة، إذ يتحركـون ويسيرون في الشـارع دون توقف، ويكادون يصطدمون بنا، إلا أنه يلاحظ أن رينوار حرص على أن يولي المظلات اهتماماً خاصاً، مرتباً إياها بعناية فـي زوايـا معيَّنة، بحيث تتخـذ أشـكالاً هندسية تحافظ على تـوازن بصري جمالي. مكمن الفتنـة في اللوحة هو ‹المظلات› بلا شكّ، وفيها يتجلى إبداع رينوار. فاللوحة التي يطغـى عليها، من النظرة الأولـى، اللونان الرمادي والأزرق الداكـن إنما تشـعّ بجملة ألوان مـن «النظرات» التاليـة المعاينـة الفاحصة، حيث تبـدو مسحات الضوء التـي تطوِّق أسطـح المظـلات بسلاسة امتـداداً لضياء الطبيعـة المنسـاب مـع المطـر أو المتخلـل عبـر الغيم المباغـت؛ والمظلات التي تبدو ذات خامة لونية واحدة، إنمـا تنسج كلٌّ منها مع الضوء لونَها الخاص بها ما يجعل التماثل أو التطابق اللوني محض افتراء هنا!



«شارع باريسي، يوم ماطر» للرسام غوستاف كايبوت



امرأة تحمل مظلة (إلى اليمين) – كلود مونيه

امرأة تحمل مظلة (باتجاه اليسار) – كلود مونيه

مـن الانطباعيين الذين يجـدر التوقـف عندهم، لجهة استنطـاق المظلـة جمالياً، الرسـام الفرنسي غوستاف كايبـوت، وذلك فـي لوحته الشهيـرة «شـارع باريسي، يـوم ماطـر»، التي تعدُّ مـن بيـن أعماله الأكثـر تميزاً، حيـث يُلاحـظ أن كايبوت «طبّق» فيهـا أبرز خصائص الانطباعيـة، تحديـداً لجهـة عاملـي الضـوء والحركة، مـع إضفـاء تأثير فوتوغرافـي واقعي يتجلّـى في وضوح القسمات والملامح. كذلك، تكاد تكون مظلات كايبوت في الشارع الباريسي من بين الأكثر تسربلاً بالضياء، مع مسحة غيم جليّة.

حضـرت المظلـة وتفتحت وأينعت فـي فرشاة عديد من الفنانين، من مختلف الأزمنة والثقافات، وعكست – إلى جانـب الضياء والجمال – الاتجاهـات والتيارات الفنية عبـر التاريـخ. ومـع ازدهار فـن المجسَّمات فـي القرن العشريـن، أطلقت المظلة العنان للخيال البشـري، فذهب إلى أفق مشاكسـة، مشاغبة. فمـرة، تكون المظلات سـرب طيور، ومرة عنقود ألوان، ومرة كرات مضيئة، ومرة ثريات متوهجة، ومرة زهرات متفتحات، ومرة ثمرات ناضجات على شجرة، ومرة فراشـات، ساكنـات، تستريح بأجنحتهـا المفروشة على العشـب.. وفـي كل تشكيـل، يجاهد الخيـال كي يمضي أبعد في خيالاته..

نتركـكم مـع صـور بعض المجسّمـات الفنيـة التي ابتدعهـا الخيـال الإنسانـي، إذ تـزرع فـي عيوننـا الدهشة..

أصل وفصل..
من النبلاء إلى النساء

يميل العديد من المؤرخين إلى نسب المظلة، في صيغتها الأولى إلى الصين، قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام، حيث يرى الباحثون أن الصينيين الأوائل قاموا بربط أوراق شجر ضخمة بأضلاع شبيهة بالأغصان فيما قد يكون أول اختراع فعلياً للمظلة. بيد أن باحثين آخرين يؤكدون أن فكرة المظلة الأولى استُلهمت من شكل الخيمة، وهو الشكل الذي ظلت عليه المظلة على مدى التاريخ وحتى يومنا الراهن. وأياً ما كان الأساس أو المفهوم الذي انطلقت منه المظلة

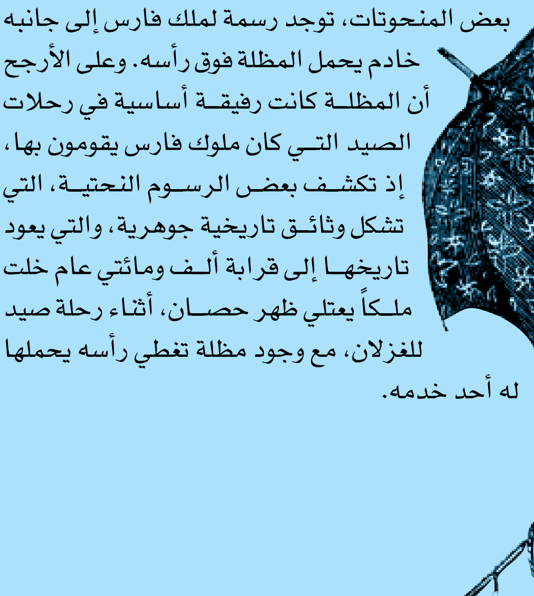
لا يوجد تاريخٌ مجمَع عليه بشأن تاريخ المظلة، كما لا يمكن الاتفاق على نسب أصلها إلى ثقافة بعينها، فثمة دلائل أركيولوجية وأنثروبولوجية تفيد بأن المظلة كانت متداولة – تاريخياً – في عديد من الثقافات البشرية، فعرُفت في مصر والصين واليونان القديمة وروما القديمة والهند وبلاد الرافدين وبلاد فارس، على أن معظم المصادر تجمع بأن تاريخ المظلة يعود بين ثلاثة إلى أربعة آلاف عام (ما يجعلها من أقدم الاختراعات البشرية)، وأنها شهدت ولادتها الأولى في الصين.

إلى ذلك، ارتبطت المظلة بالرِّفعة وسموّ المكانة الاجتماعية، حيث اقتصرت في صيغتها الأولى على رجال الدين وطبقة الأثرياء والنخبة في المجتمع. ففي مصر القديمة، كانت البشرة الفاتحة، غير المدعوكة بالشمس، من سمات طبقة النبلاء، لذا كان من الشائع أن يلجأ أفراد المجتمع المخملي إلى المظلّة لحماية بشراتهم من التلوّح بحرارة الشمس، حيث كان العبيد هم الذين يحملون المظلات الضخمةَ فوق رؤوسهم. وكانت المظلات المصرية عبارة عن مروحة مصنوعة من سعف النخيل أو أوراق الشجر العريض أو مجموعة من الريش الملون مثبَّتة على مقبض طويل. وكلما كانت المظلة ضخمة، وبتفاصيل كثيرة، كلما عكست مكانة صاحبها وحجم ثرائه. وبلغ من تقدير المصريين القدماء لمظلاتهم أنهم ضمنوها في رسوماتهم ومنحوتاتهم، باعتبارها توقيعاً بارزاً على حظوتهم الاجتماعية.

ولا تفوتنا الإشارة إلى أن المظلة كانت رمزاً دينياً في المعتقدات الدينية الأولى، إذ اقترنت بآلهة الخصب والحصاد، والموت والانبعاث، فالآلهة المصرية نوت، آلهة السماء في مصر القديمة، كانت تشبه أحياناً مظلة، إذ ترى جسدها في الرسومات مُنحنياً فوق الأرض في وضعيّة تقوُّس على هيئة مظلة. ويمكن العثور على رمز ديني شبيه في العديد من الحضارات التي عرفت «التعددية الإلهية».

في صيغتها الأقرب إلى مفهومها الحالي، تشير السجلات التاريخية إلى أنّ أول مظلة قابلة للطيّ موثقة تعود إلى العام 21 ميلادية، حيث صممت خصيصاً للإمبراطور الصيني وانغ مانغ، كغطاء فوق عربته ذات الأربع عجلات، حيث كان بالإمكان التحكم بدرجة اتساع المظلة وانكماشها، حسب الحاجة. ويُعتقد أن المظلة، القابلة للفتح والطي، قد عُرفت فعلياً في الصين في القرن السادس قبل الميلاد. عموماً، الصينية، فلقد اقترنت بطبقة الحكام والنبلاء. كذلك، دل تصميم المظلة، وحجم البذخ في التفاصيل على نفوذ صاحبها، خاصة مع تطور تصاميم بعض المظلات بحيث كانت تتألف من عدة طبقات. إذ تشير الروايات التاريخية إلى أن مظلة إمبراطور الصين تألفت من أربع طبقات، في حين كانت مظلة ملك سيام مؤلفة من سبع أو تسع طبقات. ووصفت كتابات قديمة عثر عليها في بورما (ميانمار حالياً) الحاكم بـ«سيد المظلات الأربع والعشرين»، نسبة إلى عدد الطبقات التي تألفت منها مظلته هائلة الحجم.

من الصين، سافرت المظلّة إلى اليابان، ومنها إلى كوريا، كما وصلت بلاد فارس، ومن ثم انتقلت إلى العالم الغربي عبر طريق الحرير. كذلك، عُرفت المظلة تاريخياً في مملكة آشور في العراق، حيث تظهر المظلات في المنحوتات التي عُثر عليها في نينوى بكثرة. لكن المظلة الآشورية ظلت حصراً على الملك، الذي كان أصلع، حيث كان الخدم يحملون له المظلة، ولم يكن من المسموح أن ترفع المظلة فوق أي شخص آخر! في بلاد فارس، تكرر ظهور المظلة في منحوتات مدينة برسبوليس، أو تخت جمشيد، عاصمة الإمبراطورية الأخمينية. في بعض المنحوتات، توجد رسمة لملك فارس إلى جانبه خادم يحمل المظلة فوق رأسه. وعلى الأرجح أن المظلة كانت رفيقة أساسية في رحلات الصيد التي كان ملوك فارس يقومون بها، إذ تكشف بعض الرسوم النحتية، التي تشكل وثائق تاريخية جوهرية، والتي يعود تاريخها إلى قرابة ألف ومائتي عام خلت ملكاً يعتلي ظهر حصان، أثناء رحلة صيد للغزلان، مع وجود مظلة تغطي رأسه يحملها له أحد خدمه.





عُرفت المظلة في بلاد الإغريق قبل مئات السنين، لكنها سجلت تطوراً اجتماعياً نوعياً هناك، فاليونانيون القدماء أول من طوروا استخدام المظلة للنساء على نطاق واسع، حيث يذكر الكاتب والمسرحي اليوناني أرسطوفانيس المظلة باعتبارها من بين الإكسسوارات التي تستخدمها المرأة اليونانية، وكانت تُفتح وتُغلق. ويبدو أن المظلة في اليونان ظل استخدامها مقتصراً على النساء. ومن المحتمل أنها انتقلت إلى روما من اليونان، حيث كانت شائعة الاستخدام وسط النساء أيضاً، حيث كانت تستخدم لصدّ حرارة الشمس، وليست لتجنب بلل الأمطار.

مظلات بمواصفات عالمية في الحرم النبوي

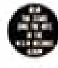
من بين المشروعات الخلاَّقة التي تم تنفيذها أثناء توسعة خادم الحرمين الشريفين في المدينة المنورة، هي إضافة 250 مظلة على شكل زهرة اللوتس تغطي ساحات الحرم النبوي الخارجية لوقاية المصلين من وهج الشمس الشديد والأمطار كذلك.
تغطي المظلة الواحدة 576 متراً مربعاً، وتعمل بنظام آلي لفتحها وإغلاقها عن بُعد حسب الحاجة حين تسمح الظروف المناخية بذلك.. كما يشكِّل الرمح والتاج نهاية المظلة من الأعلى، وهي مصنعة من النحاس الملمع المطلي بالذهب (طلاء كهربائي)، أما نسيج المظلة فهو مصنوع من التفلون المقاوم للحريق.



مظلات لوّنت ذاكرتنا السينمائية والغنائية

كإكسسوار جمالي، رمزي أو قصديّ، استُثمرت المظلة – بتعبيراتٍ دلاليةٍ متنوعة – في عدد من المرويّات السينمائية. وفي بعض التجارب كانت المظلة بصمة الفلم الأبرز والأميز.





جين كيلي يؤدي أغنيته الشهيرة في فلم «الغناء تحت المطر»

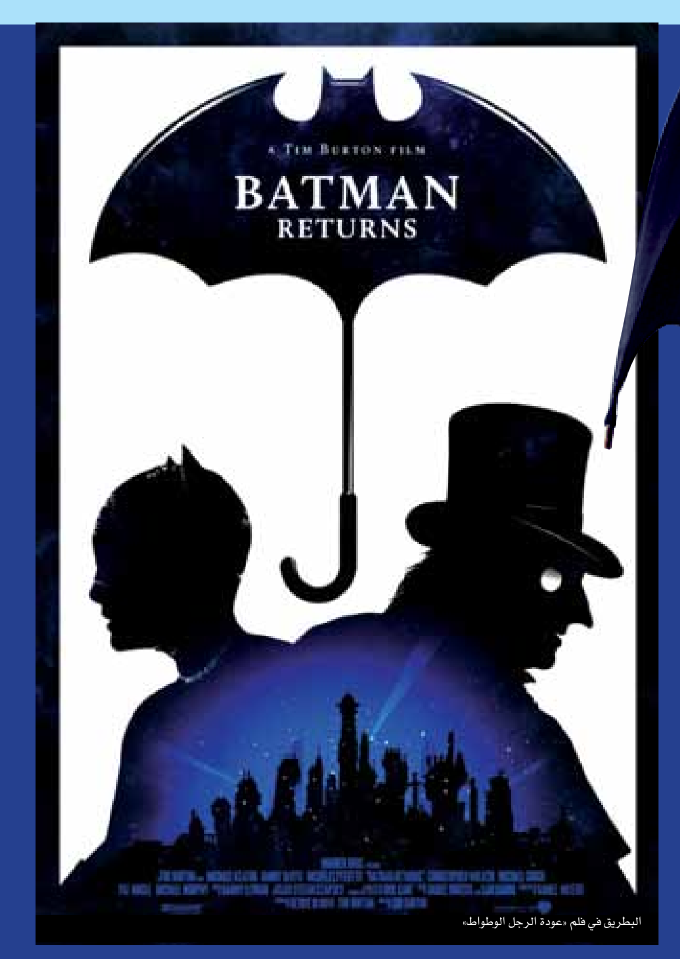
لا يمكن الحديث عن المظلة في السينما أو الفن دون أن نتوقّف مع الفلم الغنائي الاستعراضي «الغناء تحت المطر» (1952) بطولة جين كيلي. ففيه يقدِّم كيلي رائعته «أغنّي تحت المطر»، من خلال أداء استعراضي يتناوب فيه على فتح المظلة وإغلاقها، حيث تشكل المظلة جزءاً أصيلاً من تصميم «الكريوغراف»، وهو ما قد يكون أول أداء استعراضي من نوعه في تاريخ الفن باستخدام المظلة.

ماري بوبنز

من كلاسيكيات السينما العالمية التي تشكِّل المظلة فيها جزءاً أساسياً من الفلم، معنى ومضموناً، كثيمة قابلة لأكثر من تأويل، الفلم الفرنسي «مظلات شيربورغ» (1964) من إخراج جاك ديمي، بطولة كاترين دينوف ونينو كاستلنوفو، وهو فلم «مُموسق» بالكامل، فكلّ حواراته مُغنّاة، في محكية سينمائية تنساب بعذوبة، لا يشعر الرائي معها بأن الموسيقى عنصر خارجي، وإنما من نسيج الفلم. يحمل الفلم اسمه من محلٍّ لبيع المظلات تديره امرأة مع ابنتها الصبية «جنيفيف» (كاترين دينوف)، ذات الـ17 ربيعاً. تقع جنيفيف في غرام الشاب «غي» (نينو كاستلنوفو)، لكن كقصص الحب الخالدة، لا تُكتَب نهاية سعيدة للعاشقين، إذ يشكِّل كل منهما أسرة، بمعزل عن الآخر، تشدّه إلى عالم الواقع. «مظلات شيربورغ» رواية الخسارات والحب الضائع؛ قد تقينا المظلات من المطر لكنها لا تقينا من انعطافات الزمن.

للتلطيف من مزاج الفقد، نتوقف مع فلم «ماري بوبنز» (1964)، وهو فلم غنائي استعراضي، من بطولة جولي أندروز وديك فان دايك، دخل كلاسيكيات السينما من خلال شخصية المربية «ماري» ذات القوى الخارقة، حيث تهبط بمظلتها على عائلة «بانكس» الإنجليزية، لتصلح حالهم وأحوالهم، فتعلِّمهم الدرس المهم في الحياة، وهو أنّ الحياة وُجدت كي نعيشها ونستمتع بها. لم تقترن المظلة بشخصية ماري بوبنز فحسب، وإنما خرجت من الشاشة حيث أصبحت رمزاً لوظيفة المربية «الاستثنائية» التي يمكن أن تصنع المعجزات في تربية الأطفال «المستعصين»! ثمة إشارة لهذا الرمز في فلم «مذكرات مربية» (2007)، الذي تلعب فيه الممثلة الأمريكية سكارليت جوهانسون دور «آني برادوك»، وهي خريجة جامعية تعمل مربية لدى عائلة ثرية، حيث ترى آني رسماً لمظلة على إحدى المباني في إحالة على وظيفة المربية التي تلتحق بها صدفةً، أو بالأحرى عن طريق «الخطأ»، قبل أن تغدو التجربة جزءاً حيوياً من تطوّر شخصيتها على أكثر من صعيد.

لكن المظلة «السينمائية» لا تنطوي على إيحاءات رومانسية بالضرورة، إذ تستخدم المظلة كسلاح قاتل من قبل «الرجل البطريق»، رمز الشر، (الذي يجسده الممثل الأمريكي داني دفيتو) في فلم «عودة الرجل الوطواط» (1992)، كما تُستخدم كسلاح سري فعّال في أفلام



البطريق في فلم «عودة الرجل الوطواط»

مظلة البطريق في فلم «عودة الرجل الوطواط»

الإثارة البوليسية والجاسوسية مثل فلم «المنتقمان» (1998)، حيث يكاد لا يُشاهَد العميل البريطاني جون ستيد (الذي يتقمّصه النجم رالف فيانس) دون سلاحه الرئيس: المظلة!

على صعيد الأغاني، تزخر المكتبة الغربية بالأغنيات التي تدخل فيها المظلة كمفردة ذات إيقاع مبهج بالمُجمل. من أشهر تلك الأغنيات، كما أشرنا سابقاً، «أغني تحت المطر» التي أداها جين كيلي. على أنه قبلها وبعدها تضيء في الذاكرة أغنيات كثيرة تحتفي بالمظلة، كرمز دافئ المعنى، لعل أشهرها أغنية «دع الابتسامة تكون مظلتك في يوم ماطر»، التي تعود إلى عشرينيات القرن الماضي وقُدِّمت بمئات النسخ، من أبرزها وأكثرها انتشاراً تلك التي أدّاها المغني الأمريكي بينغ كوسبي عام 1957. لعل أشهر الأغنيات الحديثة التي أخذت المظلة، اسماً ومعنى، أغنية «المظلة» للمغنية الباربادوسية ريانا (2007).

الملاحظة التي لا يمكن تفويتها هو غياب المظلة، شبه التام، عن المكتبة الموسيقية العربية. فإذا ما عصرنا فكرنا في محاولة استعادة أقرب أغنية تتناول هذه الثيمة، تبرق في الذاكرة «دقوا الشماسي» للمغني الراحل عبدالحليم حافظ في فلم «أبي فوق الشجرة» (1969) الذي يتقاسم بطولته مع نادية لطفي وميرفت أمين. و«الشماسي» في الأغنية هي جمع «شمسية»، وهي تلك زاهية الألوان، ضخمة الحجم، التي تُغرس في رمال الشاطئ، مسرح الأغنية، ضمن أوبريت صيفي غنائي خفيف، على أحد شواطئ الإسكندرية. من الأغنيات التي راجت في منتصف تسعينيات القرن الماضي أغنية «تحت الشمسية» للمغني اللبناني زين العمر، حيث اشتهرت بسبب إيقاعها الخفيف من جهة وموضوعها غير المألوف، لجهة ندرة استخدام مفردة الشمسية في الأغنية العربية عموماً. وإذا كانت «شماسي» عبدالحليم حافظ، الأشهر قاطبة إن لم تكن الوحيدة، يتم التغني بها لصدّ شمس الصيف، فإن «شمسية» زين العمر أقرب إلى مناخ منطقة الشرق الأوسط، حيث الغلبة لمطر الشتاء على حرّ الصيف، فهي لصدّ زخات المطر.




من فلم «مظلات شيربورغ»

MARY POPPINS
BROADWAY'S PERFECTLY

رجل إنجليزي شجاع!

لم تلقَ المظلة رواجاً أو استعمالاً على نطاق عريض في أوروبا إلا في القرن السابع عشر، وعلى الأرجح أن المظلة وصلت أوروبا من الصين. ويُقال إن الطليان أول من «عمّموا» استخدام المظلة، التي أشاروا إليها بـUmbrella، وكان الرحالة الإنجليزي توماس كوريات قد أشار إلى أنه شاهد الخيالة في إيطاليا يحملون بأيديهم مظلات وهم على ظهور الجياد، ما جعل مساحة وفيرة من الظل تفترش فوق رؤوسهم. جاء ذلك في كتابه المرجعي في أدب الرحلة «كروديتيز» (1611)، الذي يسجِّل فيه ملاحظاته أثناء قيامه بجولة في أوروبا، قطع أجزاءً كبيرة منها سيراً على القدمين، متوقفاً في فرنسا وإيطاليا وألمانيا ودول أوروبية أخرى.

وصلت المظلة فرنسا في القرن السابع عشر، حيث يسجل التاريخ أن النساء الفرنسيات هن اللاتي عمّمن استخدام المظلة وقد تحوّلت في أيديهن إلى إكسسوار أنيق وموضة. وكانت المظلات قد تفتحت، زهرات صيفيات يانعات، في أيدي النساء الإنجليزيات، في النصف الثاني من القرن السابع عشر، وإن كن أقل ولعاً وأقل إقبالاً عليها مقارنة بنظيراتهن الفرنسيات. يقال إن البرتغالية كاترين أميرة براغانزا هي أول من أدخلت المظلات إلى إنجلترا في أعقاب زواجها بملك إنجلترا تشارلز الثاني عام 1661، إذ كانت قد أحضرت معها – ضمن جهاز العروس – شمسية برتغالية الصنع.

ثم كان أن أهدت الصين العالم المظلة «المشمَّعة» المقاومة للماء، والمستخدمة خصيصاً لصدّ زخات المطر، فزاحمت مظلة المطر مظلات الشمس في أوروبا بدءاً من مطلع القرن الثامن عشر. منطقياً، وبالنظر إلى المناخ الماطر في معظم أيام السنة في إنجلترا، كان مقدراً لمظلة المطر، التي كان يشُار لها في البداية باسم Umbrellow، من كلمة Ombrelle الفرنسية (المشتقة بدورها من الإيطالية Ombrellino) أن تلقى رواجاً وسط الإنجليز. ومع ذلك، تأخّر تداولها على نطاق رجالي، حيث اقتصر استخدامها في البداية في المقاهي؛ فكانت المظلات مثبتة عند مدخل المقهى، حتى إذا غادر الزبون، سارع أحد العاملين في المقهى إلى حمل المظلة فوق الشخص ومرافقته بها إلى عربته، وذلك لحمايته من البلل. ولم يكن الرجل ليجرؤ على أن يحمل مظلة بيده، خشية أن يكون مثار سخرية المجتمع، كونه يتشبّه بالنساء!

جرياً على سنّة التطور والارتقاء في الحياة، أخيراً تجرأ رجل إنجليزي على حمل مظلة. إنه الرّحالة الشهير جوناس هانْوي، الذي كان أول إنجليزي يسير في الشارع يحمل مظلة في يده في شوارع لندن. يقال إن هانْوي حمل المظلة بدءاً من منتصف القرن الثامن عشر، وظلت في يده ثلاثين عاماً حتى وفاته في العام 1786، فكان نادراً ما يُرى دون المظلة، مفتوحة فوق رأسه، ومغلقة في يده، يتكئ عليها كعصاة في أيام الصحو، حيث كان





جوناس هانْوي يسير في أحد شوارع لندن يحمل مظلته وسط استغراب الناس



محل مخصص لبيع المظلات في لندن «جيمس سميث وأبناؤه»

يستخدمها شتاء للمطر، وصيفاً للشمس. لم يسلم هانْوي من تعليقات الناس، فكانوا ينادونه تندراً بـ«الفرنسي»، ذلك أن الرجال الفرنسيين كانوا قد سبقوا نظراءهم الإنجليز في حمل المظلة، والسير بها في الشوارع دون خجل!

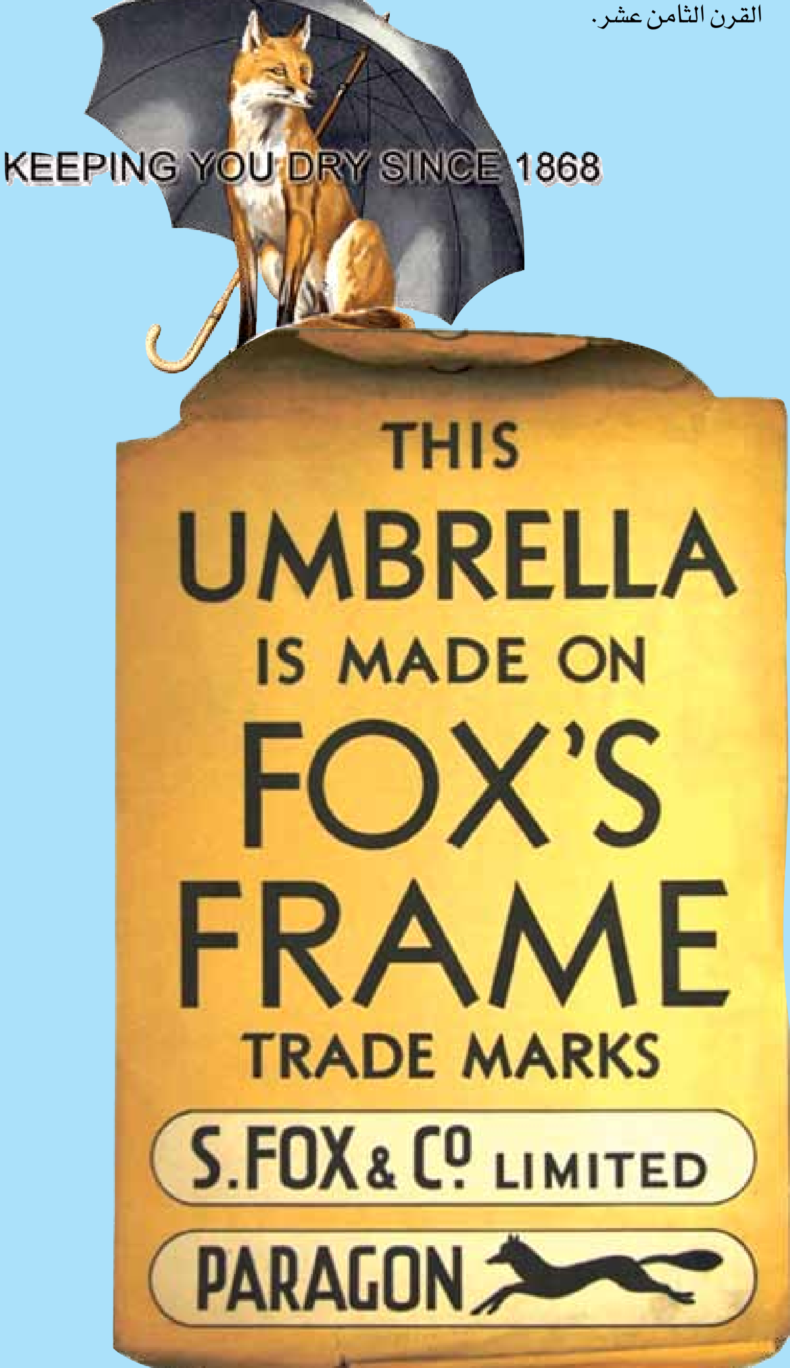
لكن الإنجليز إذ انتقعوا بمياه المطر بما يكفي، وبعدما لم تعد معاطفهم تقيهم البلل، أقبلوا على المظلات في الشتاء، التي أطلقوا عليها في البداية اسم «هانْوي» نسبة إلى «الرفيق» جوناس هانْوي، «أشجع» بني الإنجليز في مجابهة المطر، وأقلهم حياء في اعتماد إكسسوار ظل لعقود نسائياً بامتياز! في تلك الفترة برز التمييز واضحاً بين نوعين من المظلات: مظلة الصيف، التي ظلت مقتصرة تقريباً على النساء، ومظلة الشتاء التي صار الرجال يتسابقون إلى حملها.

مجدٌ أوروبي

عاشت المظلة مجدها في أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إذ شهدت تطوراً في تقنيتها وتنوعاً في الخامات المستخدمة في صناعتها. تاريخياً، سجلت أول براءة اختراع للمظلة، رسمياً، باسم الإنجليزي جون بيل وذلك عام 1786، حين تقدَّم بفكرة قبة أو مظلة مخروطية دائرية تدعمها أضلاع متصلة بقصبة مركزية. ومع تحول المظلة إلى قطعة أساسية في كل بيت، لها مكان مخصص في الخزانة أو في «علّاقة» الملابس بجوار المعاطف والجاكيتات في القرن التاسع عشر، بدأت براءات اختراع المظلات في ازدياد مطرد، حيث قُدِّر عددها بأكثر من 40 في العام، بدءاً من العام 1860 وحتى منعطف القرن العشرين. وشهد العام 1830 حدثاً فريداً في بريطانيا مع افتتاح أول محل من نوعه مخصص لبيع المظلات في لندن. يحمل المحل اسم «جيمس سميث وأبناؤه»، ولا يزال قائماً حتى يومنا هذا في شارع أكسفورد.

قطعاً، أسهمت الثورة الصناعية في ازدهار السوق العالمية للمظلات، وكانت بريطانيا قطب الصناعة الأول في العالم، ونقطة التصدير الرئيسة، خاصة إلى مستعمراتها، بما في ذلك أمريكا. بموازاة المظلات المخصصة للمطر، التي اتسمت بمتانة خاماتها مقابل تواضعها الجمالي، شهدت مظلات الصيف «الشماسي» موضة لا غنى عنها للمرأة في القرن التاسع عشر، كإكسسوار جمالي أكثر منه عملي أو وظيفي، وهو إكسسوار كان قد ترسخ في القرنين الـ17 والـ18، قبل أن يسلك مسالك أكثر ترفاً وبذخاً في القرن الـ19، بحيث بات جزءاً مكملاً لإطلالة المرأة الأنيقة، يعكس مكانتها الاجتماعية والاقتصادية. فغصّت الأسواق بكل أنواع المظلات المصنوعة من الأقمشة المطرزة بعناية، أو المشغولة بالخرز، أو الأقمشة المخرمة الثمينة أو تلك المحيكة من الحرير، وكانت قصبات المظلات من الأبنوس أو العظم (خاصة عظام الحوت)، في حين تنوعت خامات مقابضها من أغلى أنواع الخشب إلى تلك المصنوعة من العاج أو من المعدن، والمرصعة بالجواهر الثمينة.

وحدث التطور النوعي، فبدأت ثورة صناعة المظلات على يد الصناعي الإنجليزي صامويل فوكس في العام 1852 من خلال ابتكار ما يعرف بأضلاع المظلة المصنوعة من الفولاذ على هيئة حرف U بالإنجليزية، والتي ظلت الأساس لهيكل المظلة العصرية، على أن ثمة من يؤكِّد أن مفهوم الأضلاع المعدنية تبلور فعلياً في نهاية القرن الثامن عشر.



.. والمظلة
سلاح فتَّاك أحياناً

قطعاً استخدم الإنسانُ المظلةَ كسلاح، وفي أفضل الأحوال كأداة دفاع عن النفس. والخيال البشري، المهووس بالشرّ كما الخير، طالما سعىً إلى «تسليح» المظلة.

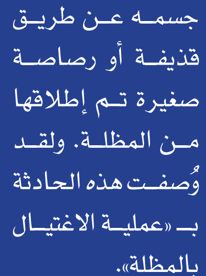
تعود فكرة استخدام المظلة في القتال أو الاشتباك إلى قرابة قرنين من الزمان، وتحديداً في العام 1838، حين وضع البارون الإنجليزي تشارلز دو بيرينغر دراسةً مستفيضةً حول آليات استخدام المظلة كسلاح للدفاع عن النفس في مواجهة قُطّاع الطرق والأشرار. من بين التقنيات «القتالية» التي اقترحها بيرينغر القيام بإعاقة أو سدّ مجال الرؤية لدى الشخص الذي يحاول الاعتداء، من خلال فتح المظلة في وجهه، قبل القيام باستخراج مسدس (يُفترض أنه بحوزتنا)، ومن ثم إطلاق الرصاص على المعتدي!

وفي العام 1897، نشر الإنجليزي جيه إف سوليفان مقالة في مجلة «لودغيت» الشهرية بعنوان «المظلة: سلاحٌ أُسيء فهمه»، دعا فيها إلى تطوير استخدام المظلة كسلاح للدفاع عن النفس، منتقداً عدم وجود مدرسة في لندن لتعليم ما وصفه بـ«المبارزة بالمظلة» أسوة بالمدارس والأندية اللندنية التي تعلم فن المبارزة بالسيف.

لم يمض وقت حتى اعتمد الإنجليزي إي دبليو بارتون – رايت، المتخصص في الفنون القتالية، استخدام المظلة وعصاة المشي في الدفاع عن النفس، من خلال «البارتيتسو»، (و«البارتيتسو» شكل من أشكال الفنون القتالية تم تطويره في لندن في الأعوام من 1898 إلى 1902، حيث جمع فيه بارتون – رايت، صاحب الفكرة، بين أفضل عناصر وتقنيات الأساليب القتالية في كلّ موحَّد، على حدّ وصفه). بعد أن أغلق نادي البارتيتسو أبوابه عام 1902، انتقل تدريس تعلّم القتال والدفاع عن النفس باستخدام المظلة إلى أندية رياضية أخرى في لندن، ثم سافر هذا الفن إلى الولايات المتحدة في العام 1908، حيث تبنى معهد فيلادلفيا للثقافة البدنية منهاج «استخدام المظلة في الدفاع عن النفس»، وكان موجهاً على نحو الخصوص للسيدات اللاتي قد يعترض طريقهن في الشارع لص، فلا يجدن سوى مظلاتهن أفضل وسيلة يدافعن بها عن أنفسهن، ويحبطن من خلالها أي محاولة من جانب اللص لسرقة حقائبهن أو الاعتداء عليهن، إذ كانت من تقنيات استخدام المظلة كسلاح تسديد ضربة بها على رأس المعتدي، أو محاولة إعاقة حركته بـ«احتجازه» من رقبته عبر تطويقها بمقبض المظلة المعقوف!

لكن المظلة لم تكتف بأن تكون سلاحاً دفاعياً، يصدّ ولا يهاجم. ومفهوم تطوير المظلة كسلاح قاتل خرج من روايات الخيال العلمي والسينمائي إلى الواقع، لتتحول إلى أداة اغتيال فعلية! استُخدمت المظلة كسلاح قاتل في اغتيال الكاتب البلغاري المنشق جورجي ماركوف في العام 1978. وكان ماركوف قد فرّ من بلغاريا عام 1969 إلى أوروبا الغربية، حيث عمل في عديد من الوسائل الإعلامية، موجِّهاً من خلالها نقداً لاذعاً لنظام الحكم الشيوعي في بلغاريا. ويُعتقَد أن الحكومة البلغارية قد سعت إلى «إخراسه» بأي ثمن، إذ قام عملاء من الشرطة السرية البلغارية بمساعدة الاستخبارات السوفياتية بمحاولتين فاشلتين لاغتياله، قبل محاولة ثالثة ناجحة. وقعت عملية الاغتيال في 7 سبتمبر / أيلول 1978، بينما كان ماركوف يقطع جسر واترلو، الممتد فوق نهر التايمز في لندن، حيث توقف كي يأخذ الحافلة إلى عمله في محطة البي بي سي الإذاعية. عندئذ شعر بوخزة دبوس في فخذه اليمنى، فنظر خلفه ليرى رجلاً يلتقط مظلة من الأرض ويركض مسرعاً قبل أن يركب سيارة أجرة ويمضي بعيداً عن المكان. ذهب ماركوف إلى عمله، لكنه لاحظ أن الألم كان يتعاظم في ساقه. في المساء أصيب بحمى أُدخل على إثرها المستشفى، ليموت بعد ثلاثة أيام من الحادثة وذلك في 11 سبتمبر / أيلول. وتبين أن سبب الوفاة مادة الريسين شديدة السمية، حيث دخلت جسمه عن طريق قذيفة أو رصاصة صغيرة تم إطلاقها من المظلة. ولقد وُصفت هذه الحادثة بـ«عملية الاغتيال بالمظلة».

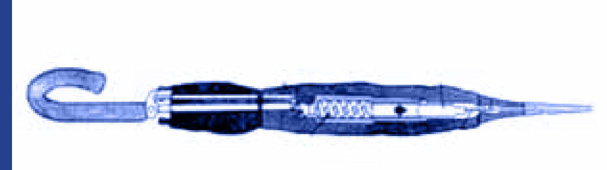
عملية الاغتيال بالمظلة





جورجي ماركوف

الرصاصة



وأخيراً.. أهلاً بالمطر!

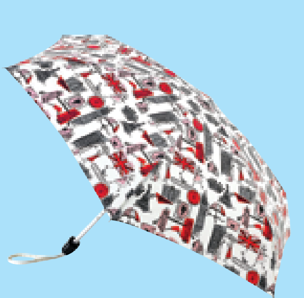
في القرن العشرين، انحسر دور المظلة في الحماية من الشمس، وتعززت وظيفتها في الوقاية من المطر. وفي الثلاثينيات، سقطت «الشمسية» من يد المرأة، بعدما أصبحت البشرة السمراء الملوَّحة بدفء الشمس هي الموضة الدارجة. إلى ذلك باتت الحظوة، بلا منازع، لمظلة المطر. وغدت صورة الرجل يمشي في الشارع ببزة أنيقة ومظلة سوداء في يده من السمات الاجتماعية التي اقترنت بالجنتلمان المدني بعد الحرب العالمية الثانية.

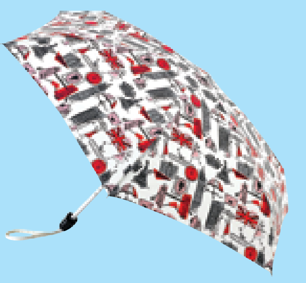
انطلاقاً من النصف الثاني من القرن العشرين، خضعت المظلة للتطور التقني الذي وسم مختلف مظاهر الحياة في الغرب، فابتُكرت المظلات الشفافة التي لقيت رواجاً تحديداً في ستينيات القرن الماضي. وفي الخمسينيات، ظهرت المظلات المصنوعة من النايلون، التي حققت نجاحاً كبيراً كونها عملية وقوية ومقاومة للاهتراء، مقارنة بتلك المصنوعة من الأقمشة المعالجة بالمشمّع. ثم تطورت المظلة القابلة للطي، التي تعود فكرتها تاريخياً إلى الصينيين القدماء، من خلال تقنيات طيّ ولفّ متنوعة، بحيث بات بالإمكان إغلاق المظلة وطيّها ووضعها في حقيبة اليد بكل يسر، وهناك ما يعرف بـ«الميني أمبريلا» (أي المظلة الصغيرة جداً) أو الـ«بوكيت أمبريلا» (أي مظلة الجيب)، وهي مظلة لا يزيد حجمها، وهي مغلقة ومطوية، على حجم الموبايل، ويمكن وضعها في الجيب. في العام 2007، شهد العالم أول مظلة مضاءة، ينبعث منها ضوء، يمكن التحكم بدرجته، في الليل، سواء من خلال إضاءة القصبة أو من خلال لمبات مثبتة تحت قبة المظلة، حيث سُجلت براءة المظلة المُنارة باسم الأمريكي دوين كاهيل من بنسلفانيا.

من بين أنواع المظلات الأكثر شيوعاً وتداولاً في الوقت الراهن: «المظلة المقاومة للهواء»، وهي تمتاز بأنها ذات هيكل متين وإطار محكم، بحيث لا تنقلب «قبة» المظلة، أيا كانت سرعة الريح. وهناك «المظلة القلم» التي تمتاز بقصبتها المعدنية الرفيعة جداً كالقلم. وبالطبع لا ننسى «مظلة الغولف» الشهيرة، التي تتّسم بأنها أكبر حجماً من المظلات العادية، كما أنها أكثر متانة، وأغلى ثمناً، والغرض منها ليس فقط حماية لاعب الغولف، من حر الشمس أو ماء المطر، وإنما عربته كذلك. وعلى الرغم من أنّ «مظلة الغولف» صنعت خصيصاً من أجل ملاعب الغولف، إلا أنها حظيت بسمعة طيبة خارج الملاعب، لتعلو الرؤوس في الشوارع، نظراً لإمكاناتها في توفير حماية أكبر من أنواء الطبيعة المختلفة.

من الأبّهة الملوكية والإمبراطورية، فالمسحة الدينية، ومن ثم النخبوية، نزلت المظلة من عليائها، لتصير في يد العامة، قبل الخاصة.. ومن











WINDSHIELD FOLDS INSIDE UMBRELLA

An umbrella with a built-in windshield, recently patented, protects the user from driving rain but allows him a clear view ahead. Made of sections of transparent celluloid, the windshield folds inside the umbrella when not in use and automatically drops down into place when it is opened. Metal rods hinged to the umbrella ribs hold the shield in a rigid position when in use. The device was invented by a Brooklyn, N. Y., woman who had been struck by an auto that she failed to see because an ordinary umbrella obscured her view during a rain storm.

Umbrella with
a driving rai
the sectio

مظلة مضاءة ينبعث منها ضوء

خصوصيتها النسوية وحصريتها الأنثوية، صارت قرينة للجنسين. ومن إكسسوار شمسي استحالت سمة شتوية أساسية.

ككل الأدوات «البشرية».. بدأت المظلة رمزاً، وانتهت حاجة.. وبين الرمز والحاجة، قطعت المظلة رحلة حياة طويلة، تفتحت خلالها تحت لهيب الشمس، ثم تحت وابل المطر.. بين الرمز والحاجة، انضوت تحت المظلة أفكار وخيالات ورؤى وأغراض شتى.



المظلة الأغلى في العالم

بات بإمكان نخبة النخبة «الجنتلمانية» في المجتمعات الأوروبية التباهي بحمل ما قد تكون فعلياً المظلة الأغلى في العالم! المظلة تحمل توقيع «بليونير إيتاليان كوتور»، العلامة التجارية الأكثر رفاهيةً، حيث تُعد «أول علامة تجارية عالمية راقية من نوعها للرجال حصرياً».

أسس هذه العلامة الراقية رجل الأعمال الملياردير الإيطالي فلافيو برياتوري، الذي اقترن اسمه بسباق فورمولا 1، بالتعاون مع مصمِّم الأزياء الإيطالي البارز أنجيلو غالاسو. ولقد طرحت بليونير إيتاليان كوتور في مطلع العام 2009 مظلةً للرجال مصنوعةً من أرقى وأغلى أنواع جلد التمساح، المقاوم للماء، وبالتأكيد غير القابل للبلى والاهتراء!

وكي تكون المظلة حصريةً أكثر، فقد حرص كل من برياتوري وغالاسو بأن تحملَ كلُّ قطعة تفاصيل فردية، تميِّز صاحبَها، وهي تفاصيل تأتي «حسب الطلب». تُباع المظلة في المحل الرئيس لعلامة بليونير إيتاليان كوتور في العاصمة البريطانية لندن بمبلغ 50 ألف دولار أمريكي أو ما يعادله! (لنعترف أن هذا الثمن يشكِّل «فراطة» أو «خردة» في جيوب المليارديرات!)



بليونير إيتاليان كوتور.. مظلة لنخبة النخبة



متحف أغلفة المظلات

يقول المثل: «الفاضي يعمل قاضي» والأمريكية نانسي هوفمان «فاضية» بالتأكيد! وفي «فضاوتها» ألهمتها إحدى بنات أفكارها بفكرةٍ غريبة من نوع جمع أغلفة المظلات وإقامة متحف مخصَّص للاحتفاء بها.

يُعرف المتحف باسم «متحف أغلفة المظلات»، حيث تأسس في العام 1996 في جزيرة بيكس آيلاند، بولاية مين الأمريكية. ولقد بادرت نانسي إلى إقامة المتحف بعدما اكتشفت، أثناء ترتيب بيتها، أن لديها خمسة أو ستة أغلفة مظلات، حيث لم تعرف ماذا تفعل بشأنها، فقررت أن تجمعَ الأغلفةَ التي بحوزتها، وتلك التي يلقيها الآخرون أو يتبرّعون بها لها، بحيث تعرضها في متحف.

وغلاف المظلة هو عبارة عن الكيس الذي يتم الاحتفاظ بالمظلة في داخله، حيث يكون عادة مصنوعاً من خامة المظلة نفسها، كما يحملُ النقوشَ أو الرسومَ نفسها. يُعرف الغلاف بالجورب أو الجراب أو الكيس. ويضم متحف نانسي، الذي يعدُّ الوحيدَ من نوعه في العالم، أكثر من ستمائة غلاف مظلة، جمعتها من مختلف أنحاء العالم، معظمها تبرعات من زوار المتحف، الذي يفتح أبوابه في الصيف فقط، حيث يُغلق في الشتاء.. (ربما لأن الناس لا يستغنون عن مظلاتهم وأغلفتهم في موسم الشتوية!)

بحسب الموقع الرسمي للمتحف على الشبكة العنكبوتية، فإن الهدف من متحف أغلفة المظلات هو «الاحتفاء بالعادي في حياتنا اليومية، فالأمر له علاقة بالعثور على العجيب والجميل في أبسط الأشياء، وأن نعرف أن هناك قصة دائماً وراء كل غلاف.»



من معروضات متحف أغلفة المظلات



نانسي.. مديرة المتحف وصاحبته





Qafilah website





القافلة

مجلة ثقافية تصدر كل شهرين
عن أرامكو السعودية
سبتمبر - أكتوبر 2012
المجلد 61 العدد 5

ص . ب 1389 الظهران 31311
المملكة العربية السعودية
www.saudiaramco.com



Saudi Aramco website